رواية

يوم فوق آخر هذه الأرض

محمد عز الدين التازي

دار العين للنشر

الرواية الفائزة ضمن قائمة جائزة الطيب صالح 2013

يوم آخر فوق هذه الأرض

محمد عز الدين التازي

الطبعة الأولى/ ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس:٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف: غادة خليفة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٨٦٥ /٢٠١٥
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 313 - 7

يوم آخر فوق هذه الأرض

رواية

محمد عز الدين التازي

الرواية الفائزة ضمن قائمة جائزة الطيب صالح ٢٠١٣

دار العين للنشر

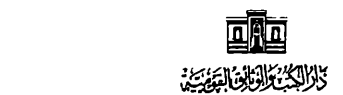

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

التازي، محمد عز الدين
يوم آخر فوق هذه الأرض: رواية/ محمد عز الدين التازي.
الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٥
ص؛ سم.
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٣١٣ ٧
١-القصص العربية.
أ- العنوان
٨١٣

رقم الإيداع/ ١٨٦٥ / ٢٠١٥

"يا صاحبي، أيها الأديب الأريب، والكاتب العجيب، ألا ترى أن الفكر مَشُوبٌ بالرّوية، والظّنّ مَخْلُوطٌ بالوَهْم، والتّذكّر مَعْنِيٌّ بالتّخيّل، والبَديهَة جانِحَةٌ إلى الحِس، والاستنباط موصوفٌ بالغَوْص، وفي ذلك كله ما يجعل اللّبْسَ قائما بين هذا وذاك، بين الأرضي والسماوي، بين المراتب والطبقات، والأوضاع والترديات، والخَلْطُ سَارٍ بين ما تحمله في يمناك وبين ما تحمله في يسراك وأنت السائر نحو المجهول المعلوم؟ بالمجهول ترتاد عالم الكآبة، وبالمعلوم تدفع الكآبة، وأنت ترى أنّ الكآبةَ إيقَاظٌ للحس، وإثراء للخيال، وَتَوْسِيعٌ لِلْوَقْت، واقْتِنَاصٌ للأوضاع العجيبة والوقائع الغريبة، وخَلْطٌ بَيْنَ الْعَقْلِ وبَيْنَ مَا يُصَاحِبُهُ من جنون العقل، فأنت مَن سافر في المسافات، وعايش الكثير من الأوضاع والحالات، فما اعتل سلوك الناس إلا وقد ظهر التصارع بين الحب والحقد، وبين العقل والحمق، وبين العِلْم والجهل، وبين الحِلْم والسّخف، وبين القناعة والشره، وبين الحياء والقحَة، وبين الرّحمة والقسوة، وبينَ الأمانة والخيانة، وبين التيقظ والغفلة، وبين التّقَى والفُجُور، وبين الجرأة والجبن، وبين التواضع والكِبْر، وبين الوفاء والغدر، وبين النصيحة والغش، وبين الصدق والكذب، وبين السخاء والبخل، وبين الأناة والبطش، وبين العدل والجور، وبين النشاط والكسل، وبين النّسْكَ والفتك، وبين الحِقْدَ والصفح. وإن كانت الكآبة تُصَوِّرُ ذلك أيما تصوير، فهي في غير حاجة إلى تبرير، فما شخصياتك الخيالية إلا قبضة من طين مُزِجَ بماء ولا أحد يدري كيف نُفخت فيها الروح حتى بدت وأنت تُقَلِّبُهَا من حال إلى حال ومن مآل إلى مآل، حَبَاكَ الله بالصّنْع الجميل، وحقق لك فيما تفعله الباع الطويل، كان الله لي ولك، وللوَرّاق، ولقارئ هذه الأوراق".

(ابن ضربان الشرياقي)

مواقف هذه الرواية

الموقف الأول: تحوُّلات

الموقف الثاني: من تلك الأيام الخالية

الموقف الثالث: أولى اليقظات

الموقف الأول

تحوُّلات

"اتجه لوكسيوس نحو مدينة "تسالي" فنزل ضيفا على صديق بخيل له زوجة ساحرة تتحول إلى أشكال مختلفة إذا ما دهنت جسدها بأنواع من الزيوت الخاصة بالمسخ والتحول. ولقد طلب لوكسيوس من حبيبته أن تدهنه ليتحول إلى مخلوق آخر، فتحول إلى حمار، وخلال عيشه كحمار تعرض لأنواع العذاب والقسوة والتنكيل والاضطهاد على أيدي بشر كثيرين".

(تحوُّلات الجحش الذهبي، للوكيوس أبوليوس)

"ما إن أفاق غريغور سامسا، ذات صباح، من أحلامه المزعجة، حتى وجد نفسه وقد تحول إلى حشرة ضخمة".

(رواية التحول لفرانز كافكا)

1

فجأة وجدتني طويلا طولا غير عادي.

تَمَدَّدَ جسدي حتى صار على طولٍ لا يمكن أن أَتَخَيَّلَهُ أو يتخيله أحد.

أصبح رأسي يُنَاطِحُ السحاب.

اليدان على طولهما ممدَّدتان بجوار الجسد، والقدمان على حالتهما بقيتا تنتعلان الحذاء الرياضي وهو من مقاس 43، واللباس الرياضي نفسه تمدد طولا ليستوعب جسدي.

رأيتني على هذه الحال وأنا في (طريق ملعب الخيل)، أسير وكأني لا أسير. أخطو لكني أبقى في نفس المكان.

دهشة أصابتني. فكرت في أن ما حدث لي أمر غريب

لا يصدِّقه العقل، ولا يمكن أن يصدقه أحد. وأنا نفسي لم أصدق أوَّل الأمر، ثم ترددت لبعض الوقت فوجدت أن ما حدث قد حدث بالفعل، فجأة، في غفلة مني، وخارج إرادتي.

خشيت أن أصبح معلقا بين السماء والأرض، من فرط ما رأيته من طولٍ يدرك جسدي.

ما أردته هو أن أرى نفسي على صورتي الطبيعية، كما أنا، لكن الطول الذي وجدت نفسي عليه جعل تلك الصورة تختفي لتحل محلها صورة أخرى للرجل الطويل الذي أصبح هو أنا.

سمعت صوتا من داخلي يقول لي:

"أنت يا مراد الأشقر، كيف ستواجه حالتك وقد أصبحت على هذا الطول الطويل، الطويل جدا، وهل أعددت شيئا من الصبر والشجاعة لمواجهة لوضعك الجديد؟".

قلت:

"لا أصدق ما حدث لي. لا يمكن. لا يمكن لرجل هو أنا، مراد الأشقر، أن يتحول من رجل عادي إلى رجل طويل بهذا الطول الذي أراني عليه. أنا واهم، فهذا أمر لا يمكن أن يقع، ولعل شيئا من بصري يخدعني أو أنني أتوَهم ما وقع لي. من غير شك فأنا وَاهِم، أتخيل حالتي، وربما أعيشها في مسافة تقع بين الواقع والخيال بكل

هذا الامتلاء حتى إنني أكاد أصدق أنني أنا مراد الأشقر هو من أصبح هذا الرجل الطويل".

استبدت بي الحيرة وأنا لا أدرك ما وقع لي وكيف وقع.

قبل قليل كنت أسير بخطى حثيثة وأنا أستنشق الهواء، وأقوم من حين لآخر ببعض الحركات الرياضية الخفيفة، وها قد أصبحت على هذا الطول الغريب، عيناي تنظران إلى الأسفل فأرى كل شيء يقع من تحت، وكأن موقع رأسي يوجد في علوٍّ شاهق لا مثيل له.

حدث ذلك في وقت وجيز. كأن سيفا بَتَّارًا قطع بين زمنين، الماضي القريب الذي كنت فيه رجلا عاديا كباقي الناس، والحاضر الذي صرت فيه على نحو فاجع، يفجعني بهذا الطول الذي لا يمكن أن يتخيله أحد.

أيمكن أن يحدث كل هذا الطول لرجل عادي هو أنا، لا يتجاوز طوله 173 سنتيمترًا ليبلغ عددا من الأمتار لا أستطيع تقديرها وأنا في هذا الوضع، كما لا يستطيع تقديرها أحد؟

أعمدة الكهرباء صارت أعاليها عند مستوى ساقيّ، والأشجار السامقة تجاوزتُها في الطول حتى أصبحتُ أراها عند أخمص قدمي.

السيارات العابرة للطريق بدأت تظهر لي مثل لُعَبٍ يلهو بها الأطفال.

ما كان من أحد من الراجلين يمر بجواري في تلك اللحظة، إلا أنني رأيت سائقي بعض السيارات يوقفونها على الأرصفة لبعض الوقت ثم يخرجون منها ليتطلعوا إليَّ بنظراتهم وهم يَمُدُّونَ أعناقهم إلى ذلك العلو محاولين أن يروا وجهي ثم يُخْلُونَ الطريق على وجه السرعة، وكأن رعبا أصابهم وجعلهم يَفِرُّونَ من المكان.

حسبتهم لا يصدقون ما رأوه، وأنا نفسي لا أصدق، فكيف أصدق وأنا رجل عقلاني، أفسر الظواهر بتفسيراتها العلمية، وأميز بين عالم الواقع وبين عالم الأساطير؟

وضْعٌ بالغ الصعوبة بدأت أعيشه، دون أن أدري كيف سوف أخرج منه ومتى سينتهي لأعود إلى حالتي الطبيعية.

عندما أصبحت أنظر إلى الأشياء من هذا العلو لم أشعر بأية نزعة استعلائية أو شعور بالتفوق والتعالي على الآخرين. مع ذلك فقد أدركت أنني لم أعد رجلا عاديا كباقي الناس. وإذا كنت لا أتعالى عليهم فقد تمنيت لو أصاب بعضهم ما أصابني من طول لأجد من يصل طولهم إلى طولي، حتى أتحدث معهم وأرى ما يرون وأعيش ما يعيشون وأشترك معهم في نفس المصير، وإذا أمكن، أن نتحد ونتعاون، ونفكر معًا في طريقة للخروج من حالتنا

غير الطبيعية. ثم تمنيت ألا يحدث لغيري من الناس ما وقع لي من طول غريب، لأن حدوث ذلك سوف يخلق مشكلة بشرية عويصة، إذ كيف سوف يعمل أولئك الناس الطوال الذين تجاوزوا في طولهم العمالقة، وكيف سيأكلون ويشربون ويتزاوجون وعلى أية أَسِرَّةٍ سوف ينامون؟ إذا أصبح كل ذلك غير ممكن بسبب هذا الطول المبالغ فيه، فإن البشرية سوف تنقرض، إلا إذا وجدت لها نمطا آخر للعيش على ذلك الطول.

قد تصيب بعض الناس نزعات استعلائية يحتقرون معها من هم دونهم، وليس دونهم سوى تلك الحشرات الزاحفة والخنافس والديدان وأشباهها من البشر الذين بقوا دون أن يدركهم هذا الطول العجيب الغريب، أما الآخرون، فهم شعب من المتفوقين الذين يدعون سيبرمانات، نسبة إلى السيبرمان، وهو الإنسان الأعلى.

مجرد أفكار عَنَّتْ لي لم آخذها على محمل الجد. وجدت أنني ما زلت أحتفظ لنفسي بتلك القيم التي تجذرت في وعيي وسلوكي، فأنا أعرف قدري بين الناس، لا أتواضع عن زيف ولا أَحُطُّ من مكانتي بينهم، لا أتكبر على أحد لأجعل نفسي فوق العالمين، وإن بسطتُ خدي لأحد فلا لكي يصفعه، وإن كان ثمة من فِعل خير يُسعد الآخرين لا أتردد في القيام به، وإن مس أحد كرامتي أثور دفاعا عنها.

هذا هو مراد الأشقر، أنا، ما وقع لي فَرَّقَ بيني وبين الناس حتى إنني لم أعد واحدا منهم، فكيف يمكنني أن أعيش بين الناس وأنا على هذا الطول العجيب؟

لكني سوف أبقى واحدا من الناس، أعيش وسطهم، وأعاني من معاناتهم، وأشاركهم حلو ومر هذه الحياة.

2

عرق تصبَّب من جبيني. أخذ يتقاطر ويغزو عيني. ينحدر على وجهي. قطراته متتابعة لعلها تتبدد في الفراغ دون أن تصل إلى الأرض.

ابتل جسدي ولباسي الرياضي بذلك العرق. لم أتمكن من أن أرفع يدي لأمسحه بفوطة وضعتها على رقبتي قبل أن أخرج من بيتي تَحَسُّبًا لأن أستعملها في تجفيف عرق محتمل قد ينز من جبيني كلما خطوت وأنا أتريَّض على (طريق ملعب الخيل) فيمنعني من رؤية الطريق. لم أَبْتَئِس. تركت لذلك العرق أن يفعل بنفسه ما يشاء. حتى وأنا كأنني في حمام بلدي من تلك الحمامات التي كنت أستحم فيها قبل أن ينصحني طبيب القلب بعدم دخولها، فقد تركت للعرق شأنه، وأخذت أفكر في أشياء أكثر جدية، من قبيل أنني قد

انشغلت بحالتي. إلى متى سوف أبقى على هذه الحالة من الطول، وإن رحل النهار وأقبل الليل فهل سوف أبقى هنا في هذا الطريق لأبيت ليلتي على القارعة بدلا من أن أبيت ليلتي فوق فراشي في شقتي كما هي العادة؟ وهل سوف أبقى على هذا الطول إلى الأبد، لأصبح من أبطال الأساطير؟

كأنما أبطال الأساطير لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون، لا يضاجعون النساء ولا يحلمون ولا يحبون أحدا ولا يتخاصمون مع أحد. كأنهم منذورون لأن يُشِيعُوا في خيالات الناس أنهم أبطال وليسوا غير ذلك، كأنهم لن يسأموا من هذه التصورات التي تصورها الناس عنهم، كأنهم لم يشكوا بشكواهم من قلق الحياة. ما أسخف أن أصبح بطلا أسطوريا!

رغم أن هذا الأمر سخيف فأنا لا أصدقه، وفي الغالب، إن بقيت على هذا الطول فسوف أبقى واقفا، ولن يستطيع أحد أن يثنيني عن هذا الوقوف، إلا إذا مت جوعا وعطشا وسقط جسدي الطويل على الأرض، وفي تلك الحالة سوف تحدث مشكلة، فكيف لمن يراقبونني أن يحملوا الجثة ليدفنوها في قبر من القبور، وأي قبر سوف يتسع لرجل طويل مثلي؟

ثمة مشكلة أخرى، فقد لا أموت، أبقى حيا لأخطوَ ذاهبا نحو (عمارة الحاج السحنوني) التي منها خرجت صباح اليوم، لأكون

في طريق عودتي إلى بيتي، لأمارس حياتي الطبيعية كما كنت أمارسها. المشكلة أن رجلا طويلا بمثل الطول الذي أصبحت عليه لا يستطيع أن يسير بسلام في (طريق ملعب الخيل)، وأن يخرج من مكانه ليسير في طريق تنبت على جانبيه العمارات، وألا تكون هناك مفاجآت في الطريق، فالطريق في صباح يوم الثلاثاء هذا لا يحتمل أن تكون فيه مفاجآت لأنه خالٍ تقريبا، من حركة السيارات، سيما وأنه هو اليوم الأول من السنة الميلادية 2013. وقد أسلك الطريق سالما وأنا على طولي، ولكن، ما الذي عليّ أن أفعله وأنا أصل إلى باب (عمارة الحاج السحنوني) وأروم دخولها، فثمة مشكلة وهي من أكبر المشاكل، لأنني لا أستطيع أن أنحني، وكيف سوف أنحني وأنا على طولي لأدخل باب العمارة؟ مهما انحنيت وتكوَّمت وأدخلت جسدي في بعضه لكي أدخل باب العمارة فلن أستطيع. وإن دخلت باب العمارة فهل أستطيع أن أصعد الأدراج، وإن صعدتها فهل يمكنني أن أُخرج المفتاح من جيب بذلتي الرياضية لكي أضعه في ثقب الباب؟ وإن فتحت باب الشقة ودخلت فهل سوف يستطيع جسدي أن ينهض واقفا في علو لا يتجاوز الثلاثة أمتار، وهل أقوى على الذهاب إلى المطبخ لتحضير الطعام، وهل أتمكن من النوم على فراشي كما كنت أفعل من قبل؟ ربما سوف أخرق برأسي سقف الغرفة وجسدي يَمْتَدُّ في طوله ليباغت الجيران الذين يسكنون الشقة الواقعة فوق شقتي بجسد يدخل شقتهم من الأرض وقد حفرها

برأسه وامتد حتى تطاول صاعدا إليهم لتصعقهم المفاجأة.

يستحيل عليَّ أن أعود إلى بيتي إن أنا بقيت على هذه الحال. وإذا ما بقيت هنا واقفا على هذا الطول فكم سوف أبقى من الوقت؟ وهل سوف أموت واقفا؟

أليس من حقي أن أموت كما يموت الناس على فراش الموت فَيُسْلِمُونَ الروح وهم ينظرون إلى رحمة السماء؟

ثم لماذا أفكر في موتي وأنا ما زلت أستقبل الحياة وأرى في كل يوم جديد إشراقا لشمس جديدة تبعث الأمل في النفوس والابتهاج بالحياة في القلوب؟

إن مات أحد في حادثة سير فهو يموت على وضعه الطبيعي، وإن قُتِلَ أحد في حرب من الحروب فجثته تبقى على حالها والقوانين الدولية تمنع التمثيل بها أو التعريض بها. وإن مات أحد آخر في رَدْم أو زلزال فجثته تُسْتَخْرَجُ وهي على وضعها الطبيعي، وإن صَعِقَ أحدًا تيار كهربائي أو أصيب بالسرطان أو أصابته السكتة القلبية فهو يموت وجسده على وضعه الطبيعي. أما أنت يا مراد فلو مِتَّ وأنت على هذا الطول فأي قبر سوف يتسع لك وطول جسدك يفوق طول مقبرة بكاملها، هل سوف يدفنونك واقفا، وهل يمكن أن يوجد قبر يُدْفَنُ فيه الميت واقفا، أليس هذا هو العجب العجاب؟

3

ريح خريفية خفيفة هبَّت فأنعشتني. لم أدرِ من أية جهة أتت، وهل هي شرقية أم غربية. تقوت تلك الريح. لم يَنْحَنِ لها جسدي، فقد ظل واقفا كما كان يقاوم أن يميل مع تلك الريح.

بعد حين بدأت أنسجم مع وضعي الجديد.

وجدتها تجربة فريدة تستحق أن تُعاش، فقد أغراني ما رأيت برؤية عجيبة ظهرت لي فيها الأماكن البعيدة التي لا يمكن أن يراها أحد إلا وهو قريب منها أو وهو في وسطها.

رأيت الحقول التي تقع خارج مدينة فاس وهي تمتد على طول (سهل سايس)، والطرقات التي توجد خارج المدينة، تسير فيها السيارَات في اتجاه تازة ووجدة أو في اتجاه مكناس والرباط،

كما بدا لي الجبلان اللذان يحيطان بفاس: (أتْغَاتْ) و(زَالغْ) وهما يَحُفَّانِ بالمدينة، وإن نظرت إلى مدينة فاس فهي تبدو لي من تحت، بشوارعها وأحيائها العتيقة وبيوتها وساحاتها ومآذنها وحَمَّامَاتِهَا العمومية وأضرحتها ومزاراتها وأبوابها وما يوجد داخل الأبواب وما يوجد خارج الأبواب.

عجب وأي عجب هذا!

الآن يمكنني بهذا الطول الذي صرت عليه أن أُشْرِفَ على المدينة من فوق، فأراها كما لم أرها من قبل، وهي فاس مدينتي، طالما جُلْتُ في طرقاتها وأحيائها لكني لم أرها من قَبْلُ كما أراها الآن.

فَتَنَتْنِي الرؤية.

أصبحت مفتونا بما أراه. تُهْتُ في مجالات المدينة وأنا أحاول أن أَتَمَلَّكَ ما يقع داخلها وما يقع خارجها فأستطيع ولا أستطيع، فقد كانت فاس ولا تزال تستعصي على أن يَتَمَلَّكَهَا أحد، أيا كان، ربما لأنها مدينة محفوفة بالأسرار، ولأن تلك الأسرار لا تدركها العين وإنما تُدْرَكُ بالعقل والجوارح والأحاسيس والملموسات والمشمومات والحدوس وكل ما يتوسل به المتصوفة ليدركوا الحقائق الغائبة عن الظهور. وهكذا هي فاس مدينة لها روح أو أرواح، فحتى عندما رأيتها وأنا أشرف عليها من فوق، عرفت أنني

رأيتها ولم أرها، وإن رأيتها لم أر منها سوى الظاهر، أما الباطن فما كان بإمكاني أن أراه.

عدت إلى مكاني في (طريق ملعب الخيل) بعد أن غابت عني مدينتي حتى وهي قريبة من العين.

4

ما الذي وقع لي؟

لا أعرف.

ربما كان وَهْمًا من الأوهام أو خيالا من الخيالات. لكني لن أعود إلى شقتي إلا وقد عدت كما كنت، مراد الأشقر الذي اعتاد كل صباح أن يخرج من العمارة ليسير في طريق ملعب الخيل ليمارس رياضة المشي ثم يعود إلى بيته ليستحم ويُفْطِرَ ويُكْمِلَ نهاره كما هي العادة.

البداية بدأت هكذا، فقد خرجت من العمارة التي أسكن إحدى شُقَقِهَا، وهي (عمارة الحاج السحنوني) الواقعة في نهاية (شارع قاسم أمين)، بلباسي وحذائي الرياضيين، ثم مشيت في (طريق

ملعب الخيل) مشيا خفيفا، وأنا أقوم ببعض الحركات الرياضية، وإذا بي أجد نفسي وقد أصبحت طويلا، طويلا جدا، طولا غير عادي، حتى إنني مع ذلك الطول أصبحت أُشْرِفُ على الأشياء التي أراها من فوق، مما أبهجني، فقد انفتحت لي أبواب الرؤية. لكني مع ذلك أتذكر أنني عندما خرجت من باب العمارة التقيت الحارس إدريس. كان منكمشا في جلبابه الصوفي ولعله لم يرني. تركته لحاله. سرت بخطوات متئدة، مستقيم الجسد. عبرت بين بعض العمارات إلى أن وصلت إلى أول (طريق ملعب الخيل). لاحظت أنني كنت ألتقي كل صباح مع بعض من يمارسون رياضة المشي على هذا الطريق مثلي، غير أنني في صباح هذا اليوم لم ألتق مع أي واحد منهم، فحسبتهم قد سهروا سهرة آخر السنة الميلادية حتى الصباح فما نهضوا من نومهم لكي يباشروا رياضتهم الصباحية.

سرت وحيدا على الرصيف مستظلا بظلال الأشجار التي تحفُ به. ثم جاءت اللحظة التي أحسست فيها بشيء يتغير في جسدي، فوجدته يَتَمَدَّدُ حتى صار على ما هو عليه من طول وبقيت على تلك الحال أسير وكأني لا أسير، أفكر في مصيري، ثم أجدني واهما وأنني حالما أخرج من هذا الوهم سوف أعود إلى حالتي الطبيعية لكي أمارس رياضة المشي ثم أعود إلى بيتي فَأَسْتَحِمُّ وأُفْطِرُ ثم أخرج مع جنازة عمي الضوبلي للصلاة عليها في (مسجد عمر بن الخطاب) وبعد ذلك نواريه التراب في (مقبرة القبب).

نظرت إلى (طريق الوَاجْرِيِّين) حيث توجد معامل الآجر، وهو الطريق الفاصل بين المدينتين: القديمة والجديدة. رأيت حشودا كبيرة من الناس تتدافع صاعدة نحو (ساحة المقاومة) التي كانت في العهد الاستعماري تُسمى (ساحة لاَفْيَاطْ) وما زالت تشتهر بهذا الاسم، فلم أدر ما خطب تلك الحشود وهي تزحف كما يزحف النمل نحو (المدينة الجديدة)، هل سمعوا بخبر الرجل الطويل الذي هو أنا، مراد الأشقر، فأرادوا أن يسيروا نحو طريق ملعب الخيل ليروه بأم أعينهم، حتى لا يبقى الأمر مجرد شائعة من الشائعات؟

وهو صباح يوم الثلاثاء، أول يوم في السنة الميلادية 2013، يوم عطلة جاء بعد ليلة رأس السنة التي سهر فيها كثير من الناس في بيوتهم أو في الفنادق والمراقص والملاهي، والذين يحتفلون برأس السنة الميلادية هم في الغالب من سكان (المدينة الجديدة)، ومن شأنهم في صباح هذا اليوم أن يظلوا نائمين حتى ما بعد منتصف النهار، بعد سهر طويل. أما سكان (المدينة القديمة) فيحتفلون بذكرى المولد النبوي، حيث تظهر في الشوارع الطوائف، من فرق "أحمادشة" و"عيساوة" و"درقاوة"، والناس يشطحون مع شطح تلك الفرق الصوفية، ولذلك فهم في (المدينة القديمة) لم يسهروا ليلة أمس، فذهبوا في صباح يوم الثلاثاء هذا إلى مشاغلهم في الحدادة والنجارة والدرازة والخرازة، غير مبالين بقدوم عام جديد لا يأتي بأي جديد يُنْتَظَرُ منه أن تتحسن أحوالهم المعيشية. وعندما وصل

إليهم خبر الرجل الطويل خرجوا عن بكرة أبيهم فَدَبُّوا دَبيبًا نحو (طريق الوَاجْرِيِّين) ليسلكوا منها إلى (ساحة المقاومة)، ومنها إلى (طريق ملعب الخيل).

5

شمس هذا الصباح الأول من يناير حارقة، تغمر العين بنورها الوهَّاج وتصب حرارتها فوق الرأس.

بدأت (ساحة المقاومة) تَغَصُّ بالكثيرين.

حشود أتت من كل جهات المدينة.

السَّقَّاءُون يبيعون الماء في قِرَبٍ من جلد الماعز، مُوَشاةٍ بِتَوَاشٍ، يحملون على جانب من القربة كؤوسا نحاسية وفي يدهم جرس نحاسي يقرعونه لِيَجْلُبُوا نحوهم العطاش. عربات يبيع أصحابها الحلويات وعصير البرتقال، وأخرى وضعت عليه معروضات من الملابس والأحذية المستعملة، حتى أصبحت الساحة سوقا انعقدت بتلك السرعة. تحول ما حول النافورة من ماء يفيض عنها إلى

مسبح يسبح فيه الأطفال وقد دخلوها بأحذيتهم، فأخذوا يتراشقون بمائها ويتدافعون ليلقوا بأنفسهم فيها بملابسهم وأحذيتهم رغم أن الفصل ليس صيفا، حيث تبيح الحرارة المفرطة في فاس مثل هذه التصرفات التي يأتي بها الأطفال وأحيانا يأتي بها الكبار أنفسهم.

الحشود والباعة الذين انتشروا في كل مكان أعاقوا حركة السيارات. مع اختناق حركة السير ظهر رجال الشرطة. أخذوا يُحَوِّلُونَ اتجاهات السيارات. جاءت شاحنات محملة برجال الوقاية المدنية، أنزلوا منها الحواجز وصَفُّوهَا على الطريق. وقفوا من ورائها يمنعون الحشود البشرية من أن تتقدم نحو (شارع النخيل) كما نُسَمِّيه، و(شارع الحسن الثاني) كما هو مُسَمّى، إذ منه يتم العبور إلى (فندق فاس)، ثم إلى (طريق ملعب الخيل).

حاولت الحشود أن تقتحم الحواجز. رفع رجال الوقاية المدنية عِصِيَّهُم وهددوا بضرب كل من يُزِيحُ حاجزا من الحواجز عن مكانه.

كثر اللغط والهرج والمرج. بدت الصورة شبيهة بصورة أولائك المُعَطَّلِينَ الذين بلغ بهم الاحتجاج إلى درجة اقتحام بعض الوزارات والإدارات العمومية فبادرت السلطات إلى وضع الحواجز أمامها، والمحتجون يقفون وراء الحواجز، يرفعون اللافتات ويطالبون بإسقاط الحكومة لأنها لم تَفِ بوعودها في إيجاد الشغل لهم، ومنهم

من أحرق نفسه أمام بناية من تلك المباني، وهي أشكال احتجاجية لم تكن موجودة في السابق، واستجدت اليوم بعد أن بلغ السيل الزُّبا وكثرت المطالب ومعها مظاهر الاحتجاج، فأخذ المحتجون، وحتى ذوو الاحتياجات الخاصة منهم، ينالون نصيبهم من هرَّاوات رجال الأمن، ومنذ مدة قصيرة جاء رئيس الحكومة لجلسة المساءلة أمام البرلمان، ولما استمع إلى أعضاء البرلمان وهم يقدمون صورة قاتمة عن وضعية حقوق الإنسان ببلادنا جعل من رده دفاعا عن وزيره في العدل، كما اعتبر أن الوضعية أصبحت أفضل مما كانت عليه في السبعينيات والثمانينيات، وأن الأمر يتعلق اليوم بمجرد تفريق للمتظاهرين. غير أن الصورة لم تكن هي نفسها هذه الصورة، فقد كان هدف تلك الحشود هو أن ترى الرجل الطويل لِتَتَأَكَّدَ من أن الأمر ليس مجرد شائعة، ولم تكن تطالب بشيء غير هذا.

أخذوا يصيحون في وجه رجال الأمن ورجال الوقاية المدنية:

ـ نريد أن نرى الرجل الطويل.

ـ أعجوبة هذا الزمان، نريد أن نراها.

ـ الطويل ظهر. وهو مثل عيلاق بن عيواج.

ـ هل هو من يأخذ يده إلى عمق البحر فَيُخْرِجُ السمكة ثم يشويها في عين الشمس ثم يأكلها؟

ـ أهو من سيأخذ كل الفاسدين والمخربين ليرمي بهم في البحر أو الصحراء ليتطهر البلد من الفساد؟

ـ محال!

ـ لا خلاصَ من المفسدين، فهم يسكنون في الأرض معنا وباسم السماء يُفْسِدون في الأرض.

ـ نحن نجَّارون وحدادون ودَبَّاغون وزلايجية وجَبَّاسُون تركنا مشاغلنا وجئنا لرؤية الرجل الطويل.

ـ ونحن باعة متجولون جئنا لكي نسترزق اللـه، فأينما وجد الخلق الكثير يوجد الرزق.

ـ ونحن متسوِّلون جئنا نستجدي مَن يطلبون الحسنات بالصدقات.

ـ أين هو الرجل الطويل حتى نراه؟

ـ ونحن مثقفون منضوون تحت ألوية جمعيات المجتمع المدني، جئنا نشجب مثل هذه الخرافات وندعو الناس لأن يفكروا بعقولهم وأن ينفضوا عنها غبار الخرافات.

ـ ونحن سَحَرَة، جئنا بطلاسمنا لكي نضع المحبة في قلب امرأة لم تحب رجلا، كما أننا نُزِيل الثُّقَافَ ونأتي للعانس بالزوج ونُيَسِّرُ الرزق لمن ضاق به الرزق.

ـ ونحن سقاؤون نبيع الماء للعطاش.

ـ ونحن بنات نضع الحناء على أكف البنات بتزاويق تعجبهن، وبالحناء نسترزق اللـه.

ـ أحقًّا سنراه؟

ـ إن كان رجلا طويلا قد ظهر في طريق ملعب الخيل فلماذا تمنعوننا من أن نراه؟

ـ قالوا رجل أعجوبة. دعونا نراه.

ـ نريد أن نراه قبل أن نراه في أخبار المساء على شاشة التليفزيون.

ـ مَن رأى ليس كمن سمع.

أخذ أحدهم يصيح:

ـ صامدون.

رددوا وراءه وهم يصفِّقون بأيديهم:

ـ صامدون. صامدون. صامدون.

ثم جاءت جماعة من الفتيان وأخذت تردد أغنية البشير عبده المعروفة:

ـ إحنا مغاربة، إحنا مغاربة. إحنا عز الرجال إحنا مغاربة.

تخلخلت الحواجز بقوة دفع الأيدي، وتهاوت الهراوات على الرؤوس. رغم التبرم والألم والتدافع، وحركات المد والجزر، فقد أخذت بعض النساء يهتفن:

ـ حق المرأة كحق الرجل. من حق المرأة هي الأخرى أن ترى الرجل الطويل.

نساء يحملن صبيانهن على ظهورهن أو بين أذرعهن، والشمس الحارقة تؤذي رؤسهن العارية، وأخريات تركن أولادهن يستحمون في النافورة، ومُتَسَوِّلاَتٌ أخذن يَتَسَوَّلْن، بينما صاح رجل:

ـ احذروا اللصوص. لص سرق من رجل حافظة نقوده.

في تلك الفوضى العارمة تركتهم وتركت (ساحة المقاومة). هل مضيت أم بقيت في مكاني؟ لا أعرف، ولا أعرف هل الرجل الطويل هو أنا أم أنه شخص آخر يتشبَّه بي أو أتشبه به، وهل هو أنا الآخر أم أنه صورة تَلَبَّسْتُهَا دون إرادة مني.

6

لكن البداية الحقيقية لم تبدأ كذلك، وفي تلك اللحظة بالذات، بل بدأت على شاشة التليفزيون، حيث ظهر مُقَدِّمُ برنامج "عالم السينما" بصلعته التي امتدت إلى ما يقترب من قفاه ووجهه النحيل المتعظم وعينيه الغائرتين وابتسامته الغريبة التي لا يعرف أحد أهي امتعاض أم سخرية أم أنها مجرد ابتسامة يلتقي بها مع الجمهور على طريقته الخاصة. بدا متلعثما لوهلة وعيناه الغائرتان تجحظان أمام الكاميرا ثم قال:

"سيداتي وسادتي، شريط الليلة هو شريط مغربي من إخراج المخرج المعروف سعيد الدوَّاح، الذي أثارت أفلامه القصيرة والطويلة عدة قضايا، وبعض الزوابع، كالعنف الذي تمارسه النساء على الرجال، كما في شريط "الصفعة ما قبل الأخيرة"، واغتصاب

الأطفال، كما في شريط "لا تأخذ الوردة من يده". يبدو مخرج شريط الليلة، سيداتي وسادتي، مغرما بالموضوعات الاستثنائية، الغريبة، وهي على استثنائيتها وغرائبيتها من صميم المجتمع، وهذا المخرج المتميز، وهو يجعل من السينما وعيا جماليا فإنه يجعل منها أيضا، وعيا اجتماعيا يسلط الضوء على الكثير من القضايا المجتمعية ويراها بعين ناقدة.

حتى لا نطيل عليكم، سيداتي وسادتي، فشريط الليلة، لا يخرج عن هذا الاتجاه، وهو مغامرة في اتجاه بلورة رؤية سينمائية جديدة تقوم على الغرابة والاشتغال على التحول. بطل الشريط مراد الأشقر يتحول من رجل عادي إلى رجل طويل، خارق في طوله للعادة، وهو عندما يظهر أمام نفسه بذلك الطول الغريب، يحتار في وضعه، كما أنه عندما يظهر أمام الناس بذلك الطول الغريب، يثير الكثير من الفضول والكثير من الأسئلة، سواء لدى سكان المدينة أو لدى مصالح الأمن. إلا أن خطاب الشريط، لا يغفل المعيش الخاص لبطله مراد الأشقر في مدينته فاس، وما يسترجعه من تفاصيل وذكريات، حتى وهو في ذلك الزمن الذي يقع خارج الزمن العادي، وهو زمن يعيش فيه البطل صدمة تحوّله إلى رجل طويل، طويل جدا، خارق للعادة.

سيداتي وسادتي، شريط الليلة، لا يخلو من بُعد غرائبي، رغم

نزعته الواقعية، وهو من بطولة الممثل المعروف رشيد ناصر، الذي أبدع دورا جديدا خرج به عن أدواره المعروفة، فقد تَلَبَّسَ شخصية مراد الأشقر حتى تماهى معها. كما تؤدي دور الآنسة ندى الممثلة الكوميدية فاطمة الزعفراني، وهو دور كوميدي. أما الممثلة الشابة نوال الشجعي فتؤدي دور قمر السحنوني، ابنة مالك العمارة، وممثلين آخرين لهم حضورهم في الشريط.

سيداتي وسادتي، عنوان شريط الليلة "فسيفساء"، وهو عنوان دال على الطريقة التي تتشكل من خلالها الأحداث والمواقف واللحظات، كما تتشكل الفسيفساء من قطع صغيرة تأخذ معناها من التأليف بينها. طاقم محترف أسهم في إنجاز الشريط. كاميرات تحركت في أماكن التصوير عمل على إدارتها مدير الكاميرا الإيطالي روم لا نتشي، الذي سبق له أن قام بالتصوير في أفلام عالمية.

أعزائي النظارة، اخترنا شريط الليلة "فسيفساء" في برنامج "عالم السينما" لتقديم نوع جديد من الأفلام، التي تقوم على المغامرة في طرح الموضوعات وطريقتها الخاصة في سرد الأحداث.

"فرجة ممتعة".

دهشة كبيرة قد أصابتني وأنا أتابع حديث مقدم برنامج "عالم السينما" للنظارة الكرام. مصدر دهشتي أنني أنا مراد الأشقر،

وهذا هو اسمي الحقيقي المسجل في دفتر الحالة المدنية، به يعرفني الناس، فكيف أصبح بطلا في شريط سينمائي يحمل نفس الاسم، وكيف خطر على بال كاتب السيناريو وتواطؤِ المخرج معه على أن يطلقا اسمي على بطل لشريط غرائبي يتحول فيه البطل من رجل عادي إلى رجل طويل طولا غريبا يفاجئه ويفاجئ من يعرفونه من سكان المدينة؟

أما رشيد ناصر الذي قال معد البرنامج إنه يمثل دور مراد الأشقر فهو يصلح لدور سمسار في وكالة بالحي، أو سمكري يأتي إلى شقة لإصلاح مواسير المياه ولا يصلح لأن يؤدي دور موظف سابق في المحافظة العقارية، فما بالك بأن يمثل دور الرجل الطويل، كدور بالغ الصعوبة؟ حتى لو أتى المخرج بممثل يمتلك مؤهلات كعبد اللـه العمراني أو رشيد الوالي أو سعيد الناصري أو ياسين الحجام من الجيل الجديد للممثلين، فهل كان أحدهم سوف ينجح في تقمص دور الرجل الطويل، وهل تحدث المفاجأة فيصبح الممثل نفسه وهو يتقمص دور الرجل الطويل رجلا طويلا بالفعل، فتحدث مشكلة كبيرة يتحول معها تصوير شريط سينمائي إلى قضية تستفز المواطنين وتستنفر قوات الأمن العمومي؟

ليس ذلك المدعو رشيد ناصر سوى صورة وهمية لمراد الأشقر.

وسواء أكان هو ممثلا، وكان مراد الأشقر شخصا حقيقيا أو شخصية في الشريط تحتل دور البطولة، فالممثل لا علاقة لي به، وهو لا يشبهني، وإن كان في مثل سني، فهو على صورة وأنا على صورة أخرى، فكيف يمكنه أن يمتلك صورتي وأن يجعلها صورة له، ولو لوقت قصير وهو يقوم بالدور في الشريط؟

ألا قُبِّحَ من وجه وقُبِّحَ حامله.

قالها ابن الرومي. لكن الوجوه القبيحة هي الأكثر جلبا للإثارة سواء في الإشهار أو في بعض الأدوار السينمائية والتليفزيونية، وهم يتحدثون عن جمال القبح.

إذن علينا أن نتحدث عن قبح الجمال! لا أبدا. الجمال هو الجمال، وهو ما يبهر العين والأذن بالصورة والصمت، وأينما كان فهو الجمال.

رجل ذميم الخلقة يمثل دوري في الشريط!

أنا مراد الأشقر، لست وسيما ولا ذميما. في شبابي الأول كانت لي وسامة لكنها لم تنفعني في أن أجتذب محبوبتي إلى أن تحبني، وربما أكون قد اجتذبتها بجاذبيات أخرى لكنها ظلت تنفر مني.

إذا كنت أنا المقصود بهذا التعريض الذي أراده الشريط، فأنا أطول قامة منه، وليس لي كرش مثله، ورأسي لم يصب بالصلع

كما أصاب رأسه، وحركاته ليست هي حركاتي ونظراته ليست هي نظراتي، ورغم التعديلات التي يمكن أن يُجريها المخرج على شكله فهو لن يشبهني ولن يكون هو أنا، ومهما حاول أن يقلد صوتي وحركاتي، وسيبقى هو هو وأنا هو أنا. هذا إذا ما كنت أنا مراد الأشقر المقصود في الشريط وليس مراد الأشقر آخر.

أدهشني أن اسمين حقيقيين آخرين اندرجا ضمن ما سمَّاه مقدم البرنامج بدورين نسائيين أحدهما للآنسة ندى، تؤديه الممثلة فاطمة الزعفراني، فقطر الندى، أو الآنسة ندى كما كنا نناديها، كانت زميلة لي في العمل في إدارة المحافظة العقارية، وهي اللطيفة الظريفة، البدينة إلى درجة أنها تخب في مشيها حتى نحسب الأرض سوف تخسف بها من ثقل جسدها وشحمه الكثير. شبَّهناها بفيل يدب على الأرض. سبق أن رأيتها في بعض الأفلام التليفزيونية وهي تؤدي أدوارا فكاهية، معتمدة على بدانتها التي تجعلها هي الأخرى بحجم فيل، وبحركاتها في المشي وهي تدب كما يدب الفيل. وجه الشبه واضح بين الآنسة ندى وفاطمة الزعفراني، هو السمنة المفرطة، وإن اختلفت المظاهر الأخرى، فالآنسة ندى على ضخامة جسمها ذات رأس صغير ووجه لا يخلو من جمال، عيناها عسليتان لهما سحر النظرات، أما الممثلة فاطمة الزعفراني فهي ذات رأس كبير ووجه مفلطح وخدَّين شحيمين، عيناها جاحظتان ونظراتها منطفئة لا بريق فيها وعنقها مترهل، وهي أقرب إلى البشاعة.

زاد من عجبي أن مقدم البرنامج قد سمَّى قمر السحنوني باسمها الحقيقي، وهي ابنة الحاج السحنوني مالك العمارة التي أسكن في إحدى شققها، كما قال إن المخرج أسند دورها إلى الممثلة الشابة نوال الشجعي. قمر السحنوني شابة في الثلاثين، متوسطة الطول مليحة الوجه لطيفة الحركات، خفيفة الظل، تسير كأنها ترقص، أناقتها في اللباس متناهية، وهي في الغالب ترتدي الملابس ذات الألوان الشبابية المبهجة، شعرها مصفوف ورائحة عطرها النفيس المبهج للنفس تفوح منها على الدوام. أما نوال الشجعي فيمكن لمن رآها على الشاشة الصغيرة أن يقدر عمرها بأنه يقارب عمر قمر، ورغم هذه السن التي ترتبط بقوة الشباب فتدخلات المخرج مع صانع المكياج لم تخف بعض التجاعيد على جبينها وحول جانبي فمها.

يا ويحي!

هل استعمال أسمائنا في الشريط، أنا مراد الأشقر، والآنسة ندى، وقمر السحنوني، ونحن أشخاص حقيقيون، وإطلاق أسمائنا على أبطال الشريط وبطلاته مجرد مصادفة أم أن في الأمر قصدا معينا، وما الغرض منه؟

لماذا أراد مخرج الشريط لبطله أن يتحول من رجل عادي إلى رجل طويل خارق للعادة، هل من أجل أن يكشف من خلاله عن

ردود فعل الناس ورجال السلطة، تجاه ظاهرة عجيبة غريبة لا يصدقها العقل، وفضح ما يُعَشِّشُ في عقول المواطنين من أوهام، أم أن المخرج كان يراهن على حس جمالي إبداعي أراد من خلاله أن يشتغل على العجيب والغريب لينجز شريطا سينمائيا ينتمي إلى الفانتاستيك بعد أن طاف بالواقع ومكونات الواقع ومارس نقد الواقع؟

أسئلة ربما يندهش لها المخرج نفسه، كما اندهش لها النظارة الذين لم يشاهدوا الشريط. وهي أسئلة ساورتني، وكان لا بد من رؤية الشريط لتجلية الرؤية وفهم ما يحدث فيه من أحداث، لكن الإرسال انقطع فجأة، ودون أن تعتذر مذيعة الربط عن عدم تقديم شريط "فسيفساء" أعلنت عن تقديم سهرة ليلة رأس السنة، ولتشويق النظارة لفقرات السهرة فقد ظهر الجينريك وظهر معه رتل من رجال ونساء الغناء الشعبي: الستاتي، طهور، غاني، الحاجة الحمداوية، عبيدات الرما، تَاكَدًّا، إلى جانب رامي عياش ووائل كفوري ومطربات شابات من المغرب.

فكرت في الحيل التي يكون المخرج قد لجأ إليها من أجل أن يظهر بطل الشريط بذلك الطول غير المألوف، وكيف جعله يظهر في الصورة بكامل جسده وهو على ذلك الطول، وأين كان قد نصب الكاميرات، هل على سلالم عالية يصعد إليها المصورون أم أن

عُلُوًّا آخر تطلَّب منه بناء مقصورات مرفوعة بِعُمُدٍ من خشب، وفي تلك المقصورات تكون الكاميرات قد ثبتت، ليعمل مدير التصوير الإيطالي روم لانشي بحرية، والكاميرات تتابع حركات مراد الأشقر وهو يمشي في طريق ملعب الخيل؟

هل يكون طول بطل الشريط يتعدى مثل هذه الوسائل فلا تستطيع الكاميرا أن تكون رائية بعينيه ما يراه، ولذلك تكتفي بأن تصور ما يراه المخرج وما تراه من تحت، وكأنه بطوله العجيب الغريب يُقَزِّمُ الأشياء والآخرين؟

وهل وجدت في تصوير الشريط كاميرات أخرى داخلية تُصور انفعالات البطل وتوتر أعصابه بسبب الصدمة التي تلقاها، وهو يتحول إلى رجل طويل وما يشعر به من قلق تجاه مصيره؟

والشخصيات الأخرى، هل سوف يضعها المخرج في أبعادها النفسية وتوتراتها العاطفية وانفعالها بحالة تحول مراد الأشقر من رجل عادي إلى رجل طويل ذلك الطول العجيب؟

الآنسة ندى مثلا، عانس وهي لا تزال تحلم بالزواج من مراد الأشقر، حتى بعد أن بلغ الستين وتقاعد عن العمل في إدارة المحافظة العقارية، وقمر السحنوني رغم أنها الآن في الثلاثين من عمرها فقد سبق أن حكت لمراد قصصا عن خطوبتها من طرف شاب مأفون والده عميد شرطة، اسم ذلك الشاب نعيم، ويحتمل أنها

قد فقدت بكارتها بسبب نزوة معه، وهي تقول إن أسوأ ما ندمت عليه في حياتها هو تلك اللحظة التي أسلمت فيها جسدها لنعيم.

وأنا، هل يستطيع المخرج أن يدخل إلى عالمي الخاص، وعزوبتي المزمنة، وعزلتي التي تستيقظ فيها الذاكرة أكثر مما أعيش صخب الحياة؟

وهل سوف يظهر حارس العمارة إدريس وسكانها، وخاصة منهم عبد المولى وأخوه عبد الرفيع وإبراهيم وجده عمي الضوبلي ومالكها الحاج السحنوني، ومن سوف يمثل أدوار هؤلاء من الممثلين، وهل سيحتفظ المخرج بأسمائهم الحقيقية كما فعل مع الآخرين؟

وهل ستظهر فاس في الشريط وهي تحكي حكايتها بنفسها أم أن المخرج هو من سوف يحكي حكايتها بواسطة السرد السينمائي الذي يعتمد على الصورة؟

لو كنا قد رأينا الشريط لما طرحت هذه الأسئلة، وحيث كنا سوف نجد لها أجوبة في الشريط نفسه. لكن القناة التليفزيونية لم تعرض الشريط، وبقي تقديم مُعِدِّ البرنامج يثير الكثير من القلق والحيرة والأسئلة.

مع بداية السهرة أخذت أفكر في السبب الذي من أجله ألغت

القناة عرض البرنامج وشريط "فسيفساء"، بعد التقديم مباشرة، ثم لم أحفل كثيرا بسبب الإلغاء، واستحضرت اسم سعيد الدواح مخرج الشريط. قلت إنني لا أعرف مخرجا سينمائيا بهذا الاسم، ولا أعرف أي شيء عن أفلامه التي ذكرها معد البرنامج.

7

في ليلة البارحة، الاثنين 31 ديسمبر 2012، وبعد أن انقطع إرسال شريط "فسيفساء" أعلنت المذيعة عن بداية سهرة رأس السنة. ظهر المغنِّي الشعبي الستاتي وهو يرقص برأسه كطير ذبيح ويعزف على كمنجته مترنحا. يُغْمِضُ عينيه ويترنح والكمنجة في يده يعزف عليها وهي مرفوعة فوق رأسه. وبينما أنا أفكر في مُعد برنامج عالم السينما وذكره لاسمي كبطل في الشريط، جاءتني مكالمة من آ السي الطاهري الذي كان زميلا لي في العمل في إدارة المحافظة العقارية. بدأ الحديث بممازحاته المعهودة. سألته عن الأحوال في الإدارة. تجاهل سؤالي، وسألته عن تسمين العجول فضحك وقال لي:

ـ مراد! أية عجول يا أخي؟ أنا من كَلَّمَكَ لأسأل عن أحوالك.

قلت:

ـ أحوالي بخير والحمد لله.

سألني:

ـ كيف أصبحت رجلا طويلا بذلك الشكل الخارق للعادة دون أن تخبرنا؟

لم ينتظر مني الجواب. قهقه حتى تخيلته يستلقي على قفاه وقال لي:

ـ هل خرقت سقف إحدى الغرف بالشقة التي تسكنها أم أنك قد تمددت طولا من باب الشقة إلى الشرفة التي تطل على الفراغ؟

عاد يقهقه ثم قال:

ـ مراد! اسمع. كنا أنا وزوجتي "لالة صباح" والأولاد نشاهد برامج التليفزيون، فجاءتنا المفاجأة من مقدم برنامج عالم السينما، وهو يقدم شريطا بطله يحمل اسمك، مراد الأشقر، وقد تحول من رجل عادي إلى رجل طويل طولا خارقا للعادة.

قلت له:

ـ شاهدت مقدم البرنامج وهو يقول ذلك.

قال:

ـ وهل بطل الشريط هو أنت؟

ـ أنا لا علاقة لي ببطل الشريط.

ـ ألم يقع لك ما وقع لبطل الشريط؟

ـ لم يقع.

ـ زوجتي صباح أصابها العجب. عندما أخبرتها بأنك كنت زميلا لي في العمل في إدارة المحافظة العقارية تعجبت كثيرا. وعندما أخبرتها بأنك قد تقاعدت زاد عجبها.

ـ ولماذا؟

ـ هي تعرف أنني على وشك أن ألتحق بك في التقاعد، ولذلك خشيت أن يقع لي ما وقع لك.

ـ في الشريط؟

ـ بل في الحقيقة.

ـ أية حقيقة؟

ـ أخبرني أين أنت الآن؟

ـ أنا في بيتي.

ـ وهل أنت في وضع عادي؟

ـ آ السي الطاهري لا ينبغي أن يذهب بك الخيال إلى أبعد الحدود.

ـ معك الحق. أولادي أخبروني بأن شيئا من هذا القبيل قد رأوه في الصور المتحركة، ومع ذلك فأنا أحب أن أطمئن عليك.

ـ اطمئن.

ـ ولو فرضنا أن ما وقع لبطل الشريط قد وقع لك، ألا يكون ذلك بسبب الفراغ الذي تعيشه وأنت متقاعد؟

ـ آ السي الطاهري افرض ما تشاء، وأنا لا أعيش أي فراغ. أعرف كيف أملأ أوقاتي بالرياضة الصباحية والقراءة والطبخ والاعتناء بالأغراس التي في بيتي.

ـ لعلك يا مراد تهرب من الحقيقة.

ـ أية حقيقة؟

ـ الفراغ الذي يعيشه الموظف بعد التقاعد. ثم إنك عازب فلا امرأة ولا أولاد يملأون عليك حياتك. كم نصحناك بأن تتزوج الآنسة ندى، ولكنك رفضتها مع سبق الإصرار.

ـ الآنسة ندى أخت عزيزة علينا جميعا.

ـ هي الأخرى ذكر اسمها مقدم برنامج عالم السينما، وقال إن

من سوف تؤدي دورها هي الممثلة الكوميدية فاطمة الزعفراني.

سكت قليلا ثم قال لي:

ـ قبل حين اتصلت بي قطْر الندى بالهاتف، وهي في حيرة من أمرك وأمرها.

قلت له:

ـ ولماذا هي محتارة؟

قال:

ـ كما أنا محتار. هل سيفضح الشريط أسرار المحافظة العقارية، والرشاوي، وتفويت أرض الأملاك العقارية التي تملكها الدولة للخواص؟

ـ نحن لم نشاهد الشريط.

ـ الحمد للـه على أننا لم نشاهده. قل لي يا مراد، هل قدمت بعض المعلومات السرية عن المحافظة العقارية وبعض التجاوزات التي وقعت، لمخرج الشريط، أو لأي كان؟

ـ أنا لم أقدم أية معلومات، ولا أعرف من هو مخرج الشريط.

ـ السيد المحافظ السي مشواط اتصل بي بالهاتف، وهو يسأل عما يمكن أن يتضمنه شريط فسيفساء من معلومات عن إدارة المحافظة العقارية.

ـ أنا متقاعد، ولم يعد لي شأن بالسيد المحافظ.

ـ لكنه هو من سهر على ملف تقاعدك إلى أن بدأت تتسلم راتبك الشهري بانتظام.

ـ كان بإمكاني أن أتصل بالوزارة المعنية وأسوِّي ملف تقاعدي بنفسي.

ـ يا أخي لا تكن جحودا، فهو من تدخل لدى الضمان الاجتماعي عندما أصابتك الذبحة الصدرية. أنسيت؟ كنت ستموت، وهو من أنقذ حياتك.

ـ كان هدفه من ذلك أن يطوعني لأصبح عبده المأمور.

ـ ما علينا. أنا سألتك هل قدمت أية معلومات عن الإدارة لأية جهة؟

ـ وأنا أجبتك بأنني لم أقدم أية معلومات، وإن كنت أرغب في تقديمها فسأقدمها للصحافة ليطلع عليها الرأي العام، وليس لمخرج شريط سينمائي لا أعرفه.

ـ هل أصبحت عضوًا في إحدى تلك الجمعيات آ السي مراد؟

ـ آ السي الطاهري، أنت أول من يعرف أنني لا أشتغل بالسياسة ولا بالجمعيات، كما أنك تعرف أنني لم أكن مرتشيا في حياتي الوظيفية.

ـ وهل كنت أنا يا مراد مرتشيا؟

ـ لا تطلب شهادتي في هذا الموضوع، فأنا سبقتك إلى التقاعد، ومن حقي أن أرتاح.

ـ وكيف ترتاح يا مراد وقد أصبحت ذلك الرجل الطويل؟

ـ ذاك مراد الأشقر آخر، ليس هو أنا.

ـ إياك يا مراد أن تحسبني أتشفّى فيك، فقد جمعت بيننا أربعون عاما من العمل في المحافظة العقارية.

ـ أنا حسن النية بالآخرين على الدوام، وحتى عندما يثبت لي أنهم سيئو النية، أجد لهم بعض الأعذار.

ـ أهذا هو الدور الذي يقوم به بطل شريط فسيفساء؟

ـ لا أعرف، فأنا مثلك، لم أشاهد الشريط.

ـ حتى أطمئن عليك، هل أنت في وضع عادي جدا؟

ـ أطمئنك، وأنا مثلك أشاهد سهرة رأس السنة.

ـ زوجتي ترقص الآن مع الأولاد. هم في سعادة غامرة.

ـ قل لها سنة سعيدة وكل عام وأنت والأسرة الكريمة بألف خير.

ـ لو كانت لك زوجة وأولاد يا مراد، لكنت في حال أخرى، غير ما أنت عليها الآن.

ـ وكيف كنت سأكون؟

ـ ترقص مع زوجتك وأولادك، وتشعر بالسعادة العائلية.

ـ ومن أخبرك بأنني غير سعيد، حتى وأنا لا زوجة لي ولا أولاد؟

ـ حالتك. حالتك نتماها للعدو ولا نتمناها للصديق.

ـ أنت تبالغ آ السي الطاهري. أنا لا أشكو أحدا من شيء، ولا أحب من أحد أن يشفق عليّ.

ـ لكنك آ السي مراد تستحق الشفقة.

ـ لماذا؟

ـ أنت تعرف لماذا، وتعرف حالك أفضل مما أعرفه أنا.

ـ آ السي الطاهري إنك تقتحم حياتي الشخصية وتُصدر عليها أحكاما خاطئة.

ـ أتمنى أن تكون خاطئة. نحن نتابع حياتك الشخصية منذ أن تقاعدت عن العمل، كما كنا نتابعها من قبل. وماذا تظن، هل كنا سوف نسمح لك بأن تخرج للتقاعد فتغيب عن أعيننا؟

ـ ليس في حياتي الخاصة ما يستحق منكم هذا التجسس.

ـ حياتك الخاصة لا تهمنا كثيرا، ولكن ما يهمنا هو الإدارة والملفات التي كنت مطلعا عليها.

ـ أنا نسيت تلك الملفات، فاتركوني لحالي.

ـ ونحن لم ننس أنك على اطلاع على تلك الملفات.

قلت له:

ـ آ السي الطاهري أنت توتر أعصابي. الملفات التي تتحدث عنها هي ملفات تحفيظ أراض في المِلك العمومي بأسماء أشخاص من الوجهاء فأصبحت في ملكيتهم.

ـ أنا كنت مجرد مأمور من المحافظ.

ـ وأنا لم أكن مرتشيا مثلك، ولم أنفذ ما طلبه مني المحافظ.

ـ مع ذلك لم تُعَرْقِل سير الإدارة. لم يلتفت أحد إلى مواقفك النبيلة آ السي مراد.

ـ إذا اجتمعت أمة على الفساد، فالفرد لا يستطيع إصلاح ذلك الفساد، إلا إذا كان نبيا أو ثائرا.

ـ وأنت آ السي مراد، لست نبيا ولا ثائرا، فماذا تكون؟

قلت له:

ـ لا تفسد مزاجي في هذه الليلة آ السي الطاهري.

قال:

ـ أنت من يُفسد مزاجي آ السي مراد. هي ليلة رأس السنة، وأنا أخبرتك بأن زوجتي الآن ترقص مع الأولاد.

ـ ارقص معهم، وإن كان عليّ فكن مطمئنا. أنا في وضع عادي جدا والملفات لن أسَرِّبَ أسرارها إلى أية جهة.

قطعتُ المكالمة. ألا يتركونني أستريح حتى بعد التقاعد، وهل لا يصدِّقون أنني لا علاقة لي بذلك الشريط؟

سمعت جرس الباب يرن. وجدت الحاج السحنوني قبالتي ومعه زوجته ابنة عمتيَ شمس الضحى وابنتهما قمر. فاجأتني الزيارة. رحبت بهم. دخلوا. الحاج يرتدي عباءة صفراء مُزَرَّرَةً من الصدر إلى العنق بعقد بيضاء، يعتمر طاقية صفراء والعصا في يده يقبض على مقبضها الفضي، فوق العباءة يلتحف بسلهام صوفي أسود يَلُمُّ أطرافه على كتفيه وصدره مستشعرا برد فاس القارس، فيما نحن مقبلون عليه من شهر يناير، وهو لا يُخرج من تحت السلهام سوى يده التي تقبض على مقبض العصا. كانت شمس الضحى تلف شعرها بفوطة كبيرة وكأنها قد خرجت للتو من الحمام، زيادة

على أنها ترتدي معطفا صوفيا فوق منامة خفيفة يظهر منها الجزء الأعلى من صدرها. قمر على غير عادتها خالية الوجه من الزينة وشعرها غير مصفوف، ترتدي صدارا صوفيا أحمر وسروال البلودجين، وفي قدميها حذاء صغير أزرق اللون، قدرت أن مقاسه 35 أو 36 على الأكثر، مما يجعل قدميها على دقة متناهية، حتى إنهما تشبهان قدميْ دمية. ليست هذه هي المرة الأولى التي أتأمل فيها قدمي قمر، فقد كنت أنتبه إلى دقتهما كلما زارتني في شقتي في زياراتها السابقة، وأجد في ذلك جمالا خاصا، فقد كنت أكره النساء اللواتي لهن أظلاف بقر، كما كنت وأتذكر ما كان يفعله الصينيون القدامي بأقدام بناتهم، حيث يضعونها في قوالب من حديد لكي لا تكبر، حتى لا تصير كأظلافِ البقر.

بدت لي وجوههم مخطوفة وحركاتهم مضطربة. قالت لي شمس الضحى:

ـ فاجأناك بالزيارة آ السي مراد.

قلت لها:

ـ مرحبا بكم.

قالت لي:

ـ هذا بيت ابن خالي ونحن ندخله في أي وقت، وبيتنا أنا والحاج تدخله في أي وقت آ السي مراد.

قالت لي قمر:

ـ في هذه الليلة لم نستعد للاحتفال برأس السنة. ها أنت ترى. ماما خرجت لتوِّها من الحمام وأنا لم أذهب إلى الحَلاَّقة لِتُمَشِّطَ شعري.

هدأ لهاث الحاج السحنوني المصاب بالاضطرابات القلبية قليلا وإن بقي الاصفرار باديا على وجهه. وضع عصاه التي يتكئ عليها بجواره وجلس يستريح. قالت لي شمس الضحى:

ـ آ السي مراد شاهدنا مقدم برنامج عالم السينما وهو يذكر اسم ابنتنا قمر، ويذكر اسمك. استغربنا للأمر وقلنا نأتي لزيارتك لكي نسألك.

أحسست بالارتباك. قلت:

ـ أنا مثلكم شاهدت مقدم برنامج عالم السينما وهو يتحدث عن شريط عنوانه فسيفساء، بطله مراد الأشقر، وفي التقديم ذكر اسم قمر السحنوني.

قال لي الحاج:

ـ وكيف تفسر ذلك آ السي مراد؟

قلت له:

ـ ليس لي أي تفسير آ الحاج. أنا مثلكم لم أشاهد الشريط، فقد انقطع الإرسال وأعلنت مذيعة الربط عن بداية السهرة.

قال لي:

ـ وهل تظن أن ذلك من قبيل المصادفة؟

قلت:

ـ لا أومن بالمصادفة، ولكني محتار مثلكم.

قال:

ـ محتار مثلنا؟ إذن فثمة حيرة.

قلت:

ـ حيرة كبيرة.

بدا الغموض في عيني شمس الضحى وقمر فقال لي الحاج:

ـ يا ولدي يا مراد الأشقر، قلت لزوجتي لالة شميسة وابنتي قمر إن تشابه الأسماء قد أدى إلى هذه المصادفة.

قلت:

ـ وأنا خمنت شيئا آخر.

قالت لي شمس الضحى:

ـ ما هو يا ابن خالي؟

ـ يحتمل أن يكون كاتب السيناريو أو المخرج، أحدهما قد عاش في إحدى العمارات القريبة من العمارة، وأنه قد استلهم فكرة شريطه من أشخاص حقيقيين جعل منهم أبطالا لشريطه.

قال لي الحاج:

ـ ومن يكون كاتب هذا السيناريو أو مخرج الشريط؟

قلت:

ـ لا أعرف.

بدا التوتر على وجوههم. قال لي الحاج:

ـ وهل من حقه أن يستعمل أسماء أناس حقيقيين في شريطه؟

قلت له:

ـ آ الحاج، أنت نفسك قلت قبل حين إن الأسماء تتشابه.

قالت لي قمر:

ـ أخشى آ السي مراد أن أظهر في الشريط مع خطيبي السابق نعيم، وأن يظهر ما وقع لي معه قبل فسخ خطوبتنا من مشاكل.

قال لها الحاج:

ـ ليظهر ذلك. لماذا أنت مفزوعة يا ابنتي من هذا الأمر؟ ما حدث يحدث في الكثير من الأسر. حيث لا يكون هناك تفاهم بين الخطيبين تُفسخ الخطوبة، وذلك خير من زواج يأتي بعده الطلاق.

ثم التفت نحوي وقال لها:

ـ بعد أن انتهت قصتك مع ذلك الجلف، قليل الحياء، أخبرتني بأن السي مراد قد ساعدك على التخلص منه. ونعم. هكذا يكون الرجال. هو ابن خال والدتك، ولكن شعوري يقول لي إنه كواحد من أولادي.

والتفت نحو زوجته وقال لها:

ـ آ لالة شمس الضحى، لا تصدقي ما تقوله الأفلام التليفزيونية، فهي تعتمد على الخيال أكثر من اعتمادها على الواقع.

قالت له:

ـ أنا ابنتي لا تزال بيدي، سأزوِّجها لأحسن الرجال، لكني لا أحب أن يعرف الناس ما سبق من خطوبتها لنعيم.

قال الحاج:

ـ ليس رجلا. شاب عاطل عن العمل لا يستطيع الباءة. حتى وإن كان والده عميد شرطة فقد كان عليه حين أتى لخطبة قمر ألا

يكذب علينا ويقول إن ولده موظف في أحد البنوك. عميد شرطة وكذاب!

قالت له قمر:

ـ يا بابا هذه الحكاية أصبحت قديمة.

قال لها:

ـ لكن عميد الشرطة كذب عليّ. أنا نفسي تيقنت من أن لا وجود لموظف في كل البنوك، يحمل اسم نعيم الحاجي. هذا نصب. هذا احتيال على بنات الناس.

قالت له قمر:

ـ يا بابا أنا نسيته، ونحن استرحنا منه، فأرح نفسك منه.

قالت له شمس الضحى:

ـ آ الحاج، ما زال ما يحيِّرني ذكر اسم ابنتي قمر كبطلة من بطلات ذلك الشريط.

بدت قمر متوترة الأعصاب وقالت وهي تنظر إلى والدها:

ـ وأنا أيضا يحيرني هذا يا بابا. تصور أن معد البرنامج سمّاني قمر السحنوني ابنة مالك العمارة.

قال الحاج لهما:

ـ ليقل. وهل صدقتما أن مراد الأشقر سوف يظهر في الشريط طويلا كل ذلك الطول وهو الآن أمامنا في وضعه الطبيعي؟ هذه أمور تحدث في الخيال. خيال في خيال. ومن يصدق هو من يقع في المصيدة.

استبشر وجهه وهو يبتسم، ثم نظر إلى شمس الضحى وقال لها:

ـ آلة شمس الضحى! يا امرأتي العزيزة! ها هو مراد ابن خالك السي مراد. انظري إليه. صححي النظر فيه. هو سليم وصحيح. عادي كما عرفناه وألفناه، ولا شيء يعتريه من طول غير طبيعي.

سألتني قمر:

ـ السي مراد، من هي نوال الشجعي التي تمثل دور قمر السحنوني في الشريط؟

قلت لها:

ـ لا أعرفها شخصيا، وإن كنت قد رأيتها في بعض الأفلام وهي تلعب بعض الأدوار.

قالت لي:

ـ هل هي أجمل مني أم أنا أجمل منها؟

لم أجد جوابا صائبا أرد به. ارتبكتُ لبعض الوقت ثم قلت لها:

ـ يا قمر. جمال المرأة ليس متعارفا عليه، وليست له أوصاف محددة. لكن جمال المرأة وهي تمثل دورا في شريط له وضع خاص، فقد تكون ذميمة الصورة وتمثل دورها بحضور قوي يشعر المشاهد بجمالها.

قالت لي:

ـ إذن فهي أجمل مني.

قالت لها شمس الضحى:

ـ اخجلي قليلا يا ابنتي. لتكن جميلة أو غير جميلة. هل تغارين منها؟

قالت قمر:

ـ ليتني كنت أغار، لكني لا أغار يا ماما.

قال لهما الحاج:

ـ كفاكما سخافة، وحديثا في أشياء لا تفيد في شيء.

قالت له:

ـ ليكن آ الحاج، ولكن ما رأيك في أخلاق ابن خالي مراد آ الحاج؟

قال:

ـ ونِعْم. هو كواحد من أولادي، ولقد فكرت في كثير من المرات في أن أعفيه من أداء الكراء.

قلت له:

ـ لا أبدا. أجر الكراء جزء من راتبي الشهري، وأنا أدفعه براحة تامة.

أخذ الحاج السحنوني يتحدث عن سكان العمارة الذين لا يدفعون الأكرية، وقد ترتبت عليهم عدة شهور. تدخلت شمس الضحى لتصرفه عن ذلك الموضوع فقالت له:

ـ لا تنس آ الحاج أننا في بيت السي مراد، وأن مسائل الكراء لا تهمه.

قال لها:

ـ معكِ الحق.

ثم التفت نحوي وقال لي مازحا:

ـ وأنت آ السي مراد، ألم يفزعك ذلك الوضع الذي جعلك عليه مخرج الشريط؟

قلت له:

ـ لست أنا آ الحاج. ذاك مراد الأشقر آخر يوجد في الشريط، أما أنا فها أنت تراني أمامك، كما كنت تراني من قبل.

نظر الحاج نحو شمس الضحى وقال لها:

ـ فضائح العمارة تكاثرت.

قالت له:

ـ آ الحاج أية فضائح؟

قال:

ـ ذلك العراقي، الأستاذ الجامعي في كلية الحقوق الذي يستقبل الطالبات في شقته.

ـ ما له؟

ـ كل ليلة تزوره شابات طالبات، وأنا أخشى من أن يكون في الأمر شيء من الحلام.

ـ آ الحاج أنت استفسرته عن زيارة الطالبات لبيته وهو رد عليك.

ـ قال إنه يشرف على بحوثهن الجامعية. أليست في كلية الحقوق مكاتب إدارية يجتمع فيها الأساتذة مع الطلبة؟ ما شأن البيوت بمثل هذه الاجتماعات؟

ـ إذا كنت منزعجا من تصرفاته فلماذا لم تطلب منه الإفراغ؟

ـ والمحامي الذي لا حياء في وجهه، قليل الحياء، يصعد أدراج العمارة وفي يديه قنينتان من الويسكي دون أن يكلف نفسه إخفاءهما في كيس أسود أو حقيبة. إذا ابتليتم فاستتروا.

ـ شاب طائش يجب ألا نأبه لما يفعل.

ـ رغم أنه محام سوف ألقنه درسا في حسن الجوار.

ـ لقنه إياه، بالتي هي أحسن.

ـ وذلك الحمار، الشنتوف، صاحب محل تعليم السياقة، الذي يخرج منه وهو يمشي على أربع، ولسانه مُدَلّى، وتلك الرائحة تُشَمُّ من سراويله.

ـ كفاه ما هو فيه.

ـ حسب كلامك، يجب أن أترك العمارة على حالها.

ـ آ الحاج هذه أمور تقع في كل العمارات. قريبا سوف يكتمل بناء الفيلا وننتقل إليها، فلا يبقى لنا من العمارة سوى قبض الكراء.

قال لها الحاج:

ـ سأبيع العمارة وأرتاح.

قالت له قمر:

– إذا بعتها يا بابا فلا تنس أنك قد كتبت الشقة رقم 12 باسمي من باب البيع والشراء، وسجلتها في المحافظة العقارية.

قال لها والدها:

– ولا تنسي يا قمر أنني مَلَّكْتُ أخاك عمر شقة أخرى، من باب العدل بينكما. سأبيع الشقق الأخرى لأرتاح من مشاكل العمارة، وسنرحل للإقامة في الفيلا التي هي على وشك أن تنتهي فيها الأشغال.

– والشقة التي نقيم فيها الآن، وهي تشغل طابقا كاملا في العمارة، هل ستبيعها أيضا؟

قال لها:

– بيني وبين والدتك حديث حول هذه الشقة. إن تزوجت يا قمر ولْد حلال فسوف تقيمين معه فيها.

ابتسمتُ. قال لي الحاج:

– ما أجمل أن تزرع الأمل في نفوس الشباب يا مراد. أنا لا أحب الآباء الذين يُحبطون أبناءهم.

قلت له:

ـ بارك اللـه فيك آ الحاج.

تململ في جلسته. أمسك بمقبض عكازه وقال لشمس الضحى وقمر:

ـ سنذهب.

قلت لهم:

ـ لا بد أن تشربوا شيئا. البيت بيتكم. أنا عازب ولا أُحسِن استقبال الضيوف.

قال لي الحاج:

ـ أكثر من مرة شممت من مطبخ بيتك طعاما تَحَلَّبَ له ريقي، حتى إنني كنت سوف أعرض نفسي عليك لأذوق من طعامك.

قالت له شمس الضحى:

ـ تَحَلَّبَ ريقك! وأنا تَحَلَّبَ ريقي أكثر من مرة ولم أتشجع لكي أهجم على بيت ابن خالي فأتناول معه من طعامه.

قلت لشمس الضحى بشيء من التواضع:

ـ آ لالة شمس الضحى مطبخك عامر والحمد للـه، وروائح الأطعمة تفوح منه كل يوم، وعلى كل نوع.

قالت:

ـ أحيانا يبدو لي أنك تتفوق على نساء العمارة في الطبخ، فرائحة طعامك تفوح باللذة.

ـ لا أبدا. يُخيل إليك. ربما يكون في هذا شيء من الصواب عندما كنت أستضيف زملائي في إدارة المحافظة العقارية، في بعض الليالي.

قال لي الحاج:

ـ كنا نلاحظ ذلك. وكنا نأمل أن يحضر معهم السيد المحافظ السي مشواط لكي نأخذه منك فنستضيفه في بيتنا.

وقالت لي شمس الضحى:

ـ هذه الليلة نحن لم نقم احتفالا. لكي لا تبقى وحدك سوف تنزل معنا للشقة للعشاء ومتابعة السهرة.

اعتذرت لها. قالت لي قمر:

ـ إن كنت لا تحب أن تنزل معهما فأنا سوف أبقى معك.

لم يُبْدِ والداها أي اعتراض. غادرا الشقة. بقيت قمر جالسة قبالتي، تنظر إليَّ بنظرات غريبة. قلت لها:

ـ تشربين شيئا؟

قالت:

ـ إذا أمكن، قهوة مركزة، وإذا سمحت لي فأنا أعدها بنفسي، فأنا عندما أدخل بيتك آ السي مراد أشعر أنني في بيت حميم كأنه بيتي الذي أتمنى أن أعيش فيه دائما.

قلت لها:

ـ يا قمر، كل زياراتك لبيتي تنفض عنه الغربة التي أشعر بها وأنا في وحدتي.

ظهرت على وجهها تعابير غامضة ثم ذهبت إلى المطبخ لإعداد القهوة.

8

وهي ليلة أمس، ليلة رأس السنة الميلادية 2013. لم أسترح فيها إلى نفسي. سرعان ما جاءتني مكالمة هاتفية من قطر الندى. سمعت صوتها شديد التوتر، وهي تقول لي:

ـ مراد، هل أنت بخير؟

قلت لها:

ـ أنا بخير.

سألتني:

ـ أين أنت الآن؟

قلت:

ـ في بيتي.

قالت:

ـ هل الأمور تسير كالعادة؟

قلت لها:

ـ كالعادة.

قالت:

ـ لم أصدق وأنا أشاهد برنامج عالم السينما أن تكون أنت من أصبح ذلك الرجل الطويل. لا لم أصدق أبدا.

لم تتركني أشرح لها الوضع فقالت لي:

ـ ولم أصدق أن يُذكر اسمي، أنا الآنسة ندى على شاشة التليفزيون.

قلت لها:

ـ يا آنسة ندى صدقي أو لا تصدقي. ذلك مجرد كلام له صلة بشريط تليفزيوني خيالي.

قالت:

ـ وحتى اسمي واسمك آ السي مراد مجرد خيال؟ إذن فأنا وأنت لا نعيش على أرض الواقع.

قلت لها:

ـ كل واحد منا يعيش واقعه. يا آنسة ندى، أنتِ تعيشين واقعك وأنا أعيش واقعي.

قالت لي مستسلمة:

ـ معك الحق آ السي مراد.

بدا لي صوت الآنسة ندى وكأنها تشهق بالبكاء. قالت لي:

ـ أنا أبكي الآن.

قلت لها:

ـ ولماذا تبكين؟

قالت:

ـ أنا خائفة على مصيرك يا مراد. خائفة من أن تتحول إلى ذلك الرجل الطويل، وساعتها لن يتسع لنا فراش للزوجية.

قلت لها:

ـ يا آنسة ندى أنا ما زلت مراد الأشقر الذي تعرفينه في إدارة المحافظة العقارية، ومسألة الزواج لم أتخذ فيها قرارا بعد.

ارتفع شهيقها وقالت غاضبة:

ـ وإلى متى يا مراد تؤجل هذا، هل إلى حين أن نشيخ فيأتي العجوز مراد ليخطب العجوز الآنسة ندى؟ سيكون الأمر مضحكا. حتى لا يضحك علينا الناس بادر، بادر آ السي مراد إلى خطبتي.

ـ خطبتك؟

ـ كلمة واحدة منك تكفي.

ـ كم من مرة قلت لك إنني لا أرغب في الزواج. أنت ابنة الحلال، لطيفة ورائعة، تستحقين أحسن الرجال، والزواج قسمة ونصيب.

ـ الزواج قسمة ونصيب، وحتى إن لم تقبلني زوجة لك فأنا أحب أن أكون أختا لك.

ـ أنتِ أخت عزيزة على الدوام.

ـ وأنا أختك العزيزة، التي تمنت ألا تكون أختا لك بل زوجة. ما الذي سوف أستفيده من أخوتك الطاهرة وأنا أريدك زوجا لي؟

ـ ابقِ أختا لي، فذلك أحسن من ألا يعرف أحدنا الآخر.

ـ معك الحق. لكني لا أستطيع أن أناديك أخي. أرغب في أن أناديك زوجي العزيز.

ـ لا يهم كيف ينادي الناس بعضهم بعضًا، والمهم هو ما يربطهم من روابط.

ـ معك الحق آ السي مراد. ولكن قل لي، هل حكاية مراد الأشقر مجرد حكاية خيالية؟

ـ حكاية خيالية بالتأكيد.

سألتني:

ـ هل تحتفل في ليلة رأس السنة هذه وأنت وحيد؟

قلت لها:

ـ أحتفلُ أو لا أحتفل.

ـ من معك في البيت؟

ـ معي قمر، ابنة الحاج السحنوني مالك العمارة.

ـ ذكر معد البرنامج اسمها. دورها تمثله الممثلة الشابة نوال الشجعي. هل هي رشيقة مثلها؟ هل رفضتَ الزواج مني آ السي مراد، لأنني لست على رشاقتها؟

ـ يا آنسة ندى لا تشغلي بالك بهذه الأمور.

ـ إذن قل لي هل قمر السحنوني التي تجلس معك الآن في شقتك رشيقة؟

ـ هي رشيقة.

ـ الآن وضعت غصة في حلقي. أشعلت نار الغيرة في قلبي. أحرقتني. أنا تعسة. أنا حزينة. جعلتني أفقد الأمل فيك.

ـ لا داعي لكل هذا في ليلة كهذه.

قطعت الخط. ظلت قمر ترشف من القهوة من فنجانها خلال المكالمة حتى أتت على آخرها وتتابع المكالمة بكل التفاصيل ولو من جانب واحد.

قالت لي:

ـ مكالمة طويلة. أنا تركت السهرة في التليفزيون وبقيت معك لكي نتحدث، لكن هذه الثقيلة الدم، التي اسمها الآنسة ندى، أخذتك مني.

قلت لها:

ـ يا قمر كنت أحاول أن أسل الشعرة من العجين. قطر الندى كانت زميلة لي في إدارة المحافظة العقارية قبل أن أتقاعد، وكان عليَّ أن أجاملها.

قالت:

ـ فهمت أنها ترغب في الزواج منك، وأنت لا ترغب في الزواج منها.

قلت لها:

ـ ما فهمته صحيح.

ـ ألهذا غارت من وجودي معك في بيتك؟

ـ هي تعرف أنني ليست لي عشيقات، ومع ذلك فقد وسوس لها الشيطان.

ـ لكن اسمها ذُكِرَ خلال تقديم الشريط.

ـ وما علاقتي أنا بهذا الأمر؟

ـ من حقها أن تسألك.

ـ وليس من حقها أن تفرض عليَّ زواجا لم أقتنع به.

قالت لي:

ـ السي مراد. سبق أن زرتك في شقتك عدة مرات، وأنا كنت أتعامل معك كإنسان طيب، ورجل رزين كَبُرَ في عيني، فبحت لك بأسراري.

انبريت قائلا:

ـ قمر. ممَّ تخافين؟ ما الداعي لأن تحدثيني عن هذا الموضوع وأنت قلقة؟ أسرارك مدفونة في صدري.

قالت:

ـ أنا مطمئنة، فأنت من يعرف أحلامي وكوابيسي وعذاباتي الشخصية، لا أحد يعرف ذلك غيرك.

طفرت دمعتان من عينيها وقالت:

ـ أنا مثل آنية من زجاج من زجاج، وأنت ترى ما يظهر داخلها. وأنت الوحيد الذي يدرك أسرار قلبي. أنت من يعرف أخطائي.

قلت لها:

ـ وهل ثمة من مشكلة؟

قالت:

ـ ليست ثمة من مشكلة، ولكن تعال. تعال لنغير اللحظة، فتنزل معي إلى شقتنا لنتابع السهرة.

نهضت وأمسكتني من يدي ثم نظرت إلى عيني بنظرة متوهجة وأطالت فيها. اعتذرت لها بأنني أريد أن أبقى وحيدا. قالت لي:

ـ أحب أن أُخرجك من وحدتك.

قلت لها:

ـ الوحدة قدري.

9

بعد أن خرجت قمر من شقتي تركت شيئا من عطرها وأنوثتها.

جلستُ أمام شاشة التليفزيون أشاهد بقية السهرة، وأنا أفكر في نظرة قمر إلى عيني بذلك الاستغراق. حسبت ما أوحت به إليّ عيناها مجرد نزوة من النزوات العابرة. قمر في سن ابنتي، والعلاقة بيني وبينها علاقة رجل مُسِنٍّ بشابة جميلة، وهي لا يمكن أن تتطور إلى شيء آخر غير أن أكون لها في مكانة الأب والصديق.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف. تأخرت عن موعد نومي. أتعبتني مكالمة الطاهري وكَلَّ ذهني من مكالمة قطر الندى. دوَّختني زيارة الحاج السحنوني وزوجته شمس الضحى وابنته وقمر.

وقفت أمام الشرفة أنظر إلى (جبل تغات). استنشقتُ هواء نقيا

بملء رئتيّ. قلت للجبل أيها الجبل لا شكوى ولا ندم. لا بكاء ولا ألم. لا عتاب ولا نجوى. لا حلو ولا مر. لا داء ولا دواء. كل شيء انتفى في هذه الليلة، حتى إنني قد بدأت أشعر بالخواء، رغم ما عشته من صخب مع الآخرين.

تذكرت أنني لم أتعشَّ بسبب هذه الفتن التي أحدثها شريط "فسيفساء" المزعوم. اكتفيت بأكل تفاحة وعلبتين من "ياغورت" خال من السكر الإضافي والدسم. نظفت فمي بالمعجون والفرشاه. دخلت الفراش. أطفأت ضوء الأباجورة. جفاني النوم. حاولت أن أجلبه بشتى الوسائل. رن الهاتف. قلت هيّ الآنسة ندى سوف تعذبني من جديد. ترددت في أن أفتح الخط. فتحته. هو صوت مريم، ابنة خالتي لالة فَخِيتَة رحمة الله عليها. قالت:

ـ مراد! هل أنت بخير؟

قلت لها:

ـ مريم، عاش مِن سِمع صوتك. أنا مشتاق إليك وإلى أختيك هند وسهام.

قالت:

ـ مشتاق إلينا جميعا، وليس لي أنا وحدي؟

ـ مشتاق إلى أختيك، وإليك يا مريم.

ـ أنت من نسيتنا كل هذا الوقت الذي مضى. ومن حقك، فأنت مشغول بحياتك الخاصة، وأنا وأختيَّ سهام وهند مشغولات بحياتنا الخاصة.

قلت:

ـ لم أقصر في شيء معكن. كنت آتِ إلى بيت خالتي فأواجه بشيء من الإعراض، خاصة منك.

ـ بعد أن غادرتنا لتعيش في معزبة؟

ـ ما كان ممكنا أن أبقى معكن بعد موت والدك وخالتي.

ـ ذهبت لتعيش حياتك الخاصة مع النساء؟

ـ أي نساء يا مريم؟

ـ تريد أن تعرف سبب إعراضي؟ عرفت مكان معذبتك في زنقة كِينِيا وأتيت إليها، ولما أوشكت على أن أطرق بابك وجدته يُفتح أمامي وامرأة تخرج منه، شكلها شكل واحدة من إياهن. اختفيت في الأدراج، وقبل أن أسحب طفرت الدموع من عيني.

ـ كانت نزوة عابرة، وقد جاءت بعد أن لاحظت صدودك.

ـ لم يكن صدودا، بل كان اختبارا لمشاعرك تجاهي، وأنا أنتظر منها أن تتحول من إطارها الرومانسي إلى واقع.

ـ لم أكن شجاعا بالقدر الكافي.

ـ وهل كنت تنتظر من فتاة تصغرك بثلاثة أعوام أن تكون أشجع منك؟

ـ لا أبدا. كنت أنتظر أن أنتصر على نفسي، ولم أكن أعرف كيف أخرج من نظرتي الرومانسية إلى الواقع. النتيجة أنني قد بقيت عازبا وبقيتن ثلاثتكن عازبات.

ـ قل عوانس.

ـ لن أقولها يا مريم، المجتمع الذكوري هو الذي يصف المرأة التي يتأخر بها الزواج أو ترفضه بأنها عانس.

ـ نحن لا نشعر بأية عقدة بسبب أننا غير متزوجات.

ـ نظرة الناس إلينا كعازبات هي التي تُحدث بعض المشاكل، أما نظرتنا إلى أنفسنا فهي مليئة بالقناعة والرضا.

قالت:

ـ حياتنا مضت كما شاء لها القدر أن تمضي. لا يهم. أخبرني كيف حالك.

قلت:

ـ أنا بخير.

ـ مراد. هل تعرف أنني تقاعدت عن العمل في وزارة الصحة، ولم يعد لي شأن بمرضى مستشفى الغساني؟

قلت:

ـ الحياة تخطف منا أجمل ما فيها، والزمن يسرق كل الأشياء الجميلة.

قالت:

ـ أنا الآن أكلمك في موضوع آخر.

ـ وما هو؟

ـ سمعتُ مُعِدَّ برنامج عالم السينما وهو يتحدث عن مراد الأشقر، الذي هو أنت، وقد أصبح في شريط سينمائي، رجلا طويلا، طولا غير عادي؟

ـ سمعته. لكن الشريط لم تبثه القناة. وأنا مراد الأشقر الحقيقي، ابن خالتك، ولست مراد الأشقر الذي يحضر في شريط فسيفساء الذي لم نشاهده.

ـ إذن فلست أنت ذلك الرجل الطويل.

ـ لست أنا.

ـ أقول لك عام سعيد، وأنت بألف خير.

ـ وأنا أتمنى لك ولأختيك عاما سعيدا.

ـ وأنت موفور الصحة والعافية، وأجمل الأماني.

كدت أقول لها كلاما كثيرا، لكنها قطعت المكالمة وتركتني أقول ذلك الكلام لنفسي. كنت سأقول لها يا مريم تعالِ لنبدأ من جديد، فأنت المنى والأمل، وأنت حبيبتي فهل يمكن أن نصلح كل أعطاب الماضي ونبدأ من جديد، وهل تقبلين أن تكوني أول وآخر حب في حياتي؟ لكني وجدتني أقول ذلك لنفسي وأشعر أنه قوْل من قبيل الحنين الذي ينتمي إلى الماضى، وهو في حاضر هذه اللحظة من قبيل العبث.

10

ليلة البارحة، لم أنم سوى ساعة أو ساعتين. سمعت الولولة من شقة إبراهيم الضوبلي. دبت الحركة من جديد في الشقق وأضيئت بعض الأضواء. علم الجميع أن عمي الضوبلي قد انتقل إلى رحمة اللـه. تحاملت على نفسي وصعدت إلى الطابق الثالث. قرعت جرس باب شقة إبراهيم. خرج ووجه أصفر. طفرت دمعتان من عينيه وقال لي:

ـ جدي فارق الحياة.

عانقته وقلت له:

ـ البركة فراسك آ السي ابراهيم.

رد عليّ:

ـ ما مشى معك باس.

واسيته ببعض الكلمات. طلب مني أن أدخل لأشرب معه قهوة. اعتذرت له بأنني مرهق وأرغب في أن أنام. كانت الساعة تقارب الثانية صباحا، ومن شأني أن أستيقظ في السادسة والنصف لممارسة رياضة المشي في طريق ملعب الخيل. ألحَّ عليَّ. دخلت الشقة وسهرت معه حتى ما بعد الرابعة صباحا.

استعاد إبراهيم حياة جدِّه المرحوم وأنا أجامله وأشاركه في شرب القهوة. أخذ يحكي لي عن مجيئه من البادية في ثلاثينيات القرن الماضي، وعمله في "دار اعمل"، وزواجه من نساء فاسيات. أطال إبراهيم في الحديث عن جده المرحوم، والقهوة شربتها على مضض، بإلحاح منه، ثم غادرت شقته ولم يبق لي من وقت النوم سوى ساعتين حتى أخرج للتريّض في طريق ملعب الخيل. كنت أعرف أن المنبه الداخلي سوف يوقظني في الوقت المعتاد، كما تعودت كل يوم في تمام السادسة ونصف صباحا، لأنهض من الفراش وأدخل الحمام ثم أخلع لباس النوم وأرتدي اللباس الرياضي وأنتعل الجوربين والحذاء الرياضي ثم أغادر الشقة وأنا أغلق الباب بالمفتاح، فأضعه كما تعودت في جيب البذلة الرياضية الذي يُزَرُّ بِزِرٍّ خشية أن يسقط مني وأنا أسير.

ذلك ما توقعت أن يحدث، لكن ما حدث لي من طول عجيب

وغريب هو ما أدهشني، والأمر لم يتوقف عند حدود الدهشة، بل إنني أصبحت أفكر في مصيري كرجل طويل لا يمكن أن يعيش حياته العادية بين الناس.

الموقف الثاني

من تلك الأيام الخالية

"إنها الذاكرة، تلك الغرفة المظلمة، أغلب صورها يعود إلى الطفولة، والمبدعون هم من يستطيعون إخراج تلك الصور من الظلام إلى الضوء".

(سيجموند فرويد)

"الشيء الوحيد الذي نفعله في هذه الحياة ولا نندم عليه، هو أن نعيش الحياة كما يعيشها الآخرون".

(حِكمة قديمة)

1

وقفت في (طريق ملعب الخيل) وأنا على ذلك الطول العجيب الغريب، أستغربُ لحالي ولا شيء أستطيع أن أفعله وأنا مسلوب الإرادة، لا أملك القوة التي تعيدني إلى حالتي الطبيعية.

بقيت واقفا لا أدري كم مضى من الوقت. لم تكن معي ساعة أعرف بها الوقت، لكني نظرت إلى الشمس في كبد السماء ثم نظرت إلى ظلي فعرفت أن الوقت ضحى، والضحى ضحوة النهار، أي أننا في العاشرة صباحا، تقريبا.

اغتمَّ خاطري. في مثل هذا الوقت أكون قد عدت من رياضتي الصباحية إلى شقتي، واستحميت وأفطرت وأعددت طعام غدائي وسقيت أغراس البيت ومسحت عنها الغبار لكي أراها تشعشع

بالاخضرار، وجلست أقرأ في كتاب في انتظار أن أتابع الأخبار على قناة الجزيرة في وسط النهار.

النهار لم يتوسط بعد، وأنا في وقوفي هذا، كرجل طويل، أستغرب حالتي ولا أستطيع أن أغادر مكاني.

أخذت أتذكر بعض الأشياء من طفولتي. أستحضر بعض اللحظات من ذلك الماضي الذي عشته، وكأن شريطا قد انطلق فأخذت أرى حياتي، أنا مراد الأشقر، معروضة أمامي، وأنا أتفرج عليها من الخارج، مستغربا أن تكون كل تلك الحوادث قد وقعت لي وأنا صبي ابن ثلاثة أشهر، وأن يصيب مرض التيفويد سكان فاس بأسرها في الأشهر الأولى من ولادتي.

وقفت في الفراغ!

وقفت على طول لا يوجد رجل على مثله.

أمثالي لا يوجدون إلا في الأساطير.

هرقل أصبح أسطورة لأنه كان يعيش في جبل طارق، بين البحرين، المتوسط والأطلسي، وكان يجول فيهما معا، وإن تعرضت طينجيس (طنجة) لحملات الغزاة فقد كان يدافع عنها. يحمل سفينة بكاملها، وعلى ما عليها من جيوش للاحتلال، يرمون بالمنجنيق والكور والضوبلي شواطئ طنجة يواجههم المجاهدون بدفاع بري

ضعيف فكان هرقل يحمل بيديه سفائن الغزاة ويلقيها في البحر فتغرق شر غرق، فقد كانت قدماه في عمق البحر وذراعاه ممدودتان إلى السماء، حيث إنه إن أصابه الجوع يستخرج سمكة عظيمة من البحر بيده فيرفعها عاليا ويُعرضها إلى عين الشمس فيشويها ويأكلها.

وهرقل كائن طنجاوي، خرافي أو أسطوري.

أما عيلاق بن عيواج فهو بطل أسطوري آخر يسكن في الخيال الشعبي، لا يعيش كهرقل قريبا من البحر، بل يعيش في دروب فاس وساحاتها المفتوحة على السماء، ولا يظهر إلا مرة أو مرتين في السنة، أما في عدم ظهوره فهو يعيش في الخيال الشعبي وعلى ألسنة الناس وحكاياتهم.

وأنا في عليائي بدأت أرى مشاهد من سيرتي وهي تظهر أمامي، وكأني أشاهد شريطا يُعرض أمامي وأنا أتفرج عليه مستغربا أن يكون الفراغ الذي أمامي كله قد تحول إلى شاشة عملاقة.

المشهد 1: ليلا. داخلي. غرفة الجلوس في معزبة يقيم بها مراد.

(ضوء خفيف. أثاث مكون من فراش بسيط وكرسيين ومائدة من قصب. مراد في الخامسة والعشرين. يجلس على أحد الكرسيين.

على المائدة جرائد ومجلات، وقارورة خمر وكأس. يظهر رف آخر من القصب، عليه كتب وجهاز للموسيقى وبعض الدمى التزيينية، ونبات طافح يتدلى من فوق الرف. على الحائط لوحة الموناليزا. مراد يصب من القارورة في الكأس ثم يترعها).

ـ مراد: آه أيها الحب! كم من الناس غيري فشلوا في الحب.

(يتجه نحو جهاز الموسيقى ويُشَغِّلُ شريطا لمحمد عبد الوهاب).

أوف: آه الحب! الحب فيه بقائي. الحب فيه زوالي. قلب بغير حب، جسم من الروح خالٍ.

ـ مراد: فشلت في حبي الأول لمريم. مريم كانت أول حب وبإصرار مني سوف تبقى آخر حب. كانت مريم ضوء عيني، ليلي ونهاري، فرحي وحزني، حلمي بفتاة رائعة أخذت عقلي. هل الحب دائما منذور للفشل؟ أحسب أن الحب لا تبقى منه إلا الذكريات. كل المحبين ينتهون إلى فراق تختلف طبيعته من محبين إلى آخرين، ولكن النهاية عند نفس النهاية، لا بد أن يكون فيها شيء من المأساة. أهذا هو الحب؟ أنا جربته مع مريم وعندما فشلت في حبها قررت ألا أدخل في تجربة حب أخرى، وما ساعدني على هذا القرار هو أنني لم أجد فتاة بلطف مريم، ورقَّتها، وجمالها، لأقع تحت سحر فتاة أو امرأة. أقول امرأة! كانت لي علاقة مع امرأة اسمها نبيلة. نبيلة اللبار.

المشهد 2: ليلا. داخلي. نفس غرفة الجلوس في معزبة يقيم بها مراد.

(مراد في الخامسة والعشرين يجلس على كرسي قصبي وشابة في الثلاثين، مبالغة في زينة وجهها. ترتدي صدارا تكشف عن أعلى صدرها وسروال بلودجين ضيق يكشف عن خصرها وفخذيها وساقيها).

مراد: نبيلة. أنت الآن في بيتي، مطمئنة. استريحي.

نبيلة: أنا مستريحة. لكني أعرف أنك تستعجل أن تأخذ جسدي إلى الفراش، فأنت لا تعشقني.

مراد: أعشقك؟ إذا كنت أعشق جسدك فهل هذا لا يكفي؟

نبيلة: في هذه الأيام القليلة يكون عشقك لجسدي كافيا، لكنه لا يكفي إلى أبد الآبدين. يا مراد هل تعلم أن العمر طويل، وأن الجسد يشيخ وأن ما يبقى هو الحب؟

مراد: أجمل الحب يا نبيلة ما جمع بين القلب والجسد.

نبيلة: وهل حبنا ليس فيه إلا الجسد؟

مراد: إن كان حب جسد لجسد فهو نوع من الحب، لكنه ليس كل الحب.

المشهد 3: ليلا. داخلي. نفس غرفة الجلوس في معزبة يقيم بها مراد.

(مراد وحيدا).

مراد: لم أحضر عرسا من الأعراس حتى لا أكون شاهدا على الطلاق بعد حروب طاحنة بين الزوجين. عرفت كثيرين في حياتي، منهم الطيبون والخبثاء، الحمقى والعقلاء، المتسامحون والحاقدون، اللطفاء والقساة، الأوفياء والغادرون، فتعلمت من لقائي مع كل هؤلاء أن أختبر معدني ومعادنهم ليظهر أهو ذهب أم فضة أم نحاس، أو أنه ليس معدنا وإنما هو مجرد تراب، ولأني صادق مع نفسي ومع الآخرين كنت أجد أن معدني خليط من الذهب والفضة والنحاس والتراب، ومعادن الآخرين لا تختلف عن هذا الخليط.

(يصب كأسا أخرى يترعها. على وجهه يبدو شيء من توتر الأعصاب):

الأشرار يظهرون في بعض الأوقات أخيارا، والأخيار كثيرا ما يتبجحون بما صنعوه من خير فيصبحون مزعجين أو مبتزِّين بذلك الخير الذي صنعوه.

المشهد 4: نهارا. داخلي. باحة بيت فاسي عتيق هو بيت السي الفاطمي.

(مراد في العاشرة من عمره تقريبا. يجلس على فراش في الباحة بجوار خالته لالة فخيتة وهو مطرق برأسه. لالة فخيتة امرأة فاسية في الأربعين. ترتدي لباسا منزليا مزركشا وتَعْصِبُ جبينها بِعَصَّابَة من الحرير).

ـ لالة فخيتة (تتوجه لحديثها لمراد وهو في العاشرة): فاس يا ولدي يا مراد في تلك الأيام كان فيها الطايح أكثر من النايض. أمك وهي أختي عيشة وزوجها الحاج حميد والدك أصيبا بالوباء. عندما تحكم فيهما الوباء أصبحا لا يقويان على النهوض من فراشهما. عندما زرتهما ساعدتهما على النزول من غرفة نومهما في الدور العلوي إلى غرفة في الدور السفلي، ثم أخذتك يا مراد وأنت ابن ثمانية أشهر ففرشت لك فراشا صغيرا في الباحة حتى أُبْعِدَكَ عنهما كي لا تنتقل إليك العدوى.

المشهد 5: خارجي. نهارا.

(لالة فخيتة ترتدي جلبابا واللثام على وجهها. تسير في طريق بفاس القديمة وهي تهرول).

المشهد 6: خارجي. نهارا.

(لالة فخيتة تصل إلى باب منزل. تجد بابه مفتوحا أمامها. تدخل. تجد في الباحة الحاج حميد وعيشة مسجيين على فراش المرض. حمار يتوقف أمامهما. عندما يرى لالة فخيتة يتبول. تدفعه لأن يخرج من البيت. تعود إلى الباحة. تطل بنظرة سريعة على الحاج حميد وعيشة. تنظف الباحة من بول الحمار. تحاول أن تطعمهما من قدر أتت بها من بيتها فلا يقدران على تناول الطعام. تُخرج من فتحة جلبابها ورقا أصفر بداخله أقراص طبية. تأتي بكأس من الماء. تحمل أختها عيشة من عنقها لتستقيم قليلا فتضع في فمها القرص ثم تقرّب كأس الماء من فمها).

– لالة فخيتة: اشربي يا أختي. ابتلعي حبة هذا الدواء، فقد أعطاني إياها طبيب فرنسي.

(تقترب من الحاج حميد فترفع رأسه وتضع حبة الدواء في فمه. تقرّب من شفتيه كأس الماء).

– لالة فخيتة: حميد يا أخي اشرب. ابتلع هذه الحبة.

(تقف في وسط الباحة. تنظر إلى الصبي مراد. تقترب منه. تحمله في لفافته وتخرج من البيت).

المشهد 7: ليلا. داخلي. منزل الفاطمي.

(الفاطمي ولالة فخيتة يجلسان في غرفة بالدور العلوي. الفاطمي يحمل الصبي مراد ابن الثمانية أشهر بين يديه ويفرح به:

الفاطمي: آ مولاي الغزال! آ الظرافات! آ الفن!

(يُقبِّله بمحبة)

الصبي مراد: (مناغاة).

الفاطمي (للالة فخيتة): احكِ لي آش جرى؟ آش وقع لحميد وعيشة؟

لالة فخيتة: خليها على اللـه آ الفاطمي. محال أن يخرجا من هذا المرض سالمين.

الفاطمي: لن نقنط مما أصابنا به الله. الصبر. وإن شاء السميع العليم لأوقف هذا المرض في رمشة عين، فينهض كل طريح في الفراش ويبدأ حياته بما أعطاه اللـه من قوة.

لالة فخيتة: أختي عيشة وزوجها الحاج حميد حالتهما خطيرة. أتيت بالولد مراد خشية أن يموتا ويبقى في البيت جوعانًا وعطشانًا.

الفاطمي: هذا الغزال! اللـه على زين فيه. ريحته ريحة الجنة.

لالة فخيتة: أنا غسلت جسده بالماء والصابون، وملابسه عطرتها بماء الورد.

آ الفاطمي، اللـه يْخَلِّيك. إن أصبحا في الغد حيين نطلب سيارة الإسعاف وننقلهما إلى مستشفى كوكار، على أمل العلاج.

الفاطمي: آ فخيتة. لو كان الأمر بيدي لفعلت المستحيل. أنت امرأة تعيش بين جدران هذا البيت ولا تعرف ما يقع في فاس من مصائب.

لالة فخيتة: اللـه ينجينا.

الفاطمي: القبور امتلأت عن آخرها بالموتي فما بالك بالمستشفيات التي امتلأت بالمصابين وهم بين اليأس والرجاء. هل تعلمين أن أكفان الموتى لا توجد اليوم عند باعة الكتان في القيسارية، وأن الناس يُكفّنون موتاهم في أثواب لا يجدونها إلا بصعوبة؟ حتى أكفان الموتى لم تعد موجودة.

لالة فخيتة: اللـه يبقى الستر علينا وعلى جميع المسلمين.

الفاطمي: هذا المرض اختبار آ فخيتة.

لالة فخيتة: اختبار آ الفاطمي؟

الفاطمي: هذا المرض أنزل الرحمة في القلوب. أصبح العاصي طائعا والمذنب تائبا، وقاسي القلب رحيما والجبار رقيقا والمتكبر متواضعا والخبيث طيبا، والكاره محبا والغضوب مطمئنا والمتردد

واثقا، وتارك الصلاة مصليا ولو في قعوده، ومن يغش في الميزان مُوَفِّيًا والكاذب صادقا والخائن وفيا.

لا لة فخيتة:هي التوبة إلى اللـه آ الفاطمي.

السي الفاطمي: ربما! اللـه أعلم بمن يتوب إليه. أما أنا فأفكر في أن حال البشر غريب وعجيب. إن أصاب الوباء أهل فاس تضامنوا وتابوا إلى اللـه وإن أصاب المكروه أحدهم أصبحت لهم قلوب من حجر، لا ترق لحاله ولا تساعده على أن يخرج من ذلك المكروه.

(الفاطمي يحمل الصبي مراد بين يديه. يناغيه فيسمع مناغاته. يلاعب ساقيه وذراعيه فيبادله الملاعبة. يقبّل جبينه).

الفاطمي (مختلج النظرات): آ فخيتة. ادع لأختك لالة عيشة ولزوجها الحاج حميد بالشفاء العاجل. ولكن، إذَا قَدَّرَ اللـه وماتا فأنا أتكفل بهذا الولد مراد. اللـه رزقني بنتين: هند وسهام، وهو الولد قد جاء.

لالة فخيتة: اطلب له أن يعيش في كنف والديه، بعد أن يشفيا من مرضهما. وإذا وقع وقدر اللـه فالولد مراد سيكون ولدا لنا نرعاه ويكبر مع هند وسهام كأخ لهما.

المشهد 8: خارجي. نهارا. الطريق العمومي.

(جنازة تخرج من بيت حميد وعيشة. كلاهما مسجيان في

نعشين. حميد في نعش محمول عليه ثوب أخضر وعيشة محمولة في صندوق عليه ثوب أخضر. الجنازة تعبر دروبا ضيقة من دروب فاس. يتبعها خلق ليس بالكثير).

(يظهر الفاطمي في المقدمة، يسير بجواره رجلان:

الرجل الأول (للفاطمي): آ السي الفاطمي أنا خاي مشَى عند اللـه.

الفاطمي (للرجل الأول): آ السي سليمان الأعمار بيد اللـه. كل نفس ذائقة الموت.

الرجل الثاني (للفاطمي): خاي الحاج حميد كان رجلًا طيبًا، اللـه يرحمه، وعيشة امراته اللـه يرحمها.

الفاطمي (للرجل الثاني): آ السي عبد المجيد اللـه يرحم موتى أمة المسلمين جميعا.

سليمان: والولد من سيكون به؟

الفاطمي (هاتفا): أنا. واشكون غيري؟ مراد أمانة في عنقي. سأرعاه إلى أن ألقى وجه ربي.

عبد المجيد: هكذا يكون الرجال وإلا فلا.

الفاطمي: مراد في مكان ولدي. أنا سوف أتكفل به ما دمت حيا.

سليمان: جازاك اللـه عنا خيرا.

أنتما عماه، أخوا المرحوم، وأحق مني بالتكفل به. لكنه أصبح قرة عيني وقرة عين فخيتة زوجتي. أصبح له مكان في بيتي وفي قلبي.

عبد المجيد: جازاك اللـه عنا خيرا.

(لقطة للجنازة وهي تصل إلى المقبرة).

المشهد 9: نهارا. داخلي. باحة بيت فاسي عتيق هو بيت السي الفاطمي.

(مراد في العاشرة من عمره تقريبا. يجلس على فراش في الباحة بجوار خالته لالة فخيتة وهو مطرق برأسه. لالة فخيتة تحكي وهو يسمع):

لالة فخيتة: يا ولدي يا مراد، منذ ذلك اليوم الذي حضر فيه عَمَّاكَ سليمان وعبد المجيد جنازة والديك لم يسألا عنك. نسياك يا ولدي. وعمتك هبة لم نرها منذ أن حضرت جنازة أخيها الحاج حميد. ولكن، يجب أن تعرف يا ولدي مراد أن لك دارًا في (رأس الجنان)، فيها ولدت، وفيها عاش والداك الحاج حميد وعيشة، وأن ما وصلني من معلومات هو أن عمك سليمان قد استولى على تلك الدار، أما الرحى التي في (واد الصوافين) فقد بقي فيها من كان

يعمل مع والدك في طحن الزرع، وكان عمك عبد المجيد يحاسبه ويقول إنه ينفق عليك من مال تلك المحاسبة، إلى أن بدت له فكرة هدم الرحى وإقامة عمارة في مكانها. عندما تكبر يا ولدي يا مراد عليك أن تبحث عن حقوقك في الإرث من والديك، وإن كان عَمَّاكَ قد اغتصبا حقك في صغرك فأنت تستطيع أن تسترجعه في كبرك. حرام يا ولدي. من يأكل مال اليتيم بالباطل مآله جهنم. وأنت عندما تكبر، سأدلك على بيت والديك في (رأس الجنان) وعلى رحى والدك في (واد الصوافين).

المشهد 10: داخلي. ليلا. بيت الفاطمي.

(مراد في الرابعة من عمره. الفاطمي يحمله بين ذراعيه ويلاعبه، ومراد يستجيب لذلك اللعب. يتضاحكان. يلهوان. الفاطمي يُحدث أصواتا مثيرة للولد. هند وسهام تقبلان على والدهما. يأخذ الفاطمي مرادا وهندا وسهاما ثلاثتهم في حضنه. تأتي لالة فخيتة بالرضيعة بين يديها).

لالة فخيتة: وها هي ابنتي مريم، جاءت لتفرح برؤية والدها.

(يدفع الفاطمي بالبنتين هند وسهام بعيدا ويأخذ الرضيعة مريم ليضعها في حجره. مراد

يقبل على مريم ويقبّل خدها.

الفاطمي (للالة فخيتة): يا فخيتة انظري. أتى إليها وقَبَّلَهَا من غير أن نطلب منه ذلك. سبحان الرازق. كأن هذا الولد قد خلق لنا، وكأن هذه البنت قد خلقت له.

ـ لا آ السي الفاطمي. أنا أحب أن أزوّجه من ابنتي هند.

الفاطمي: هند تكبره بسنتين، أما مريم فهو يكبرها بعامين.

(الفاطمي يوزع حبه وملاعباته على الأربعة: هند وسهام ومريم ومراد).

(الأسرة على مائدة العشاء، والفاطمي يطعم هندا وسهام ومراد، وهو في غاية الانشراح).

المشهد 11: داخلي. ليلا. بيت الفاطمي. قاعة الجلوس.

(الفاطمي ولالة فخيتة يشربان الشاي).

الفاطمي (للالة فخيتة): تعرفين آ فخيتة أنني معلم زلايجي، يعني أنني معلم صنايعي.

لالة فخيتة: أعرف آ السي الفاطمي. والدي زوّجني إياك على أنك معلم صنايعي.

الفاطمي: والدك آ فخيتة اللـه يرحمه. أنا أتحدث عن الحاضر، لا عن الماضي، وأحب أن أبشرك بالخير.

لالة فخيتة: أية بشرى؟

الفاطمي: ربما سوف يرجع العز للصنعة كما كان أيام زمان. إن شاء الله سيرجع. تراثنا الأندلسي سوف يعيش من جديد.

لالة فخيتة: لم أفهم.

الفاطمي: ظهرت لنا نحن الصناع الزلايجية والجباسة والنقاشين على النحاس والسطارمية وصناع آخرين من صناعات أخرى فرص للعمل في السعودية والإمارات ودول الخليج.

لالة فخيتة: يعني أن صنائعكم سوف تزدهر خارج فاس.

الفاطمي: كما قلت لك. في دول الخليج.

لالة فخيتة: وما حاجة تلك الدول إلى صناعتكم؟

الفاطمي: الناس في تلك البلدان يحبون الأصالة. ونحن الصناع في فاس ورثنا تقاليد الزليج والجبس وكل مستلزمات العمران الأندلسي أبًا عن جدّ.

لالة فخيتة: قل لي آ السي الفاطمي إنك سوف تذهب للعمل في بلدان الخليج وتتركني لأربي بناتي والولد مراد.

الفاطمي: يا فخيتة استبشري خيرا. اللهم يَسِّرْ ولا تُعَسِّرْ. أنا لن أذهب إلى بلدان الخليج، لكني سوف أرسل من الصناع من سوف ينفذون الصفقات التي سوف أتعاقد عليها.

لالة فخيتة: إذن فأنت سوف ترسل الصناع ولن تذهب إلى هناك؟

الفاطمي: لن أذهب. أنسيت أنني مولع بالولد الجميل مراد؟ هل أستطيع أن أفارقه ولو ليوم واحد؟ هو حبيبي، وقرة عيني، هو كل أملي في الحياة.

لالة فخيتة (بشيء من الغضب): آ الفاطمي لا تنس أنك أب لثلاث بنات، وأن مرادا هو ابن أختي، وأننا أنا وأنت نتكفل به. إن أعليت من شأن مراد على بناتك وشعرن بذلك فسوف يكرهنه كرها شديدا.

الفاطمي: آ فخيتة أنا لا أستطيع أن أسيطر على عواطفي تجاه الولد مراد. أحبه. وأحبه. وأحبه. لا أنكر أنني أحب بناتي لكن حبي لمراد يسيطر على قلبي. لا أعرف لماذا. أنا نفسي أحاول أن أفهم لماذا أعشق هذا الولد وأنا أب لثلاث بنات فلا أفهم.

ـ ربما كنت تنتظر مني أن أنجب ولدا.

ـ لا آ فخيتية. ليس هذا هو المقصود. أنا عندي الولد كالبنت. في الغالب، أنا أعشقه لأنه...

لالة فخيتة: لأنه ماذا؟ قل آ السي الفاطمي؟

الفاطمي: لأنه نشأ يتيم الأبوين آ فخيتة. هل تعرفين ما معنى أن

يتيتَّم طفل صغير وهو ابن ثمانية أشهر؟ إذا كان هذا الطفل لا يشعر بيتمه، فنحن الكبار نشعر بيتمه، ربما لذلك فاض قلبي له بالحب، وتولعت به حتى صرت لا أحب أن أفارقه.

لالة فخيتة: أراك وأنت تعود إلى البيت من عملك، ومقصدك هو مراد، لا البنات.

الفاطمي: تماما.

لالة فخيتة: لهذا تقبل عليه فتشعر بالسعادة، وتراه سعيدا كما أراه كلما أقبلت عليه. أحيانا كنت وأنا أحمله بين ذراعي وهو وليد وإن رآك يهفو إليك ويبتسم، ويحرك ذراعيه في اتجاهك، يطلب أن تحمله بين ذراعيك، ولما كبر أصبح ينتظرك عند الباب، كأنه يعرف موعد عودتك إلى البيت.

الفاطمي: فخيتة! كفِّي عن هذا الكلام.

(يشهق باكيا. تنظر لالة فخيتة إليه باستغراب. ينخرط في نوبة بكاء).

لالة فخيتة: لماذا تبكي آ لفاطمي؟ يا وليلي! لم أرك باكيا إلا في هذا اليوم.

الفاطمي: أبكي إشفاقا على هذا الولد الجميل. لو استطعت أن أُدخله في قلبي لأدخلته فيه، لكني لا أستطيع.

لالة فخيتة: أنت حنون آ الفاطمي. قلبك مليء بالحب.

المشهد 12: خارجي. نهارا. إدارة مدرسة ابتدائية.

(مراد في سن الثانية عشرة، يتطلع وسط زحام من التلاميذ إلى نتائج الشهادة الابتدائية).

ـ مراد (يهتف) أنا ناجح. ناجح.

المشهد 13: داخلي. نهارا. بيت الفاطمي.

(مراد يجلس وسط العائلة. الفاطمي يقدم لمراد ساعة "دوكَمَا" ذهبية، هدية بمناسبة النجاح في الشهادة الابتدائية).

الفاطمي: خذ.

(الفاطمي يضع الساعة في معصم مراد. هند وسهام ومريم يتطلعن إلى الموقف).

السي الفاطمي: وأكثر من هذه الساعة، سأخيط للعزيز مراد بذلة عصرية عند أحسن خياط عصري في فاس.

لالة فخيتة: هو أصغر تلميذ في القسم، وقد نجح بتفوق. تبارك اللـه.

الفاطمي (للالة فخيتة): والشهادة سوف أضع لها إطارا وأعلقها على الحائط، بجوار شهادة هند.

هند (لوالدها الفاطمي): سوف تصبح لنا شهادتان على الحائط.

لالة فخيتة: وإن شاء الله تنجح سهام ومريم وتصبح على هذا الحائط أربع شهادات.

(الفاطمي يظهر عليه الشجن. يمسك بمراد ويعانقه ثم يقبِّله عدة قبلات على وجنتيه).

المشهد 14: داخلي. نهارا.بيت الفاطمي

(لالة فخيتة تقف في وسط صالة خالية ما عدا أثاث بسيط وهي ترتدي لباسا رياضيا. راديو من النوع القديم، في زاوية الغرفة، ولالة فخيتة تتطلع إلى الراديو وهي على استعداد لأن تقوم بالحركات الرياضية).

(جنريك البرنامج: موسيقى. صوت يقول: الصباح الرياضي. برنامج إذاعي تقدمه الإذاعة المغربية كل صباح على الساعة السابعة. إعداد وتقديم الحسين الباشا).

الحسين الباشا: أعزائي المستمعين. صباح الخير. نبدأ هذا البرنامج الرياضي بالحركات الصباحية. قفوا وأجسادكم مستوية، مرفوعة وصدوركم إلى الأمام.

(تقوم لالة فخيتة بنفس الحركات).

الحسين الباشا: افتحوا أذرعكم وتنفسوا الهواء عشر مرات.

سَخِّنُوا أجسادكم برفع الأرجل إلى الأمام. واحد. اثنين. ثلاثة. واحد. اثنين. ثلاثة. الآن وبعد حركات التسخين ارفعوا أذرعكم إلى الأعلى ثم اخفضوها لعشرين مرة. واحد. اثنين. ثلاثة. واحد. اثنين. ثلاثة. اجعلوا أذرعكم تقوم بحركات دائرية، وصدوركم مفتوحة، وأنتم تستنشقون الهواء، لعشرين مرة. واحد. اثنين. ثلاثة. واحد. اثنين. ثلاثة.

(خلال قيام لالة فخيتة بنفس الحركات يظهر الفاطمي وهو يطل عليها من باب الغرفة، ويتفرج، ويقوم بحركات ساخرة).

الحسين الباشا: قوموا ببعض الخطوات إلى الأمام وأنتم ترفعون القدم اليمنى إلى الأعلى ثم اليسرى لعشرين مرة. واحد. اثنين. ثلاثة. واحد. اثنين. ثلاثة.

(تقوم لالة فخيتة بنفس الحركات، والفاطمي يرقبها من باب الغرفة وهو يقوم بحركاته الساخرة).

الحسين الباشا: الدقائق العشر المخصصة للحركات الرياضية تنتهي، سوف نخصص بعض الوقت للنصائح التي تتعلق بخفض الوزن الزائد في الجسم والحمية الغذائية. أنصح بالإكثار من شرب المياه، وبالإكثار من تناول الخضر والفواكه والسمك والألبان، والتخلي عن تناول اللحوم الحمراء إلا مرة في الأسبوع بكمية مائة جرام، والإقلال من تناول الخبز والبطاطا. في نصائح الغد، سوف

نتوقف عند العادات الغذائية السيئة التي تُعتبر سببا مباشرا للسمنة. إلى حلقة الغد.

(تلتفت لالة فخيتة نحو الباب فترى الفاطمي وتحس أنه كان يراقبها).

لالة فخيتة: ياك آ السي الفاطمي! ترقبني وأنا أقوم بحركاتي الرياضية؟

الفاطمي: آ فخيتة مالك بحال بوقفاز تقومين في الصباح الباكر للقيام بهذه الحركات المضحكة؟

لالة فخيتة: شف بطنك بحال القبة آ الفاطمي، أنت تمشي وهي منفوخة قدامك.

الفاطمي: البطن الكبيرة والحمد للـه من علامات النعمة والشبع. انظري إلى الفقهاء والعلماء، كلهم بطونهم منتفخة بما يزدردونه من طعام. الحمد للـه. خير اللـه كثير.

لالة فخيتة: والأمراض آ الفاطمي، من أين تأتي؟ أليست تأتي من الإفراط في تناول الطعام؟

الفاطمي: ولماذا يا فخيتة نحرم أنفسنا مما رزقنا اللـه من نِعَم؟ هي أرزاقنا وهي نِعَمٌ نَتَنَعَّمُ بها في الدنيا قبل الآخرة.

لالة فخيتة: قَبَّحَ اللـه اللُّجَاج. أنا لم أطلب منك أن تقوم معي

بالحركات الرياضية التي يدعونا للقيام بها الحسين الباشا، فاتركني وشأني.

الفاطمي: لكنك تُنْهِضِينَ البنت هند قبل وقت ذهابها للمدرسة بكثير.

لالة فخيتة: لأنني لا أستطيع أن أقوم بتلك الحركات وحدي.

الفاطمي: البنت نحيفة وليس لها شحم زائد مثل ما عندك.

لالة فخيتة: قلت لك آ الفاطمي انظر إلى بطنك المكدسة بالشحم، التي تسير أمامك. الجمل ينظر إلى حدبات الجمال الأخرى ولا ينظر إلى حدبته.

(هند وسهام تتفرجان على ذلك النقار الذي يحدث بين والديهما وتضحكان. مراد الصغير ينكمش في ركن ولا يضحك).

المشهد 15: ليلا. داخلي.شقة فسيحة بها أثاث حسن وأغراس ومكتبة على رفوفها العديد من الكتب. هي شقة مراد في عمارة الحاج السحنوني.

(مراد يجلس في نفس الغرفة. يشرب كأسا. يهذي بصوت مرتفع).

مراد: عندما بدأت أعرف أن السي الفاطمي ليس أبا لي انتابتني الحيرة. لم أكن أعرف ما تعنيه كلمة يتيم، ولم أشعر بأنها تنطبق عليَّ، فقد كنت أنعم بحياة أسرية عادية، عشت فيها بأمان، وبدأت

أحسب أن بنات خالتي هن أخوات لي. لكن اليتم الحقيقي هو ما عشته عندما توفي السي الفاطمي وأعقب وفاته بعام واحد موت خالتي لالة فخيتة. الحزن الذي شعرت به يوم وفاته كان أكبر حزن شعرت به في حياتي.

(ينخرط في نوبة بكاء).

المشهد 16: خارجي. نهارا. سطح منزل فاسي يتشابك مع السطوح الأخرى.

(مراد في الثامنة عشر. يقف على السطح ويتطلع إلى ما يترامى أمامه من سطوح للمنازل وصوامع وأبراج للمدينة. يتأبط كتابا).

مراد: أتوحد مع نفسي. ما أجمل الوحدة لأنها تبعث على التأمل وتسمح للعواطف بأن تتأجج. أليس ممتعا أن أرقب سماء الله الواسعة، وأن أتطلع إلى سطوح المنازل المتشابكة؟

(أصوات المؤذنين يؤذنون لصلاة المغرب وقد تواقتت أصوات الأذان وتناغمت، في وقت واحد).

مراد: هي ضوء عيني. هي المرتجى والمؤمل. هي الفتاة المكتملة البهاء والجمال. لا أستطيع أن أصف جمال وجهها لأنني إن نظرت إليه أخشى أن أحترق. ضوء وهاج من عينيها ووجهها وجبينها يظهر أمامي فأخفض بصري، وأنا لا أنظر إلى وجهها

إلا لكي أرى نورا ملائكيا يشع من الوجه، فأقتحم ذلك النور لأجد وجه مريم مجدورا أبيض البشرة، والحور في العينين والأنف دقيق والشفتين دقيقتين والقامة متوسطة الطول والصدر ناهدًا. وفتاتي في السادسة عشر، ضحوك متألقة الوجه والعينين، حتى إنني أسبح لمن خلقها، وأحسب أن صورتها هذه، التي رسمتها في خيالي، هي صورة ملاك طاهر لا يمكن أن تلمسه أيدي الشياطين. وكنت أتصور أنني الإنسان الوحيد في هذا العالم الذي يليق بحب الملاك، والإخلاص له، وخدمته في كل ما يريد، بحسب الاستطاعة.

كنت أحاول أن أُنزل مريم من السماء إلى الأرض فلا أستطيع، على الرغم أنها لا تعيش في السماء، بل أعيش أنا وإياها تحت سقف واحد هو سقف بيت السي الفاطمي. كنت أثور كلما غازلها أحد من أبناء الحي أو من زملائنا في الثانوية وأصبح مستعدا لأن أكون مقاتلا، إن اقتضت الضرورة. هي روحي وكياني. هي وجودي ولا وجود لي من دونها. هي الفرحة والأمل، وهي أنا وأنا هي. رغبة كبيرة كانت تسيطر عليَّ في أن أتملكها وأن أمنحها روحي ووجودي وكياني. أحيانا كنت أقترب منها حتى إنني أوشك على أن أُقَبِّلَهَا، لكن مانعا كان يمنعني هو ما يقيم بداخلي من صورة مثالية صنعتها لها، وأنا أستمتع بتلك الصورة المثالية ولا أطلب غيرها. أحببت تلك الصورة في المثال ولم أحبها في الواقع. لذلك لم

أقترب من جسد مريم. عشت في عالم طهراني لا يستحضر الجسد ويستحضر الروح.

(مراد ينظر إلى سطوح المنازل. يفتح الكتاب الذي يحمله تحت إبطه على صفحة معلومة فينظر إليها ويقرأ):

مراد:

يا ساري البرق غَادِ القصر واسق به من كان صِرْفَ الهوى والْوُدِّ يسقينا

واسأل هنالك هل عَنَّى تذكرنا إِلْفًا تذكره أمسى يُعَنِّينى-----ا

ويا نسيم الصبا بَلِّغْ تحيتنا من لو على البُعد حَيَّى كان يُحْيِينا

(تصعد مريم إلى سطح المنزل. ترى دموعه حَرَّى تنحدر على خديه).

مراد (يقرأ من ديوان ابن زيدون):

طال انتظارك في الظلام ولم تزل عيناي ترقب كل طيف عابر

(مراد يصل إلى قول الشاعر):

وجلت الدنيا كأبهج ما رأت عين وصَوَّرَهَا خيال الشاعر

(تغيم نظرات مريم).

مريم: هل هذه الأشعار من مقرر البكالوريا؟

مراد: هذه الأشعار من مقرر آخر، يسكن في قلبي ووجداني.

مريم: ألهذا يا مراد تقرأ هذه الأشعار وأنت تذرف الدموع؟

مراد: هي دموع لا أعرف أهي دموع الفرح أم الحزن.

مريم: أريدها أن تكون دموع الفرح يا مراد.

(تنفر مريم هاربة من المكان وتبدو وهي تدخل باب سطح المنزل وتنزل أول الأدراج).

مراد: نفرت مني غزالتي. تتركني مع الشعر والبكاء.

(منظر عام لمدينة فاس وهي تظهر من من سطح المنزل، ببناياتها المتشابكة ومآذنها).

مراد: ما كان عشقي لفاس سوى عشق آخر يضاهي تلك المشاعر الخفية التي كنت أُكِنُّهَا لمريم. لكنها فاس متاهة، وحبي لمريم متاهة أخرى.

المشهد 17: داخلي. ليلا. شقة مراد.

(يجلس وحيدا).

مراد: كانت هند مثلي في سنة البكالوريا بعد أن كررت السنة لعامين، وسهام هي الأخرى كانت معنا في نفس السنة بعد أن لحقت

بأختها. في نفس العام توظفت هند في إدارة البريد والبرق والهاتف وسهام في المكتب الوطني للمطارات، وفي (مطار فاس سايس) بالتحديد، أما مريم فلم تشأ أن تكمل دراستها في الثانوي فالتحقت بمدرسة للممرضات قضت فيها سنة ثم تخرجت ممرضة، وعينت في (مستشفى الغَسَّانِي). توظفتُ في نفس السنة في إدارة المحافظة العقارية. فرحت بالوظيفة وفرح السي الفاطمي أيما فرح بتوظيفنا نحن الأربعة. كلما حصل واحد منا على راتبه الشهري كان ينفقه على الهدايا، وخاصة للسي الفاطمي ولالة فخيتة، فضلا عن عشاء احتفالي لكل أفراد العائلة. بدأت خالتي تمهد بالكلام لزواجي من هند، وهند كانت تشعر بحبي لمريم، ولذلك كانت تعلن رفضها لهذا الزواج، وأنا لم أستطع أن أصارح خالتي بحبي لمريم، ومريم بقيت بعيدة عن هذا الوضع المعقد. كنت أنتظر أن يأتي يوم أعلن فيه عن رغبتي في الزواج من مريم، وأردت لذلك اليوم ألا يتأخر كثيرا، خوفا من أن يختطفها مني أحد الممرضين أو الأطباء. لكن الرياح جرت بما لا تشتهي السفن، فقد توفي السي الفاطمي بعد مرض لم يمهله سوى شهر واحد، ثم توفيت بعده خالتي بشهرين، فبقينا نحن الأربعة يتامى، ثم انفرط العقد بسبب توترات عنيفة أصبح يعرفها البيت، فقد أصبحت هند عنيفة مع أختيها ووصل الأمر إلى حد التشابك بالأيدي معهما، كما غابت عنا خالتي التي كانت تنظم شئون البيت ووجبات الطعام فاختل كل شيء وما عادت الحياة فيه تطاق.

في ذلك الخضم انحزت إلى حبيبتي مريم دون أن أُظهر انحيازي لها أمام أختيها، ومن غير أن أشعرها بأنني أخطط لخطة تجعلنا نخرج معا من البيت، في مرحلتها الأولى أكون أنا من يغادره، وفي خطوته الثانية أصارحها بحبي وأطلب يدها ثم نكتري شقة واسعة ونؤثثها لنعيش فيها كباقي الأزواج. لذلك غادرت بيت خالتي لأقيم في معزبة تقع في (زنقة كينيا) بالمدينة الجديدة. زياراتي لبنات خالتي كانت تبوء بالفشل، ومريم أخذت تختفي ولا تحب أن تظهر أمامي. رغم كل شيء، فقد استهواني أن تكون حبيبتي ممرضة، حمامة بيضاء، يدا حنونا تقدم الشفاء للمرضى، فزاد ذلك من حبي لها، وإن أيقنت أنه حب منذور للفشل.

المشهد 18: قاعة الفحص بأحد المستشفيات.

(مريم ترتدي بذلة الممرضات وتقف إلى جوار طبيب وهو يفحص مريضا. الطبيب يفرغ من عمله والمريض يغادر القاعة).

الطبيب: أفهم من ممانعتك يا مريم أنك مرتبطة بشخص آخر.

مريم: قد يكون الأمر كذلك.

الطبيب: تقولين قد يكون. بمعنى أنه قد لا يكون أيضا.

مريم: سواء كان أم لم يكن، فأنا لا أرغب في علاقة مع أي كان، في هاته الفترة.

الطبيب: وبعد هاته الفترة يا مريم؟ هل أحتفظ بالأمل؟

مريم: يا دكتور أنا.. قلت لك أنا..

الطبيب: أنت ماذا؟

مريم: أنا أحب ابن خالتي وأنتظر أن...

الطبيب: ماذا تنتظرين؟

لا. لا أنتظر شيئا.

(تغادر الغرفة على عجل).

المشهد 19: أحد دروب فاس العتيقة.

(مراد يسير في الدرب. يطرق باب أحد البيوت. ينتظر. يعود إلى طرق الباب. لا يفتحه أحد. يضع يده على جبينه ويستند إلى الباب في لحظة حزن).

مراد: المفتاح معي. لكني أحب أن تأتي مريم أو إحدى أختيها لتفتح الباب. إن كن خارج البيت فلا حاجة لي إلى أن أدخله. هذا بيت خالتي لالة فخيتة الله يرحمها وزوجها السي الفاطمي الله يرحمه. وها أنا بعد أن عشت فيه سنوات طويلة أنا على بابه كالغريب.

المشهد 20: ليلا. داخلي. حانة أخرى يكثر فيها لغط السكارى والباعة المتجولين.

(مراد في الأربعين. يجلس صامتا وقد بدا عليه الذهول، وعلى المائدة ست زجاجات فارغة من الجعة).

مراد: هذا العمر سوف ينقضي دون فائدة. كل مساء أخرج من إدارة المحافظة العقارية ثم آتِ إلى هذه الحانة أو إلى حانة أخرى. أتعذب بسبب هذا الضجيج. أصبحت أَبيرَ هذا المكان. أنا ضللت طريقي. لم أستأنس بعد بهذا الرهط من بشر يُظهرون الخير ويُخفون ما في نفوسهم من شر. لا أتعالى عليهم، لكني أصنع لنفسي وقارا معهم، حتى لا أسقط في سخافات سوف تجعلني أحتقر نفسي وأحتقر هذا المكان الذي جعلني ألتقي معهم. ولا بأس. فأنا لا آتِ إلى هنا إلا لكي أضمد بعضا من جراحي. جمرة حب مريم لم تنطفئ في قلبي، وإلى متى سوف أظل أحمل الجمرة فوق راحتي وأنا أطوف بها في كل الأماكن التي أذهب إليها؟ إلى متى؟ أنام وحدي في الفراش وكم أشتهي أن تكون مريم حبيبتي هي التي تنام بجواري على نفس الفراش. من أجل ذلك الأمل لم أقبل على عالم المراقص والحانات التي ترتادها العاهرات. أحيانا، ولأني كنت أشعر بالرغبة في أقصى درجاتها، فقد كنت أدعو عاهرة لأن تأتي لمجالستي على مائدتي، وعندما تأتي، وتشرب، ونتحدث، أجد أنها ليست لي وأنا لست لها. بقيت مشدودا في عوالم أخيلتي وأوهامي إلى مريم. بحثت في اسم مريم فوجدت أنه اسم عبراني مكون من: "مار" – و"يام".

كما أنها لفظة سريانية تعني المكان المرتفع العالي. وفي تفسير معناها قيل هي المرأة التي لا تنصاع للرجال، وقيل هي كل ثمرة تملأها المرارة. وهي ذات دلالة دينية وتاريخية لكون والدة المسيح عيسى عليه السلام هي مريم ابنة عمران، اتهمت بالفاحشة فأنطق الله ابنها لِيُبَرِّئها. وُصِفَتْ في القرآن الكريم بأنها قد أحصنت فرجها. وقد وجدتُ أن النساء اللواتي أحطن بالمسيح عليه السلام في ساعة صلبه، كما يرى المسيحيون، كلهن حملن اسم مريم، ولذلك تميزت والدته عنهن باسم المجدلية، كما أن أيقونات الكنائس تحفل بصور صلب المسيح والنساء مريَمات يحطن به من كل جانب. ومريَمي أنا أهي المكان المرتفع العالي أم هي الثمرة التي تملأها المرارة؟ كلاهما جائز.

المشهد 21: مساء. خارجي. سوق الرصيف بفاس.

(مراد في الخامسة والعشرين. يشتري لحما وخضرا وفواكه. يسير وهو يحمل الأكياس في يده).

المشهد 22: مساء. أحد دروب فاس العتيقة.

(مراد يقف أمام باب ويطرقه. ينتظر. هند تفتح الباب. ترتسم على وجهها علامات الاستغراب. تبدو وهي لا ترحب به).

هند: مراد! ادخل.

(يدخل مراد. تأخذ منه هند الأكياس التي في يده).

هند: أتيت لتتعشى معنا. ولماذا اشتريت كل هذه الأشياء؟ هل تحسب لو أنك لم تأت بها فسوف نبقيك على جوعك؟

مراد: لا أبدا. هو مجرد تصرف بسيط وعادي.

(هند تأخذ الأكياس إلى المطبخ. تأتي سهام).

سهام: مراد! ألسنا إخوة؟ لماذا تغيب عنا كل هذا الوقت؟

مراد: أنا لم أغب. ثلاث مرات وأنا آتٍ في صباح يوم الأحد لتناول الغداء معكن فلا أجدكن في البيت.

سهام: أنت تعرف يا مراد. ثلاثتنا موظفات. هند في البريد وأنا في المطار وسهام ممرضة، وليس لنا سوى عطلة يوم الأحد نذهب فيها إلى الحمام العمومي والحلاقة.

مراد: لهذا أتيت اليوم مساء.

سهام: كان عليك أن تفتح الباب بمفتاحك الخاص وتتصرف. هو بيتك كما هو بيتنا آ مراد. رحم اللـه الوالدين.

مراد: البيت من دونكن لا يعني شيئا بالنسبة إليّ.

(يبدو شيء من التوتر على ملامح مراد)

مراد (لسهام): أين مريم؟ لم أرها.

سهام: مريم لم تذهب معنا أنا وهند صباح هذا اليوم إلى الحمام العمومي، وهي الآن تستحم في حمام البيت.

مراد: لا بأس.

المشهد 23: مساء. خارجي. سطح منزل السي الفاطمي.

(مراد يقف في سطح المنزل. منظر عام لمدينة فاس وهي تظهر من سطح المنزل).

مراد (أوف): يا حبها الذي أشعل الحرائق في قلبي! هنا فوق سطح هذا المنزل قضيت مساءات عديدة وأنا أتولّه في الفاتنة التي فتنتني. كانت قريبة مني بعيدة عني. لم أجرؤ على أن أصارحها بحبي.

المشهد 24: مساء. داخلي. بيت الفاطمي. المطبخ.

(هند تطبخ ومراد يراقب ما تفعل).

المشهد 25: صباحا. داخلي. بيت الفاطمي. المطبخ.

(فلاش باك. مراد في الرابعة عشر. يقف بجوار خالته لالة فخيتة وهي تقوم بتحضير ديكين للطبخ. يبدو مراد الصغير مهتما بما تفعل خالته).

المشهد 26: مساء. داخلي. بيت الفاطمي.

(مراد يتنقل بين أرجاء البيت باحثا بنظره عَلَّهُ يرى مريم فلا يجدها).

مراد (أوف): لا يمكن أن تكون قد بقيت في الحمام كل هذا الوقت. أهي لا تحب أن تراني؟

(يمضي بعض الوقت وهو متوتر الأعصاب).

مراد (لسهام): هل مريم ما زالت في الحمام؟

سهام: لا أعرف. هل كل همك من زيارتنا هو أن ترى مريم؟

مراد: ما جئت إلا لأراكن جميعا.

سهام: لكنك لم تدعُنا لنرى الشقة التي تسكنها.

مراد: ليست شقة. إنها معزبة اكتريتها بما فيها من أثاث، وهو أثاث للعزاب يا سهام.

(تخرج سهام من الغرفة إلى وسط الدار).

سهام (تصرخ): مريم. أينك يا مريم؟ مراد جاء يزورنا وهو يسأل عنك.

(لا جواب. يبدو التوتر على وجه مراد. يغادر البيت).

المشهد 27: ليلا. داخلي. إحدى الحانات.

(مراد يجلس وحيدا. ينادي النادل بحركة من يده).

مراد: بيرة باردة، ولا تتأخر بها.

(مراد يجول بنظره في الحانة).

مراد: هي لم تحب أن تراني. ربما أصبح في حياتها رجل. قد يكون. وقد يكون أنها أرادت بذلك الصدود أن تعذبني. ذلك ما فعلته في عيد الأضحى الماضي.

المشهد 28: داخلي. نهارا. بيت الفاطمي. وسط الدار.

(فلاش باك: مراد يقف بجوار جزار وهو يذبح كبشا ويسلخه. الجزار ينتهي من عمله. مراد ينقده أجره ويرافقه إلى باب البيت. هند عارية الساقين تصب الماء وتغسل الأرض. سهام تقوم بتنظيف الأحشاء. هند تشغل النار في موقد مليء بالفحم).

مراد: ومريم ألا تساعدكما؟

سهام: يوم العيد هذا، وهي لم تظهر حتى لكي تقول لك عيد سعيد.

هند: اتركيها لحالها. هذا يوم العيد. لا داعي للنقار. أنا أرهقني الشغل. ليتك يا مراد لم تأت بهذا الكبش.

مراد: ما فعلت إلا خيرا.

هند: الشكر لك. ها أنت ترى كم هو مرهق شغل يوم العيد. في العيد القادم لا تنعب نفسك بشراء كبش. يكفينا أن نوفر لحما للشيِّ والقلي.

مراد: أردت أن أبقي على السنة الحميدة، كما كان يُبقي عليها السي الفاطمي اللـه يرحمه.

هند: يا مراد أيام الوالد اللـه يرحمه، كانت الوالدة اللـه يرحمها امرأة تُعَدُّ بأربع نساء، قادرة على شئون البيت كلها، أما هذا الوقت فهو وقت آخر.

(هند تشوي كبد الكبش على النار. تَشُقُّهَا بالسكين وتقطِّعها قطعا صغيرة. تمرغها في شرمولة. تأتيها سهام بشحم الأحشاء. تلف قطع الكبد في الشحم، وتغرزها في القضبان. مراد يتابع ما تفعل).

هند (لأختها سهام): سخِّني الخبز في الفرن، وأعدي الشاي، ثم أخرجي السلاطات من الثلاجة وابدئي في صف المائدة.

سهام: ثم أنادي الأميرة لتأتي إلى مائدة الطعام. هل في هذا البيت أميرة وخادمتان؟

هند: هي تعرف أن من لا يعمل لا يأكل.

مراد: يا هند هذا يوم العيد. إن لم تتناول سهام غداءها معنا فأنا لن أتناوله.

هند: إذن فأنت لن تتناوله.

ولماذا؟

مريم تصر على ألا تراك.

مراد: هل هي تكرهني إلى هذا الحد؟

هند: أو قل إنها تحبك إلى أبعد الحدود.

مراد: تحبني ولا ترغب في أن تراني؟

هند: أنا أحار في أمركما. ثمة كثير من الغموض في علاقتكما. أشياء لا أفهمها.

مراد: قلت يا هند إنها تصر على ألا تراني؟

هند: أنا متأكدة مما أقول.

مراد: وأنا ما جئت إلا لكي أقضي يوم العيد معكن.

هند: أعرف ذلك، واشتريت الكبش دون أن تستشيرني فما أصبح بمقدوري أن أرده عليك.

مراد: عذرا أختي هند. لقد كنت مصدر إزعاج لك ولأختيك.

سهام: أخي مراد. صدقني. لقد أسعدتني زيارتك. أنا ليس أي شنآن مع أحد ولا أحب الشنآن.

مراد (لسهام): شكرا لك أختي سهام. أنا لا أنسى أبدا أنكن بنات خالتي وفي مكانة أخواتي، ولا يمكن في يوم من الأيام أن أتخاصم معكن، أو مع إحداكن. وإذا كانت مريم منزعجة من زيارتي فأنا لا أحب أن أراها منزعجة من شيء، وعلى الدوام.

(مراد يذهب نحو المرحاض. يغافل بنات خالته ويخرج من الدار. يسير بين دروب يحتفل كل سكانها بعيد الأضحى. ساحة تتفرع عنها تلك الدروب تشتعل فيها النار ورجال يشوون رؤوس وأكارع الغنم. يمضي مراد بين الدروب).

المشهد 29: داخلي. نهارا. إدارة المحافظة العقارية.

(مراد يجلس إلى مكتبه. يحمل سماعة الهاتف ويدير بعض الأرقام).

مراد: آلو. هند. صباح الخير، ورمضان مبارك سعيد.

هند: .....

مراد: أبارك رمضان في آخره لأن عيد الفطر سوف يحل بعد ثلاثة أيام إن خرج الشهر كاملا، وبعد يومين إن خرج الشهر ناقصا.

هند: .....

مراد: ليلة رمضان كلمتني سهام بالهاتف. أما مريم فلا تبادر إلى الاتصال بي.

هند: .....

مراد: لا أبادر إلى الاتصال بها حتى لا أزعجها. أقصد... أشعر أنني... لا يهم. ليتك يا هند تبلغين سلامي لأختيك، وتخبريهما بأنني سوف أقضي يوم العيد معكن، وليلة العيد سوف آت بكل المطلوب من لحم ودجاج وخضر وفواكه، أما الحلويات فأمرها عليكن.

هند: .....

مراد: متأسفة؟ وعلى ماذا تتأسفين؟

هند: .....

مراد: سوف تقضون عطلة العيد في تركيا؟ هنيئا لكن. سفر ممتع إن شاء الله. أما أنا فسوف أقضي يوم العيد وحيدا. سلامي.

(مراد يقطع المكالمة. تدخل الآنسة ندى).

الآنسة ندى: مراد. سمعتك تقول سوف تقضي يوم العيد وحيدا.

مراد: كنت أحب أن أقضيه مع بنات خالتي لكنهن سوف يسافرن في رحلة سياحية إلى تركيا.

الآنسة ندى: أنا أيضا أقضي كل أيام الأعياد وحيدة. يا غريب لك الله. في انتظار أن يحن قلب شي واحد ويعطف عليّ ويختارني زوجة له.

مراد (غاضبا): يا آنسة ندى، أليس لك شغل في مكتبك؟ اتركيني وحالي.

الآنسة ندى: وأنت آ السي مراد هل تركتني لحالي؟

مراد: نحن في يوم من أيام رمضان.

الآنسة ندى: أعرف. عندما تصارح المرأة حبيبها بحبها في يوم من أيام رمضان، وتكون نيتها الحلال، أي الزواج، فذلك لا يُفسد الصوم، واسأل الفقهاء.

مراد: يا آنسة ندى سبق أن تحدثت معي في نفس الموضوع، ألف مرة، وألف مرة أخبرتك بأنني لا أرغب في الزواج، منك أو من غيرك. متى سوف تفهمين هذا يا آنسة ندى؟ وعذرا. أتمنى ألا أكون قد جرحت عواطفك.

الآنسة ندى: لا أبدا. أنت لم تحرج عواطفي، لأنك صريح وأنا أحب الصراحة. ومع ذلك، سوف أبقى ألاحقك بطلبي، ألف مرة أو مليون مرة لا يهم. المهم أن يأتي يوم تقول لي فيه: موافق. ساعتها سوف أطير من الفرح. أما الآن فلدي اقترحان.

مراد (متذمرا): ما هما يا آنسة ندى؟

الآنسة ندى: الأول يقضي أن نمارس نوعا من التقشف، فتقضي يوم العيد معي، أو أقضيه معك. والثاني أن أتكلف أنا بالمصاريف، وبالأشياء الأخرى، فنطلب من السي مشواط عطلة لخمسة عشر يوما، ونسافر خلالها أنا وأنت في رحلة سياحية إلى تركيا.

مراد (وهو يسيطر على انفعالاته): يا آنسة ندى جازاك الله خيرا. لا تفعلي شيئا من ذلك.

الآنسة ندى: لن أفعل. الآن فهمت. أنت تريد أن نتقشف ونقضي يوم العيد معا.

مراد: يا آنسة ندى في يوم العيد سأكون.. أقصد.. ربما لن أكون.. قد أكون.. ريثما يأتي يوم العيد سوف تتبين بعض الأمور.

الآنسة ندى: مثل ماذا؟

مراد: في يوم العيد قد لا أكون.

الآنسة ندى (تضع يديها على خديها وتكاد تولول): حبيبي. تنوي أن تنتحر في يوم العيد؟

مراد: لا أبدا. يجب أن تطمئني عليّ يا آنسة ندى.

الآنسة ندى: أنا أطمئن عليك يا مراد؟ لن أطمئن عليك إلا وأنت زوجي وأنا زوجتك. وحتى في تلك الحالة، فلن أطمئن عليك، لأنني

لن أصدق، حتى وقد أصبحت زوجي فلن أصدق، فكيف أطمئن؟

مراد: لديّ شغل. أناس ينتظرون بملفاتهم في قاعة الاستقبال.

الآنسة ندى: معك الحق. أنا أيضا لديّ شغل في مكتبي.

المشهد 30: داخلي. ليلا. شقة مراد

(مراد يجلس أمام مائدة عليها لحم غنم فوقه برقوق مُعَسَّلٌ ولوز وبيض مسلوق، وسلاطات، وقارورة نبيذ.)

مراد (أوف): آكل أم لا آكل؟ أشرب أم لا أشرب؟ اليوم عيد. بعد أن صمت لله شهر رمضان ها أنا في يوم العيد. أي عيد هذا؟ ها الطعام والشراب وها أنا أسأم الطعام والشراب. أقول لا شيء. لا أحد.

2

خرجت من ذلك العالم. وجدت نفسي أقف بنفس الطول الذي أدركني وأنا كالمسمار. مسمار لا يمكن أن يندق في أي مكان. هو أنا. ليس مسمارا، ربما هو وتد من الأوتاد يضرب في باطن الأرض، لكن العجيب أنه، أنا، جسدي وهو ينغرس في الأرض ويرتفع في السماء.

احترت في أمري. أمام الفراغ الذي أخذت أعيشه أخذت أتذكر بعض الأشياء. تذكرت أنني قد أقمت في عمارة الحاج السحنوني منذ أكثر من عشرين عاما، في شقة تقع بالطابق الثاني، رقم 6، وذلك بعد أن ضاقت بي الْمِعْزَبَةُ التي كانت تقع على سطح إحدى عمارات (زنقة كينيا)، القريبة من (الأطلس)، فقد وجدت في إدارة المحافظة العقارية من أرشدني إلى الحاج السحنوني. ذهبت إلى

محل بيع الأخشاب الذي يملكه بـ(باب الفتوح). قابلني رجل بدين يرتدي بذلة عصرية أنيقة، لهجته فاسية، طرحت معه موضوع كراء شقة سمعت أنها فارغة في عمارته التي تقع في (شارع قاسم أمين). سألني:

ـ ما عملك؟

أخبرته بأنني أعمل في إدارة المحافظة العقارية. تفرَّسني بنظراته. سألني:

ـ متزوج؟

قلت له:

ـ في الطريق.

كنت أعلم أن لا طريق لي إلى الزواج، ولكني أردت ألا أُعَسِّرَ موضوع كراء الشقة. سألني:

ـ لك سيارة؟

قلت:

ـ هي أيضا في الطريق. سوف تأتي مع الزواج إن شاء اللـه.

قال لي:

ـ خذ سيارة تاكسي واذهب إلى العمارة. ستجد زوجتي لالة

شمس الضحى في الشقة التي نسكنها بالطابق الأول، وهي سوف تُطْلِعُكَ على الشقة الفارغة.

سألته:

ـ ومبلغ الكراء؟

قال:

ـ بعد أن ترى الشقة وتعجبك، سوف تخبرك لالة شمس الضحى بالمبلغ، وستعطيك عقد الكراء لتصادق على توقيعك عليه، وعندما تُرجعه إليها سوف تأخذ منك مبلغ شهرين مقدمين وتعطيك المفتاح.

شكرته. هممت بالذهاب فقال لي:

ـ ما زال السي مشواط هو مدير إدارة المحافظة العقارية؟

قلت له:

ـ ما زال.

قال:

ـ سأحتاج إليه، وربما لن أحتاج إليه. سأحتاج إليك أنت في ملف تحفيظ أرض اشتريتها.

قلت:

ـ بقدر ما أستطيع.

خرجت من محل بيع الأخشاب. ركبت الحافلة إلى (ساحة فلورانسا) ومنها مشيت إلى (شارع قاسم أمين). صعدت الأدراج إلى الطابق الأول. قرعت الجرس. فتحت الباب سيدة أربعينية بملابس النوم، ظهرت كأنها قد نهضت من نومها للتو. صدرها شبه عار، وشعرها غير مُصَفَّف، وبمجرد ما رأتني تراجعت. تفحصتني بنظراتها وقالت:

ـ أرسلك الحاج؟ قبل حين تكلم معي بالهاتف. انتظر قليلا.

وقفت أنتظر عند الباب. خرجت وهي ترتدي روبا رومانيا شَدَّتْهُ إلى خصرها، كما بدا شعرها مسرحا ورائحة عطرها تُضَوِّعُ المكان. قالت لي:

ـ ادخل.

ترددت لحظة فقالت لي:

ـ لست وحيدة في البيت، معي الخادمة وابنتي قمر. لو كنت وحيدة لما طلبت منك أن تدخل.

دخلت الشقة الواسعة التي تَشْغَلُ الطابق الأول للعمارة بأكمله. أثاث رفيع وديكورات في كل مكان. قاعتان للجلوس متقابلتان، أجلستني في إحداهما وجلست بقربي. قالت:

ـ أنا شمس الضحى، زوجة الحاج. وأنت ما اسمك؟

قلت:

ـ مراد. مراد الأشقر.

قالت:

ـ سوف نصبح جارين، متزوج؟

قلت لها:

ـ في الطريق.

قالت:

ـ مبروك. زوجتك ستكون صديقتي.

ثم قالت لي:

ـ تعال نصعد إلى الشقة لكي تراها.

صعدنا إلى الطابق الثاني ترافقنا ابنتها قمر. صبية في العاشرة من عمرها. داعبتها ببعض الدعابات فابتسمت. فتحت شمس الضحى باب الشقة بالمفتاح، ثم وَسَّعَتْ لي لكي أدخل وبقيت هي وابنتها عند الباب. قاعة استقبال وغرفتان وصالة كبيرة للضيوف، وحمامان يستقل كل واحد منهما عن الآخر، ومطبخ واسع وشرفتان إحداهما تطل على (جبل أنْغَاتْ) والأخرى تطل على وَسعة داخل العمارة. عندما خرجت من الشقة قالت لي:

ـ لماذا لم تأت بعروسك لترى الشقة؟

قلت:

ـ سوف تعجبها ولا شك.

عند باب شقتها طلبت مني أن أنتظر. دخلت ثم عادت وهي تحمل في يدها عقد الكراء، سلمته لي وقالت:

ـ اذهب إلى البلدية لتصحيح الإمضاء ثم عد إليّ.

سألتها:

ـ ومبلغ الكراء؟

قالت:

ـ ألف درهم في الشهر.

أخذت منها العقد ونزلت الأدراج. سرت إلى مقر البلدية وأنا أفكر في أن أجري الشهري هو ثلاثة آلاف درهم، سوف يتبخر منه الثلث، زيادة على أجرة الماء والكهرباء. لكني أمضيت على العقد وعدت به إلى شمس الضحى. قرعت جرس الباب. خرجت. تسلمت مني نسخة من العقد ومبلغ ألفي درهم، شهرين من الكراء مسبَّقين. أعطتني مفتاح الشقة. عندما أردت أن أذهب أوقفتني وأخذت تتفرس في وجهي ثم سألتني:

ـ ومن أنت من أولاد الأشقر؟

ـ قلت والدي هو الحاج حميد الأشقر، كان رَحْوِيًّا، ورحاه كانت في واد الصوافين.

هتفت:

ـ عرفته. مات زمان. اللـه يرحمه. خالتك هي لالة فخيتة؟

قلت:

ـ هي نفسها.

ـ زوجها السي الفاطمي. الزلايجي الذي كان يرسل المعلمين إلى السعودية؟

ـ هو نفسه.

هتفت بي وقالت:

ـ إيوا شف آ مراد. أنا وأنت من دم ولحم.

استغربت ما تقول وسألتها:

ـ ماذا تقصدين؟

قالت:

ـ ألم تسمع بأن والدك الحاج حميد له أخت اسمها لالة هبة؟

قلت:

ـ كانت خالتي لالة فخيتة قد حدثتني عنها، لكني لم أرها مرة واحدة في حياتي.

قالت:

ـ هي عمتك، وهي أمي. أنت ابن خالي وأنا ابنة عمتك يا مراد.

من فرط فرحتها كادت تعانقني. طلبت مني أن أدخل. بعد إلحاح منها دخلت. أجلستني في الصالون. وقفت أمامي والدموع تطفر من عينيها. بقيت ابنتها قمر تتطلع إليها وهي مبهوتة، ثم قالت لي وهي تكفكف دموعها:

ـ أنت ابن خالي! خالي المرحوم أنا أيضا لم أره، كما أنت لم تر عمتك. وخَالاَيَ سليمان وعبد المجيد، هما عَمَّاك، ألا تعرفهما؟

ـ لا أعرفهما.

ـ حرام عليهما. جرت العادة بأن الكبير في العائلة يسأل عن الصغير الذي يكون من دمه.

لم أجد ما أرد به على كلامها. اتجهت نحو الهاتف ورفعت السماعة. أدارت بعض الأرقام. قالت:

ـ الحاج. هل تعرف من هو مراد الذي أرسلته لكراء الشقة؟ هو ابن خالي المرحوم الحاج حميد الأشقر.

- .....

ـ هو الآن معي في البيت. أنا تيقنت من أنه ابن خالي. قلت لك تيقنت آ الحاج.

- .....

ـ لا ليس نصابا. وقع على العقد وصادق على التوقيع. مسكين ابن خالي، شاب درويش، لا يبدو عليه أي نصب أو احتيال.

- .....

ـ قلت لك هو ابن خالي، المرحوم الحاج حميد، الرحوي الذي كانت له رحى لطحن الزرع في واد الصَّوَّافِين.

- .....

ـ هو زوج خالته. الفاطمي الزلايجي الذي كان يرسل العمال إلى بلدان الخليج.

- .....

أغلقت الخط. طلبتْ من الخادمة أن تعد الفطور. اعتذرتُ لها بأنني قد أفطرت. ذهبت إلى المطبخ. أتت منه بنفسها بصينية عليها ثلاثة أكواب من عصير البرتقال مشعشعة بالثلج. قدمت لي كوبا، وآخر لابنتها قمر، وأخذت الثالث. أرادت أن تطيل في الحديث. أخبرتها بأنني ملزم بأن أعود إلى عملي في إدارة المحافظة العقارية،

فقد أخذت وقتا وجيزا من هذا الصباح لكي أنجز أمر كراء الشقة.

غادرت الْمِعْزَبَةَ بغرفتها الوحيدة وجدرانها المشققة ومرحاضها المكسور المواسير إلى شقة فسيحة مكونة من غرفتين وصالون ومطبخ وحمامين منفصلين، وشرفتين. دخلتها بأثاث اشتريت أغلبه من (الجوطية) كأثاث مستعمل، لم أستطع به أن أملأ الغرفتين والصالون. بعد زيارات لشمس الضحى لشقتي صحبة ابنتها قمر، انكشف أنني لست متزوجا ولا في الطريق إلى الزواج. مضت سنوات إلى أن جاء يوم قرعت فيه قمر جرس شقتي وقد أصبحت شابة حيوية رائعة الجمال. عند الباب قالت لي:

ـ السي مراد، أنت مدعو للسهر معنا الليلة في البيت. قلت لها:

ـ وما المناسبة؟

ـ أخي عمر تخرج في كلية الطب، وبابا سيقيم له حفلا بالمناسبة.

أبهجني أن أرى قمرا وقد أصبحت شابة منفوشة الشعر، تمتلك الجرأة في الكلام، وتقوم بحركات حيوية وهي تتحدث. عرفت أنها، بخلاف والدتها، من جيل جديد تغيرت طريقته في الكلام واللباس والتفكير ربما. طلبت منها أن تنتظر. فرحا به أهديتها قلما فضيا نفيسا كنت أحتفظ به. شكرتني. انسحبت وهي تقوم بحركات خفيفة وكأنها ترقص.

في تلك الليلة أقيم حفل كبير حضره جوق مكون من عدة عازفين ومعهم المغني الشعبي طاهور، أول ما طلع على الحاضرين مع جرة الكمنجة والإيقاعات المرتفعة بدأ يرقص بحركات سريعة وهو يغني. لاقى كثيرا من الإعجاب، وخاصة من نساء حاضرات في الحفل ومن معهن من الصبايا، أما الرجال فأغلبهم كانوا يلتزمون بالوقار، يتابعون الأغنية باهتمام ولكن وجوههم لا يتغير سمْتها. لا ابتسام ولا تَهَلُّل ولا حركة باليدين ولا إشارات. رجال لم أعرف من هم، وحسبتهم من أسرة الحاج السحنوني.

لاحظت أن المحتفَى به في هذه السهرة، عمر، يجلس في مكان خاص، يبدو قصيا عن حلبة الغناء. عندما تطلعت إليه رآني وأشاح بوجهه. ما كنت أريد شيئا غير أن أهنئه بتخرجه في كلية الطب، وما دام قد أشاح عني بوجهه فأنا لم أقترب منه، لأنه أغلق باب قلبه في وجهي. حسبت ذلك نوعا من الإعجاب بالنفس، وإحساسا بالتفوق على الآخرين، فكأن من يوجدون من الحضور في حفل الاحتفاء به هم رعاع وما هو إلا متعال على الرعاع. لعنت الشيطان وقلت لنفسي لعلي أبالغ في الأمر، فعمر في مكانه الذي اختاره ليجلس فيه، بعيدا عن الصخب، ولعله في وقت آخر يكون طلق المحيا مستبشرا ومقبلا على الآخرين، وإلا فكيف سيكون طبيبا يلتقي كل يوم مع مرضاه؟

قررت ألا أشغل بالي بعمر، فقد كانت قمر تأتي من حين لآخر لتجالسني فأتحدث معها حديثا يُبْهِجُنِي ويبهجها. وأحيانا نتضاحك، فترتفع قهقهاتنا. أرى عمرَ ينظر نحونا وقد لفت نظره ما كنا فيه أنا وأخته قمر، ثم يصير نظره خزرا، ويصرف نظره عنا.

بعد أن تناول عموم المدعوين الشاي والحلويات انسحبوا وانسحب أفراد الجوق فصفت ثلاث موائد بدا معلوما أنها لعشاء أفراد العائلة. جاءت شمس الضحى فأمسكتني من يدي وأخذتني إلى واحدة من تلك الموائد، فوجدت إلى جانبي الأيمن امرأة سبعينية بمجرد ما جلست وتبادلت معها النظر أخذت تتفرس في ملامحي. وإلى يساري وجدت رجلين مسنين يرتديان جلبابين أبيضين وعلى رأسيهما طربوشان أحمران، هما الآخران ظلا ينظران إليّ بنظرات فاحصة، وأنا أتجاهل نظراتهما. بشيء من الفطانة تنبهت إلى أن المرأة هي عمتي لالة هبة، وأن الرجلين هما عمي سليمان وعمي عبد المجيد. أصبت بشيء من الارتباك، فقد كانوا ثلاثتهم يمارسون عليّ نوعا من العيافة والقيافة، ربما لإدراك الشبه بيني وبين والدي الحاج حميد الأشقر. ضاقت بي اللحظات. أحسست بقلق شديد وتبرم من الجلسة. جاء من وضع السلاطات على المائدة فما تناولت منها إلا قليلا. ثلاثتهم، هبة وسليمان وعبد المجيد يتناولون من السلاطات وأعينهم عليّ وهم يتبادلون النظرات. أحسست بالضيق. فكرت في أن أقوم من مائدة الطعام لكني وجدت أن ذلك أمر غير لائق. صبرت لبعض

الوقت وأنا أتجاهل نظراتهم إليَّ وأنظر إلى الفراغ. جاء من وضع على مائدتنا خروفا كاملا مشويا. انشغل الثلاثة بالأكل ومع ذلك لم تفارق نظراتهم التطلع إليَّ. أكلت قليلا. من حسبته عمي عبد المجيد قدم لي قطعة جيدة من لحم الخروف المشوي وقال لي:

ـ كل. كل يا ابن أخي.

رفعت يدي وتركت القطعة أمامي في الصحن دون أن أتناولها. قال من حسبته سليمان لمن حسبته عبد المجيد:

ـ أكله قليل مثل والده الحاج حميد اللـه يرحمه.

أيقنت من قرابتي العائلية لهما، فهما عمي سليمان وعمي عبد المجيد. قالت من حسبتها عمي:

ـ يا أخويّ، الولد يشبه أباه، كأنه حميد أخونا وقد بعثه اللـه حيًّا. سبحان اللـه.

قال لها سليمان:

ـ لم يفتني أن ألاحظ ذلك. كنت أتفرس في وجهه فأرى أخي أمامي اللـه يرحمه.

وقال عبد المجيد:

ـ إن كان قد عرف أنني عمه وأن سليمان عمه وأن أختنا هبة عمته، فما باله لا ينطق، ألا يريد أن يعرفنا؟

تجاهلته تماما، وكأني لم أسمع ما قال. قالت له أخته هبة:

ـ اتركه يتعشَّى. الصدمة عليه قوية، فهو في أول يوم من معرفته بنا.

أتى من رفع صحن الخروف ثم وضع صحنا آخر به دجاج محمر. نهضت وأنا أقول لمن معي على المائدة:

ـ الحمد للـه. أنا شبعت.

أمسكني من يدي عمي عبد المجيد وأجلسني. قال لي:

ـ يا ولدي حتى وإن شبعت فلا تقم من مائدة الطعام حتى يشبع غيرك. ستأتي الفواكه لتتناول منها.

عدت إلى جلوسي وأنا نادم على ما بدر مني من تهوّر بذلك الانسحاب، فقد أعطيت لعمي عبد المجيد فرصة ليعلمني آداب الطعام وكأني لم أتعلمها في بيت زوج خالتي السي الفاطمي. جلست صامتا، أختزن الكثير من التوتر حتى لا يظهر عليَّ. جاء من أخذ صحن الدجاج المحمر ووضع في مكانه صحن الفواكه. تناولت إجاصة، وبينما أنا أقطعها بالسكين قدم لي عمي سليمان خوخة فأخذتها منه وتناولتها. استحضرت ما قالته لي خالتي لالة فخيتة وأنا صغير عن الدار التي تقع في (رأس الجنان) والتي استولى عليها عمي سليمان، كما استولى عمي عبد المجيد على الرحى التي كانت توجد في (واد الصوافين).

جاءت شمس الضحى وأخذتني من يدي بيد ووالدتها بيد أخرى وقالت لنا:

ـ تعاليا معي إلى غرفة أخرى.

عندما جلسنا قالت لي:

ـ هذه هي عمتك يا مراد.

تناسيت كل شيء. أقبلت عليها. قَبَّلْتُ يدها وجبينها. قالت لي:

ـ اللـه يرضي عليك يا وليدي.

قلت لها:

ـ بعد أن توفي والدي ووالدتي، وتوفيت خالتي وزوجها السي الفاطمي، لم يعد لي من شجرة العائلة.

قالت لي:

ـ لا تقل هذا الكلام يا ولدي. أنا وعَمَّاكَ سليمان وعبد المجيد عائلتك.

في تلك اللحظة ظهر عَمَّاي. أقبل عليَّ سليمان وهو يمد يده للمصافحة، وقال لي:

ـ أهلا بولْد أخينا المرحوم الحاج حميد. أنا عمك سليمان، وهذا عمك عبد المجيد، وهبة أختنا هي عمتك.

صافحتهما. لم أجد ما أقول. جاءت شمس الضحى بأنواع العصير ثم أتت بصحن الحلويات. جلست بيني وبين والدتها. أقبل علينا الحاج السحنوني. قال لي:

ـ يا ولدي مراد، سعادتي في هذا اليوم الذي اجتمع فيه الشمل لا تحدها سعادة.

شكرته وأنا أعرف أن أي شمل لن يجتمع، وأن هذا اللقاء مع عمتي وعَمِّيَّ سوف يكون عابرا، فقد فات الأوان.

3

حادثة وقعت لي في العمارة، فقد جاء يوم قرع فيه جرس باب شقتي الحاج السحنوني ومعه شمس الضحى وهما في حالة قلق. طلبت منهما أن يدخلا. بمجرد أن استرجع الحاج أنفاسه قال لي:

ـ السي مراد، مضت سنوات وأنت تسكن في العمارة، تدفع أجر الكراء بانتظام، ورغم أنك لم تتزوج، فنحن لم نر منك إلا الخير.

قلت له:

ـ وهل هناك من مشكلة آ الحاج؟

قال:

ـ الجار عبد المولى يشكو منك.

ـ مني أنا؟

ـ يقول إنك قد اعتديت على ابنته القاصر، في أدراج العمارة.

ـ أنا؟

تذكرت اللحظة. قبل يومين كنت أهبط أدراج العمارة. التقيت بفتاة في الرابعة عشر، مُحَجَّبَة، وكانت تصعد وأنا أنزل. أَوْسَعْتُ لها مكانا لكي تمر. أخذت تقوم ببعض الحركات الغريبة، تشهق، تميل بين الجدارين. لم تصعد. توقفت. شهقت شهقتين. هبطت كالهاربة وهي تتظاهر برعب أصابها. وَقفتُ لحظة أستغرب حركات تلك الفتاة، ثم نزلتُ الأدراج. وجدتها في ردهة العمارة وهي تشهق وتغطي وجهها بكفيها كأنها لا تحب أن تراني. حسبتها مخبولة. لم أبال بشأنها. ذهبت إلى حال سبيلي. نسيت الأمر. لكني الآن أتذكره. وصفت للحاج وشمس الضحى ما وقع بالتفصيل. تبادلا النظر. قالت لي شمس الضحى:

ـ تلك ابنة عبد المولى، وهي تقول إنك في تلك اللحظة قد حاولت اغتصابها فهربت منك.

أصابني الذهول. أكدت لهما ما حدث. قال لي الحاج:

ـ صدقناك آ السي مراد. لكن والدها عبد المولى صدق ما قالته ابنته، وهو يُهدد برفع شكاية إلى وكيل الملك.

قلت:

ـ هل وصل الأمر إلى هذا الحد؟

قال لي الحاج:

ـ هذا هو واقع الأمر. عبد الرفيع أخو عبد المولى يتضامن معه، ويصدق هو الآخر ما قالته الفتاة. علينا أن نفكر في حل.

قالت له شمس الضحى:

ـ أنا سوف أتصرف بمعرفتي في هذا الموضوع.

غادرا الشقة. تركاني في حيرة وقلق. لم أنم في تلك الليلة. بقيت أفكر في الباطل الذي نزل عليَّ. استرجعت لحظة لقائي بالفتاة المحجبة على أدراج العمارة عدة مرات، فما وجدت أن شيئا بَدَرَ مني يجعلها تفكر في أنني قد حاولت اغتصابها. وجدت عدة تفسيرات للأمر، أولها أنها كانت هي التي تدعوني إلى اغتصابها على الأدراج، وأنني عندما لم أستجب لجأت إلى اتهامي باغتصابها. والثاني أنها قد صنعت هذا السيناريو من أجل أن تعلن عن أن لها جسدًا، وأن هذا الجسد يحتاج إلى رجل، وأن هذا الرجل لا يمكن إلا أن يكون مغتصبا، فهي صورة الرجل كما تمثلتها تلك الفتاة. والثالث أنها في سن البلوغ، ولعلها لم تحظ من فتى في مثل سنها بالتفاتة عاطفية، فقررت أن تعلن أن لها جسدا، وبهذه الطريقة

البشعة، التي جعلت مني ضحية. والرابع أنها قد سمعت من أسرتها أنني عازب، فتصورت أن العازب لا يمكن أن يكون إلا معتديا على بنات العمارة، ولو على الأدراج.

هل من تفسيرات أخرى؟

لا أعرف، فأنا لست محللا نفسانيا ولا عالما سوسيوجيا، وكل ما أعرفه أن فتاة تربى في كنف أسرة محافظة، إن لم أقل تعاني من مرض التطرف الديني، فلا بد أن تكون فتاة معقدة بسبب التربية القائمة على الصورة التي تتلقّنها الفتاة عن الرجل، وبسبب الحرمان من تربية متوازنة تقوم على الاختلاط بين الجنسين.

أبهذا تكون تلك الفتاة الصغيرة قد أهانتني ولطخت سمعتي في العمارة في التراب؟

قد يكون هذا أو غيره من الأسباب لكن الفتاة أساءت إليَّ أَبْلَغَ إساءة، وأنا لا دليل لديّ أدافع به عن نفسي.

في الغد جاءت إلى شقتي شمس الضحى ومعها ابنتها قمر. قالت لي:

ـ البنت تصر على أنك أردت اغتصابها في أدراج العمارة، ووالدها عبد المولى يشحذ سكينا يريد بها أن يطعن قلبك.

قلت:

ـ وما الحل؟

قالت:

ـ أن تغادر العمارة إلى أن نتدبر حلا لهذه المشكلة.

قلت:

ـ وإلى أين سوف أذهب؟

قالت لي قمر:

ـ إلى فندق ريثما تهدأ الأمور ويظهر الحق من الباطل.

أقمت في (فندق إكسلسيور) لعدة أيام ثم جاءتني قمر إلى الفندق وقالت لي:

ـ عد إلى شقتك آ السي مراد.

قلت لها:

ـ أما زال عبد المولى يشحذ سكينه لكي يطعن قلبي؟

ابتسمت وقالت:

ـ لن يحدث شيء من ذلك. ولم يعد ثمة من مبرر لبقائك في الفندق. ستعود إلى شقتك وأنت مطمئن. والدتي قامت بالواجب، والمشكلة حلت نهائيا.

ـ كيف؟

ـ تعال نغادر الفندق. سوف أشرح لك في الطريق.

أخذت حاجياتي من الفندق وسوَّيت الحساب مع موظف الاستقبال. ظل يتطلع إلينا بنظراته بعد أن كان يسترق السمع إلى ما دار بيننا من حديث. سألني:

ـ ابنتك؟

لم أرد عليه. غادرنا الفندق. في الطريق شرحت لي قمر أن والدتها قد أحرجت الفتاة بمحضر والدها عبد المولى ووالدتها بعدة أسئلة:

ـ كيف حاول أن يغتصبك مراد؟

قالت الفتاة:

ـ حاول.

ـ كيف حاول؟ هل لمس جسدك؟

ارتبكت الفتاة وقالت:

ـ لا، لم يلمسه.

ـ ولماذا تقولين إنه قد حاول أن يغتصبك؟

ـ كان هابطا على الأدراج فأرعبني.

ـ هل أرعبك أم أنه حاول أن يغتصبك؟

ـ هما معا.

ـ هل مَدَّ يده نحوك؟

ـ لا.

ـ هل أحاط جسدك بذراعيه؟

ـ لا.

ـ هل قَبَّلَكِ عُنْوَةً؟

ـ لا.

ـ وإذن كيف حاول أن يغتصبك؟

ـ من نظرته عرفت أنه يريد أن يغتصبني.

ـ من نظرته فقط؟

ـ فقط.

ـ عندما كنت تصعدين الأدراج كان هو ينزل، أليس كذلك؟

ـ هذا ما حدث.

ـ ولماذا تراجعت عن الصعود وأخذت تنزلين؟

ـ لأنه أرعبني.

ـ هل أرعبك أم حاول أن يغتصبك؟

ـ أرعبني.

قالت لي قمر إن والدتها شمس الضحى قد وجهت اللوم لوالدي الفتاة، وخاصة إلى عبد المولى، فقد وبَّخته توبيخا شديدا، وهددته بأن مراد سوف يرفع عليه قضية شرف، وأن كل سكان العمارة يشهدون بحسن أخلاق مراد، فضلا عن اعترافات ابنته التي تراجعت فيها عن اتهامه بالاغتصاب، وزيادة على التهديد بالقتل الذي أعلنه أمام بعض السكان وهم شهود عليه. بذلك التهديد أخضعته. أصبح يرضى بأن يقدم الاعتذار. قالت لي قمر:

ـ هو يقبل بأن يقدم لك الاعتذار، أمام كل سكان العمارة.

قلت لها:

ـ أنا لست في حاجة إلى اعتذاره، ولا إلى ما هددته به والدتك من رفع قضية شرف. أنا يا قمر في حاجة إلى النسيان.

ـ ستنسى آ السي مراد.

عدت إلى العمارة أنا وقمر. جاءت والدتها. أعادت عليَّ شمس الضحى ما أخبرتني به قمر، ثم ضحكت وقالت لي:

ـ كيف قضيت أيامك في الفندق؟

قلت:

ـ نهارات وليالٍ سوداء.

دعتني لتناول طعام الغداء معهم ولما حضر الحاج قال لي:

ـ حرام عليه. خفيف الشاشية. كان عليه أن يتحقق قبل أن يعلن عداوته. قال صلّى اللـه عليه وسلم: ليس الشديد بالسرعة، وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب. هؤلاء هم أصحاب اللحى، يظهرون بميزان العقل ولكن طيشهم يفضح أن لا عقول لهم.

مضى شهر على الحادثة وأتى عيد الأضحى. في صباح يوم العيد خرجت من عمارة الحاج السحنوني. سرت على غير هدى. لم أكن أعرف أية جهة أقصد، فلم يكن لي هدف من ذلك الخروج سوى أن أغيب عن العمارة حتى لا أحرج أحدا، وخاصة الحاج وأسرته، بأنني أقضي يوم العيد وحيدا، وهو ما سوف يجعل شمس الضحى تلح على أن أكون حاضرا معهم، من الفطور إلى ذبح الكبش إلى تناول الشواء.

كنت محرجا بوضعي كعازب في العمارة، حيث إنني لا أستطيع أن أذبح كبشا وأنا لا أستطيع لوحدي أن أقوم بما بعد الذبح. وإحراجي الحقيقي كان من أن تدعوني لالة شمس الضحى ابنة عمتي لأن أقضي مع الأسرة يوم العيد. قررت أن أختفي. خرجت من الشقة. غادرت العمارة وأنا أسمع بعبعة الكباش التي تنتظر

الذبح. أخذتني خطواتي إلى (الْوَاجْرِيين). وصلت إلى (مقبرة القبب). دخلت المقبرة. شعرت بأنها المكان المناسب الذي يمكن أن أختفي فيه عن الأنظار.

يوم العيد في مقبرة!

وما له؟

الأماكن لا فرق بينها سوى ما يمنحها الناس من معانٍ.

الأماكن لا معنى لها وهي تستمد معانيها من وجود الناس بها.

لا مديح ولا ذم للأماكن، ولا تقديس ولا تدنيس لها، إلا ما نمنحه نحن لها من معان.

وها هي (مقبرة القبب)، القريبة من (باب الفتوح). الشمس في كبد السماء. بمعنى أن وقت الضحى قد فات، والضحى ضحوة النهار، وما سميت الأضحية أضحية إلا لأنها تُذبح في وقت الضحى. إذن فقد ذبحت كل الأضاحي. عيد مبارك سعيد لكل أهل فاس ولكل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. لا يسعني إلا أن أبارك العيد. أما هذه القبور فلا عيد لها. كفى موتاها ما عاشوه من أعياد. كفاه ما جاءت به الأعياد من فرح وحزن، فقد عاشوا كل ذلك، وماتوا. في موتهم لا يعرف أحد كيف تحللت أجسادهم وذَرَت عظامهم وصاروا إلى العدم.

هل أموت وأصير الى العدم؟

قبل أن أموت، وأنا في (مقبرة القبب)، سرت بين القبور أبحث عن قبريْ والدي، الحاج حميد الأشقر ولالة عيشة كيرانة. سرت أقرأ الشواهد فلم أجد. بحثت ولم أجد. تجولت بين القبور وأنا أقرأ الأسماء وتواريخ الميتات على الشواهد الرخامية. مشيت بين القبور أقرأ أسماء الموتى على الشواهد، وكأني أجول بين تفاصيل حيوات مضت، منها حياة والدي الحاج حميد الأشقر ووالدتي عيشة كيرانة. بحثت ولم أجد. داهمتني نوبة بكاء. بكيت حتى بللت تراب أحد القبور بدموعي.

تجاوز النهار منتصفه. يكون كل أهل فاس قد عَيَّدُوا بذبح خرافهم وكباشهم، وأنهم قد تناولوا شواءهم، فلم يبق من يوم العيد إلا تعب ما جاء بعد الذبح. أوساخ الطرقات سوف تجعل عمال النظافة في الغد في يوم عسير. وإذن فيمكنني أن أعود إلى مستقري.

غادرت المقبرة. مشيت صاعدا إلى أن وصلت إلى (شارع قاسم أمين). وجدت شوائين على ناصية الشارع قد أشعلوا النار وأخذوا يشوون رؤوس وأكارع الأضاحي، كما وجدت تجار الجلود قد راكموا على الأرصفة كميات كبيرة من جلود الأضاحي.

دخلت شقتي متسللا حتى لا يتفطّن إلى وجودي أحد في العمارة. أخرجت من مخبأ الثلج سمكة كبيرة تكفي لأربعة أشخاص أو

أكثر، كنت قد أعددتها في السابق وحشوتها بالأرز وقطع الفلافل والزيتون الأخضر والليمون الْمُصَيِّر مع التوابل. سقيتها بشيء من الزيت وعصير الليمون. أدخلتها إلى الفرن. حين أخذت السمكة تُنْضَجُ في الفرن فاحت رائحتها. خشيت أن تفضحني الرائحة فيعلم الجيران أنني في يوم عيد الأضحى، وبخلاف الناس جميعا، أطبخ سمكا. سمعت جرس الباب، وعندما فتحته وجدت عبد المولى يحمل في يده صينية عليها شواء وسلاطات.

وقفت أمامه وجهًا لوجه.

ابتسم لي. قال ويده ممدودة إليّ بالصينية:

ـ عيدك مبارك سعيد آ السي مراد.

وجدتني أعبس في وجهه دون إرادة مني. رددت عليه:

ـ عيد سعيد.

قال لي:

ـ تذوق من غداء عيدنا.

ودفع الصينية نحوي. لم أمد يدي لأستلمها منه. بقيَ واقفا ينظر إليَّ. قلت له:

ـ أشكرك آ السي عبد المولى. فقراء حيِّنا أولى مني بصدقتك.

تراجعت نحو الوراء. عرف أنني سوف أغلق الباب في وجهه فتراجع ثم أغلقت الباب.

ذهبت إلى المطبخ لأحرج سمكتي من الفرن، وأنا أموت من الجوع.

4

في ذلك المساء الذي زارتني فيه قمر السحنوني في شقتي. كانت شديدة الارتباك مخطوفة النظرات، وجهها خال من الزينة وشعرها لم تعتن بتسريحه كما هي عادتها. ترتدي منامة قرنفلية اللون وتنتعل مَشَّايَةً صفراء. فهمت من هيأتها وسحنتها أنها متوترة الأعصاب، وربما قد هاجت رياحها فجاءتني مضطربة النفس والأعصاب. أردت أن أَرْأَفَ بها، فهي فتاة طيبة القلب، ولا تستحق أن ينالها مكروه.

جلستْ. وضعت رأسها بين كفيها. حسبتها سوف تغرق في نوبة من البكاء. قلت لنفسي إن بكت فسوف تستريح وينطلق لسانها لتحكي لي عما بها. لكنها لم تبك. تطلعت إلى المائدة التي كانت عليها كتب وجرائد كنت أقرأها، من بينها كتاب عن "العذرية

والثقافة، دراسة في أنثروبولوجيا الجسد". عندما أمسكت بذلك الكتاب تركتها وذهبت إلى المطبخ. أتيت بكوب عصير برتقال بارد من الثلاجة وقدمته لها. وجدتها تتصفح الكتاب. قالت لي:

ـ السي مراد هل قرأت هذا الكتاب؟

قلت لها:

ـ قرأت منه بعض الفصول، وخاصة الفصل الذي يتحدث عن الختان كآلية من آليات ضبط الجسد.

قالت:

ـ وماذا يقول الكتاب عن العذرية، هل يتحدث عن البكارة؟

سألتها:

ـ ولماذا تهتمين بهذا الموضوع؟

قالت:

ـ من أجله جئت لأتحدث معك.

سألتها:

ـ هل أنت يا قمر تعانين من مشكلة؟

قالت:

"أنا آ السي مراد كما تعرف مخطوبة لخطيبي نعيم، والخطوبة

طالت. والدي الحاج يتضايق من زيارات نعيم، وهي ليست زيارات عابرة، فهو في بعض الليالي يبيت معنا في البيت، ووالدي لا يقبل هذا الأمر. تقول له والدتي إن الخطوبة تجيز للخطيب أن يعاشر خطيبته، ويقول لها من دون صداق مكتوب من قبل عدلين لا تَحِلُّ معاشرة الخطيب لخطيبته. يمكن أن يراها وأن تراه ولكن لا يمكن أن يبيتا في غرفة واحدة، أحيانا يغضب والدي ويهدد بمغادرة البيت. تصيبه نوبات قلبية ويتحول البيت إلى مناحة. وأنا كما تعلم آ السي مراد أعمل في وكالة للأسفار تابعة للخطوط الملكية المغربية، ووالدي بعد أن كتب الشقة رقم 12 باسمي أذن لي بأن أستخلص أجر كرائها.

أما نعيم فهو في طريقه للبحث عن عمل، ربما بتدخل من والده الذي يعمل عميدا للشرطة في (مقاطعة عين قادوس)، مع أنه لا يتوفر على أية شهادة، وهو يبتز أموالي إلى أن علم والدي بأنه يقامر في أحد الأندية، فزاد غضبه وطلب مني أن أفسخ الخطوبة. لكني محتارة آ السي مراد، ففي إحدى الليالي وقع ما وقع. استسلمت له وما كنت أحسب أنه سوف يفتض بكارتي، لكنه فعل بالقوة، فدفعته عني. في الغد طلبت منه أن يَعْقِدَ عَلَيَّ بعقد صداق. وعدني ولما طال الوقت صَرَّحَ لي بأنه لن يعقد العقد قبل أن يحصل على عمل. امتنعت عن أن أقدم له ما يحتاج إليه من مال، وحرَّمت عليه جسدي، فهاجت هائجته وبدأ يشتمني ويضربني ويهددني إن أنا

تزوجت رجلا آخر أن يقتله. قل لي آ السي مراد، كيف أتخلص من نعيم وهو كالأخطبوط يمسك بي من كل جانب؟".

قلت لها:

ـ يا قمر، على والدك أن يتصل بوالده لحسم هذا الموضوع.

قالت:

ـ والدي مريض وأنا وماما نخاف من أن يتزايد في الكلام مع والد نعيم فيصاب بالجلطة أو السكتة.

ـ على والدتك أن تتصرف بدلا عنه.

ـ كيف بماما تواجه عميد شرطة؟ أليست طباع عمداء الشرطة قاسية وهم ينظرون إلى غيرهم من البشر وكأنهم ذباب؟

قلت لها:

ـ إن كنت مقتنعة بأنه لا يصلح لك زوجا فاصرفيه عنك.

قالت:

ـ قلت لك هو كالأخطبوط، يحاصرني من كل جانب. لا يكف عن استعمال الهاتف، حتى إنني قد أغلقت هاتفي فأصبحت أجده ينتظرني عند باب وكالة الأسفار، وهو يهدد بأن يَشْرَطَ وجهي بمشرط إن أنا لم أعطه ما يطلبه من مال ولم أنزل عند رغباته.

ـ إلى هذا الحد هو صعلوك؟

ـ إلى هذه الدرجة وأكثر.

وضعت رأسها بين كفيها. غرقت في البكاء. أشفقت عليها. حاولت أن أعيدها إلى رشدها. ثم سألتها:

ـ هل أنت متأكدة من أنك لم تعودي تحبينه؟

قالت:

ـ متأكدة.

قلت لها:

ـ أخشى يا قمر أن أتدخل في الموضوع فأجد نفسي في وقت من الأوقات مجرد فضولي.

قالت:

ـ إذا تدخلت آ السي مراد فأنت سوف تنقذني من العذاب الذي أنا فيه، ولن تندم على ما سوف تفعل.

طلبت منها أن تريح نفسها وأعصابها على أن تأتي الأيام القادمة بما فيه خير للجميع. انسحبت.

في الغد انتظرتها عند باب وكالة الأسفار. عند خروجها من الوكالة جاء نعيم واقترب منها. اقتربت منه. طلبت منه أن يبعد

عنها وأن ينساها إلى الأبد. سألني:

ـ من أنت؟

قلت له:

ـ لا شأن لك بمن أكون.

قال:

ـ هل تهددني؟

قلت له:

ـ ليس الآن، أنا أطلب منك أن تفارق قمر إلى الأبد، وإن لم تفارقها فسوف أرسل إليك من يكسرون عظامك ويرمون بك في القمامة. عندما تُكسر ضلوعك لن ينفعك والدك في شيء.

قال لي:

ـ أنت رجل خبيث.

قلت له:

ـ أخبث مما تتصور.

قالت له قمر:

ـ أنت لم تعد خطيبي. ابتعد عني.

سألها:

ـ من هذا الرجل؟

قالت له:

ـ سوف تعرفه فيما بعد. إن لم تبتعد عني فهو سوف يرسل من يجعلونك تندم على اليوم الذي ولدت فيه.

سألها:

ـ ومن يكون؟

قالت له:

ـ لا يهمك من يكون الآن. سوف تعرف من هو فيما بعد.

انسحب. سرنا إلى العمارة صامتين. دخلنا شقتي. قدمت لها عصير البرتقال. قلت لها:

ـ كل يوم سوف أنتظرك عند خروجك من الوكالة، فإن انسحب فتبارك اللـه، وإلا فأنا سوف أعرف ما عليّ أن أفعل.

سألتني:

ـ أحقا سترسل من يكسرون ضلوعه؟

قلت لها:

ـ أما زلت تخافين عليه؟

قالت:

ـ لا أبدا. لكني لم أتصور أنك تعرف أشرارا يصلحون لهذه المهمات.

قلت لها:

ـ كان مجرد تهديد يا قمر.

ناضلت من أجل إبعاد نعيم عن قمر. بعد أن استراحت منه جاءت تخبرني بأنها قد أخبرت والدتها شمس الضحى بكل شيء، وأن والدتها قد أثنت على رجولتي.

5

قبل ثماني سنوات من هذا العام، وفي ليلة رأس السنة عام 2004، كنت لا أزال موظفا في إدارة المحافظة العقارية، وأردت أن أحتفل بالعام الجديد فدعوت زملائي في العمل لمشاركتي فرحة قدوم العام الجديد، وهم السي الطاهري ومحسن الوزاني وعبد السلام الخناش وقطر الندى أو الآنسة ندى كما تحب أن نناديها إلى عشاء تفننتُ في تحضيره. أعددت المائدة بأن وضعت عليها الشوكات والملاعق والسكاكين والأطباق والأكواب. ثم أعددت بجوارها مائدة أخرى. صففتها بأنواع السلاطات والأطعمة. طبق به لحم غنم فوقه البرقوق الناضج بالسكر والقرفة والمغموس في الجنجلان، وطبق آخر به ديك بلدي أنضجته في القدر ثم أدخلته إلى الفرن وعندما أخرجته وضعت عليه الزيتون الأحمر والليمون

المُصَيَّر، وطبق ثالث به شرائح من كبد خروف مَرَّ غْتُهَا في التوابل والثوم والقزبر ثم قليتها في المقلاة. نظفت الفواكه فوضعتها في طبق من "الفَخَّار" عليه زركشات جميلة. وتفننت في تحضير أنواع من عصير الفواكه صببتها في ثلاث قوارير بدت بألوان مختلفة.

كنت قد تعلمت الطبخ من خالتي لالة فخيتة، فقد كانت طباخة ماهرة تتقن الطبخ الفاسي بكل أنواعه، وكنت أقف بجوارها في المطبخ أرقب ما تفعله عند تحضير اللحم أو السمك أو الدجاج، وما تمزجه من أنواع التوابل، وكيف تَقُصُّ فصوص الثوم وباقات الكزبر والمعدنوس بسكين حادة وبحذاقة متناهية، ولكل طبخ توابله الخاصة، أما مراحل التحضير فلا بد من اتباعها، مرحلة بعد أخرى، وأما وضع الطعام في الطبق، والتزيين، فهو ما يضفي على الأكلة جماليتها، فحفظت الطريقة والمقادير وأنواع التوابل. ولقد نفعني ذلك فيّ عزوبيتي، وبعد موتها الله يرحمها.

سرعان ما جاءوا. استقبلتهم بحفاوة. نزعتْ عن كتفي الآنسة ندى معطفها وعلقته على المشجب. بهرتهم المائدة. قال لي السي الطاهري:

ـ من أَعَدَّ لك كل هذا الطعام؟

قلت:

ـ أعددته بنفسي.

قال:

ـ أنا لا أعرف كيف أسلق بيضة. وأنت آ السي مراد عشت وحيدا، والضرورة هي التي دفعتك إلى تعلم الطبخ.

اعترضتُ عليه وقلت:

ـ فعلا آ السي الطاهري أنا عازب، لكن أغلب العزاب يتناولون طعامهم في المطاعم، خارج بيوتهم.

قال لي محسن:

ـ وإذن فما السر في كونك طباخًا ماهرًا؟

قلت:

ـ يجب ألا ننسى أن كبار الطهاة العالميين هم من الرجال.

قال لي عبد السلام:

ـ ننتظر أن تُطلعنا على السر.

قلت:

ـ إنه ذِوَاقَة وجمالية من الجماليات، لذة ذوقية يحصل عليها من يتناول الطعام، وتكون لذة الطاهي قبله متعة خاصة في تحضير الطعام. إنه خبرة وتجربة، وفن، وإبداع.

قال لي السي الطاهري:

ـ أليس ثمة قواعد للطبخ تكون معروفة ويتبعها الجميع؟

قلت:

ـ لا بد من القواعد، لكن الطباخ لا يحترمها دائما، لأنه أحيانا يبدعها من جديد.

ظلت قطر الندى صامتة ثم قالت:

ـ تركت لكم أيها الرجال أن تصولوا وتجولوا في أمور المطبخ، وهو ما أعتبره أمرا نسائيا بامتياز. أنا لا أحب من زوجي أن يشاركني في عمل المطبخ، لأنه مملكتي الصغيرة.

قال لها السي الطاهري:

ـ ولنفرض أن زوجك في المستقبل يبدع أطباقا شهية أنت نفسك تتلذذين بها، ألا تتركين له أن يعمل في المطبخ؟

قالت:

ـ حلوياتي ذقتموها جميعا، أما الطعام الذي أعده في مطبخي فأنتم لم تذوقوه بعد.

قال لها محسن:

ـ وهل سيكون أفضل من هذا الذي قدمه لنا مراد؟

قالت:

ـ أنا لا أتنافس مع السي مراد في الطبخ أو في غيره. مراد على رأسي وعيني.

ألف امرأة تتمناه. وأنا أتمناه، لكنه لا يتمناني.

قدمت لها طبقًا آخر لكي تتناول منه. كانت قطر الندى أكثرنا نهما، تأكل بسرعة فلا تترك لما في فمها فرصة طويلة للمضغ، ويبدو أنها لا تتلذذ بما تأكل، فهمها هو أن ينتقل إلى معدتها أكبر قدر من الطعام. لم يكن الأمر غريبا على الآنسة ندى، فهي في حجم فيل، وجسدها يختزن من السمنة ما يجعلها امرأة مميزة بضخامة حجمها. تسير وكأنها تخب، ترفع قدما وتضع أخرى، كُلْكلها يتمايل، ومع ذلك فهي محبوبة لدى الجميع، روحها خفيفة وهي تعرف كيف تتخلص من أصعب الأوقات بالتنكيت والإضحاك. عندما انتهى الجميع من المأدبة وانتهوا من تناول الفواكه دعتنا الآنسة ندى إلى بيتها في يوم السبت القادم لمأدبة. قالت:

ـ أنتم ونساؤكم.

ثم التفتت نحوي وقالت:

ـ هذا الشرط لا يعني السي مراد.

قال لها السي الطاهري:

ـ وهل هو شرط؟

قالت:

ـ حتى لا تظن نساؤكم بعض الظنون، وحتى لا يظن بي جيراني في العمارة بعض الظنون. إن بعض الظن إثم.

قال لها محسن:

ـ لكن زوجاتنا لسن على معرفة بك، فكيف نقنعهن بالحضور معنا في بيتك، وإن سألن عن المناسبة فماذا نقول لهن؟

قالت:

ـ هذه مجرد تعقيدات. الحياة بسيطة ويجب أن نعيشها بتلقائية، لأنها لا تتكرر مرتين.

ثم قالت:

ـ أنا امرأة وأفهم معنى أن تستضيف امرأة غير متزوجة جماعة من الرجال. بالمناسبة، أخبركم بأنني قد تعرفت إلى زوجة السيد المدير السي مشواط.

هتف السي الطاهري:

ـ المحافظ؟

وقال لها عبد السلام:

ـ هكذا، دفعة واحدة؟

وقال لها محسن:

ـ هل هو تمهيد للترقية؟

قالت:

ـ تعرفت إليها مصادفة في صالون الحلاقة، ولمَّا عرفت أنها زوجة السي مشواط تلطفت معها في الحديث. لا ترقية ولا يحزنون. هل كل من تلطفت مع زوجة رئيسها في العمل تمهد للترقية؟

عندما غادروا البيت أحسست أن سعادتي كانت أكبر من سعادتهم، فقد أحسست أن بيتي الذي يملأه الصمت والفراغ قد أصبح مأهولا بزملائي في العمل، وحبذا لو كان لي أهل أستضيفهم فأشعر بالدفء العائلي، لكن أوضاع حياتي سارت إلى أن أُصبحَ مقطوعا من شجرة، بعد موت السي الفاطمي وموت خالتي لالَّة فَخِيتَة. حتى زيارات بنات خالتي هند وسهام ومريم انقطعت منذ مدة، وأنا لم أعد أزورهن إلا في الأعياد والمناسبات.

في مأدبة ليلة السبت انتقلنا إلى بيت الآنسة ندى فرحبت بنا. وقد حضروا ثلاثتهم دون أن تأتي معهم زوجاتهم. كل واحد منهم ظهر بعذر من الأعذار. قدمت لنا قطر الندى سلاطات ودجاجتين أنضجتهما في الفرن وفواكه ثم قدمت ما تبرع فيه من أنواع العصير

وأطباق من الحلويات. سألها السي الطاهري:

ـ ومدام مشواط، كيف حالها؟

قالت:

ـ بالأمس كنت عندها في البيت. ساعدتها في إعداد بعض الحلويات.

سألها محسن:

ـ وهل رآكِ السيد المحافظ وأنت في بيته تساعدين زوجته في إعداد الحلويات؟

قالت:

ـ هذا شغل النساء وليس شغل الرجال. آ السي محسن لا تتدخل فيما لا يعنيك.

امتدحنا حلوياتها وكنت من بين المادحين. قالت لي:

ـ لكنك آ السي مراد لم تذق من كل الأصناف.

قلت لها:

ـ العين هي التي تأكل يا قطر الندى.

قالت:

ـ الآنسة ندى من فضلك.

قلت:

ـ الآنسة ندى.

تكررت المآدب في بيتي وفي بيت الآنسة ندى أسبوعا بعد آخر، ولما لم يدعنا أي من السي الطاهري أو محسن الوزاني أو عبد السلام الخناش إلى بيوتهم، فقد قررنا أنا والآنسة ندى أن نوقف الدعوات لتلك المآدب.

6

أما في ليلة رأس السنة الميلادية 2008، فقد قررت أن أحتفل لوحدي. أضفت إلى المائدة كأسا واحدة هي كأسي وقارورة ويسكي من نوع "جوني والكر" سعة لتر، تأكدت من أنها ليست مغشوشة وأنها من النوع الأسكتلاندي.

كما رأيت في الشريط، فأنا لم أكن في تلك السن المبكرة أعرف مصيري، وأنني سوف أبقى عازبا إلى الأبد، ولم يخطر على بالي أنني سوف أحتاج في يوم من الأيام إلى إعداد أطعمة كثيرة ومتنوعة بذلك القدر من الدقة في التحضير وما ينتج عنها من ذواقة وتلذذ لمن يتناولها. كما كان السي الفاطمي كريما يُولِمُ للناس الولائم فقد نشأت على غراره، وكنت كلما سنحت المناسبة أدعو زملائي في العمل في إدارة المحافظة العقارية. مثل هذه المائدة التي تصطف

عليها صحون بسلاطات وأطعمة متنوعة كنت قد أعددتها ذات يوم ودعوت:

كنت في ليلة رأس السنة الميلادية تلك، وها هو كل شيء معد وها أنا وحيد في الشقة، لم أفكر في أن أستضيف أحدا، لأني كنت أرغب في أن أختلي بنفسي فآكل قليلا من تلك الأطعمة الكثيرة التي أردت بها أن أُبْهِجَ العين، وأن أشرب كئوسا من تلك القارورة الذهبية.

تركت لباقي الناس أن يستمتعوا بسهرة ليلة رأس السنة التي يبثها التليفزيون. شَغَّلْتُ جهاز الموسيقى. أحضرت العديد من الأشرطة التي اشتقت إلى أن أستمع إليها. أغاني محمد عبد الوهاب القديمة وأغاني أم كلثوم وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ ونجاة الصغيرة وفايزة أحمد، وبعض السمفونيات التي كنت أتوفر عليها في مكتبتي الموسيقية، إلى جانب موسيقى البوب وأغاني جاك بريل وإيديت بياف وجورج موستاكي.

شربت الكأس الأولى وأنا أصغي إلى أغاني محمد عبد الوهاب القديمة. أصابني الشجن. أطلقت العنان لصوتي فغنيت بجوارحي: "كل دا كان ليه لما شفت عينيه، حَنَّ قلبي إليه وانشغلت عليه، كل دا كان ليه". طفرت الدموع من عيني. اكتشفت في نفسي مراد الضعيف الذي يرق إحساسه إلى درجة البكاء، وهو مراد

آخر، أما مراد الذي واجه مصاعب الحياة وأعباء العمل والوحدة القاتلة، حيث لا حبيب ولا صديق ولا من يسأل، فهو أيضا مراد آخر. لم أتصور أنني في لحظة صغيرة سوف أفقد الوعي. وما هي إلا كأس واحدة شربتها، لا أقل ولا أكثر. عندما مددت يدي إلى صحن الطحال المحشو لأتناول منه أحسست بنار تشتعل في صدري وتصعد نحو حنجرتي.

تركت القطعة تسقط على الأرض وأنا أشعر بالسقوط.

في غيبوبتي كنت أشعر بتلك النار التي تشتعل في صدري مصحوبة بصوت قرقرة، ولا أدري كم مضى من الوقت حتى استعدتُ وعيي فوجدتني ساقطا على الأرض، فوق البساط، فيما يشبه الإغماء. تحاملت على جسدي حتى وصلت إلى غرفة النوم.

لم أستطع أن أعلو لكي أستلقي على الفراش.

استعدت وعيي. اكتشفت أنني قد قضيت الليلة فوق البساط دون أن أستطيع أن أذهب إلى فراش نومي. سرت نحو الصالة. ظل جهاز الموسيقى يكرر نفس أغاني محمد عبد الوهاب التي كنت أغنيها معه بكثير من الشجن. رأيت المائدة والأطعمة المصفوفة عليها. كانت ساعة يدي تشير إلى الثامنة صباحا. قد يكون إدريس لا يزال واقفا بباب العمارة. أخفيت القارورة التي لم أشرب منها سوى كأس واحدة. فتحت باب الشقة. أخذت أنادي:

ـ إدريس. آ إدريس.

سرعان ما أتى. طلبت منه أن يدخل. قلت له:

ـ خذ كل هذه الأطعمة.

عندما رأى ما على المائدة من طعام كثير قال لي:

ـ السي مراد، هل كنت لبلة البارحة تنتظر ضيوفا لم يأتوا؟

لم أرد عليه. قلت له:

ـ ستجد في المطبخ الكثير من العلب البلاستيكية لتضع فيها هذه الأطعمة وتأخذها.

قال لي:

ـ هذا كثير آ السي مراد. أترك لك منها ما قد تحتاجه في الثلاجة.

قلت له:

ـ تقاسمها مع الزاهية.

جلست وأنا أرقب ما يفعل، فقد أتي بالعلب البلاستيكية وملأها بالأطعمة، ثم قال لي:

ـ تركت لك الديك البلدي، فقد تحتاج إليه في غداء أو عشاء هذا اليوم.

لم أرد عليه. قال لي:

ـ السي مراد؟ ياك لا باس؟ أرى أحوالك متغيرة.

قلت له:

ـ آ إدريس لا تشغل بالك بي. خذ الأطعمة وسر إلى حالك.

أخذها وخرج وهو يُبْدِي الحيرة من أمري. فكرت في أن اليوم هو أول يوم في السنة الجديدة، وهو يوم عطلة، وكل عيادات الأطباء مغلقة.

تذكرت صديقي الدكتور عرفة الحلو. درسنا معا في قسم البكالوريا، وبعد أن حصلنا على الشهادة اقترح عليَّ أن نذهب للدراسة في الاتحاد السوفيتي. استغربت لاقتراحه. شرح لي أنه قد ذهب إلى سفارة الاتحاد السوفيتي في الرباط، وحصل على كل المعلومات التي تتعلق بالدراسة. نقضي سنتين في تعلم اللغة الروسية، وسنة في التأهيل العلمي لولوج كلية الطب، ثم نقضي سنوات التكوين في الكلية، ونتخرَّج.

بدا فرحا ومتحمسا لأن يرتاد ذلك العالم الجديد، رغم اعتراض والده الذي منعه من أن يذهب إلى أرض الكفار، فرد على اعتراض والده ومنعه بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "اطلبوا العلم ولو في الصين"، والصين لم تكن في ذلك الوقت أرضا للمسلمين،

لأن الإسلام لم يدخل تلك المناطق الآسيوية إلا مع الفتوحات. ذهب عرفة إلى الاتحاد السوفيتي وتوظفت أنا في إدارة المحافظة العقارية. عاد من موسكو طبيبا متزوجا من شابة روسية اسمها أولغا، باهرة الجمال، لكنها صموت، وأحيانا تصيبها نوبات من الذهول المفرط، حتى يحسبها من يراها مصابة بالذهان.

كان عرفة خلال أيام دراسته بالاتحاد السوفيتي يعود إلى المغرب من حين لآخر، فأرافقه وهو يشتري سراويل البلودجين وعلب الشوينكَوم ليأخذها معه. أخبرني بأنه يبيعها هناك بالروبل بأسعار خيالية، ثم بدأ خلال وجوده في موسكو يكلفني بشراء عدد من تلك السراويل وإرسالها إليه بواسطة البريد. وكان أيضا خلال عودته يأتي بجواهر نفيسة وحبات من الألماس يبيعها بأعلى الأسعار لتجار (سوق الذهب) في فاس.

ما يبرر حسه التجاري هو حرصه على أن يعيش. كان خلال العطلات يسافر إلى بلغاريا ورومانيا أو إلى إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي ليكتشف أنماطا من العيش وأنواعا من ممارسة الحياة. وكان فضلا عن ذلك يجمع بعض المال في حسابه البنكي. فتح الدكتور عرفة عيادة في (زنقة وادي سبو)، وأصبح طبيبا لفريق المغرب الفاسي لكرة القدم، وطبيبا لعمال الكثير من المصانع مع حصوله على شهادة في طب الشغل.

كنا نلتقي فيأخذني إلى أحد الفنادق حيث نتنفس الهواء في الحديقة ونشرب بعض الكئوس، وكان حريصا على أن يدفع. وكنت أزوره في عيادته كلما ألَمَّ بي مرض، فيقوم بالواجب ويرفض أن يتقاضى أجره. عرفت أنه لا يقدم الرخص الطبية للموظفين إلا إذا كان لهم ما يُعْجِزُهُم عن العمل، بينما يقدمها أطباء آخرون من خلال موظفة في الاستقبال، ومن دون فحص، ولكن بثمن الفحص. مرة جئته وأنا أشعر بألم شديد في الرأس والأذنين، فأعطاني أدوية وعندما طلبت منه رخصة طبية لثلاثة أيام قال لي:

ـ يمكنك أن تتناول هذه الأدوية وأن تشتغل.

في بعض أيام الأحد كان يدعوني لأن أرافقه هو وزجته أولغا لقضاء النهار في (ضاية عوا) قرب إيموزار. كان يصطاد وكنا أنا أولغا نشعل النار ونتناول من بعض السلاطات مع كئوس من النبيذ، وعندما نجتمع ثلاثتنا على المائدة نتناول أسماكا مشوية على نار الفحم، يكون هو من اصطادها. نشرب أنا وعرفة قليلا، وتشرب أولغا كثيرا وهي لا تتكلم إلا قليلا، وأحيانا تعزف عن الكلام حتى زوجها كان يكلمها فلا ترد، وتبدو كأنها تعيش في عالم آخر.

استضفتهما عدة مرات في بيتي. كانت المناسبة سانحة لي لأن أمارس مهاراتي في الطبخ. لكن أولغا كانت تأكل قليلا وتشرب كثيرا. تبدو غير مبالية بما على المائدة من صنوف الأطعمة، وحتى

كونسيرتو تشايكوفسكي الذي وضعته في آلة التسجيل لم يجذب انتباهها. امرأة باردة الدم، تحملتها ضيفة وتعجبت كيف يتحمل العيش معها عرفة وهي على هذا الصمت والشرود والإغراق في الشرب.

وليكن، فقد اتصلت بالدكتور عرفة بالهاتف وأخبرته بما وقع في تلك الليلة، جاء على الفور. دخل مسرعا. طلب مني أن أصف له ما شعرت به فأخبرته بتلك النار التي اشتعلت في صدري وبعدها جاءت حالة الإغماء. أول ما فعله هو أن جس نبض ذراعي بالمجس لقياس درجة الضغط. ثم جاس وريد عنقي، ووضع أصابعه على عروق يدي اليسرى لبعض الوقت. قال لي:

ـ الأمر ليس بيدي. عليك أن تنتظر إلى الغد فتزور طبيبا متخصصا في أمراض القلب والشرايين.

سألته:

ـ هل حالتي خطيرة؟

قال لي:

ـ لا تقلق. مع تقدم الطب كل الأمراض لها علاج.

قلت:

ـ هل تنصحني بطبيب معين؟

قال:

ـ أي طبيب متخصص في أمراض القلب والشرايين سوف يعتني بك.

أوصاني:

ـ لا تشرب، ولا تدخن. كُل أكلا خفيفا خاليا من الدسم. استرح، وغدا صباحا تزور طبيبا متخصصا في أمراض القلب والشرايين.

ثم سألني:

ـ أنت منخرط في الضمان الاجتماعي؟

رددت عليه:

ـ طبعا. ولماذا تسأل؟

ـ قد يتعلق الأمر بعملية. وما دمت منخرطا في الضمان الاجتماعي فلا بأس عليك. لا تقلق. سأتصل بك بالهاتف.

انسحبت. قضيت نهاري وليلتي وأنا أفكر في مرضي. خشيت أن يتكرر ما وقع لي بالأمس.

في الغد زرت طبيبا متخصصا في أمراض القلب والشرايين. بعد الفحص أخبرني بأن ذبحة صدرية كانت سوف تحدث ولكنها

لم تحدث. شرح لي أن الذبحة هي بمثابة مطحنة كهربائية تطحن القلب فتترك آثارها على شكل دوائر، وهي آثار لا تمحَى من القلب. قال إنه لا يرى تلك الدوائر، وسوف يعطيني أدوية تمنع تكرار ما حدث، في انتظار علاج شامل، وأنه سوف يرسلني إلى طبيب أكبر منه. تعجبت لقوله، وسألته:

ـ وما الذي سوف يفعل بي هذا الطبيب؟

قال:

ـ هو من سيقرر. سيجري عملية قسطرة، والقسطرة سوف تحدد ما عليه أن يفعل.

سألته:

ـ وفي أسوأ الأحوال، ما الذي عليه أن يفعل؟

قال:

ـ لا تتعجل في الأمر، ربما عملية توسيع الشرايين، وربما جراحة لاستبدال الشرايين المسدودة، وربما لا شيء من هذا وذاك. لا تقلق.

أجرى اتصالا هاتفيا مع طبيب في (مصحة أكدال) في الرباط، وأخذ لي معه موعدا. أخبرني بالموعد فسافرت إلى الرباط. بت ليلتي في أحد الفنادق، ولم أتناول في العشاء سوى تفاحة وكوب

من مزيح الحليب وعصير الفواكه. استيقظت باكرا. لم أفطر. في تمام الثامنة صباحا وصلت إلى مصحة أكدال. جلست مع المنتظرين. بعد حين طلبت مني موظفة الاستقبال أن آتِ إليها. طلبت مني أوراق الضمان الاجتماعي. قدمتها لها. أخبرتني بأن الطبيب سوف يُجري لي عملية قسطرة والثمن هو ثمانية آلاف درهم، أدفعها نقدا، وفي الحال، لأن انتظار الحصول على موافقة الضمان الاجتماعي سيطول، وهو أمر مضر بصحتي. كان المبلغ معي، فقد سحبت من البنك كل ما لديّ من رصيد. أعطيتها المبلغ. أخذت تَعُدُّه. طلبت مني أن أنتظر. بعد حين دخلت قاعة القسطرة. استغرق الأمر نصف ساعة تقريبا. أخرجوني على سرير طبي متحرك إلى الممر وتركوني هناك. كنت عاريا إلا من إزار أزرق يسترني. ملابسي وساعتي اليدوية وهاتفي المحمول وحافظة نقودي وأوراقي الشخصية موضوعة فوق ركبتي. تيار الهواء في الممر كان قويا. خشيت أن يلتهب العرق المفتوح في فخذي. مر بي بعض الممرضين دون أن يبالوا. رأوني وتجاهلوا أنني أسألهم هل سوف أبقى هنا في هذا الممر معرَّضا لتيار الهواء، وبتجاهلهم وهم لا يلتفتون نحوي فهمت أن بقائي طوال الليلة في الممر أمر بات مؤكدا. نهضت من فوق السرير. بدأت أصرخ:

ـ أهذه مصحة خصوصية ندفع لها من عرق جبيننا ثمن العلاج أم أن أنها شركة للمتاجرة بصحة الناس.

تكرر صراخي. عندما مر بي أحد الممرضين تجاهل صراخي فأمسكت بذراعه وجذبته نحوي بحركة من يدي. قال لي:

ـ لا تقلق. ننتظر أن يفرغ سرير في إحدى الغرف، فنأخذك إليه.

كان كاذبا، ففي ذلك الممر قضيت ليلتي معرضا لتيار الهواء، وجسدي عار إلا من ذلك الإزار الذي يسترني. لم يعطوني بطانية أتدفأ بها أو طعاما أو شرابا. بقيت على حالي إلى أن جاء أحد الممرضين فدفع سريري وأدخله إلى غرفة ضيقة خاصة بالممرضين، فيها يغيرون ملابسهم. هناك بت حتى الصباح. جاءت ممرضة وطلبت مني أن أرتدي ملابسي فارتديتها ثم طلبت مني أن أرافقها. أخذتني إلى مكتب الطبيب. ظل ينظر إلى شاشة الحاسوب ثم رفع نظره نحوي وقال لي:

ـ ثلاثة شرايين. لا بد من إجراء عملية توسيع.

سألته:

ـ كم ثمن إجراء العملية.

قال:

ـ أنت منخرط في الضمان الاجتماعي. الكاتبة سوف تُعِدُّ لك ملفا تأخذه إلى مقر الضمان الاجتماعي، وبعد أن يرسلوا لنا الموافقة

على إجراء العملية سوف تدفع سبعة وعشرين ألف درهم نقدا، أو بشيك مضمون.

كتب وصفة الأدوية، وقدمها إليَّ، ثم قال لي:

ـ الإبر تُحْقَنُ في البطن لعشرة أيام. لا بد من حقن الحقنة الأولى اليوم. حينما تصلنا الموافقة، سوف نحدد لك موعد العملية.

كانت الكاتبة قد أعدت الملف. أخذته منها. خرجت من المصحة. قصدت أقرب صيدلية. قدمت الوصفة لبائعة الدواء. نظرت إليها. قالت لي:

ـ ألف ومائتا درهم.

دفعت لها المبلغ فأعطتني الحقن. سألتها عن ممرض يحقنني بواحدة منها. أرشدتني إلى مكان قريب يوجد به ممرض خصوصي. وصلت إليه. أراد أن يثرثر. أخبرته بأنني أستعجل الحقْن بالحقنة حتى أذهب إلى حال سبيلي. اعتبرني رجلا عصبيا. لم أبال بما قال. حرَّضته على أن يحقنني بالحقنة في أسرع وقت. قال لي:

ـ هل طائرتك سوف تقلع بعد ساعتين؟

قلت له:

ـ تماما. أسرع.

من عيادة الممرض خرجت إلى الشارع. أحسست بالجوع. تذكرت أنني لم أتناول طعاما منذ أول أمس. دخلت مطعما. رأيته فارغا. اقترب مني النادل وقال لي:

ـ لم يحن وقت تناول الغداء بعد.

نظرت إلى ساعتي. كانت تشير إلى الثانية عشرة. خرجت من المطعم. ذهبت إلى مقهى قريب. طلبت من النادل قهوة بالحليب وخبزا محمصا محشوا بالجبن الأصفر. أتاني بهما. شربت القهوة بالحليب وأكلت الخبز المحمص المحشو بالجبن الأصفر. خرجت من المقهى. أوقفت سيارة تاكسي. طلبت من السائق أن يأخذني إلى مقر الضمان الاجتماعي. وقف عند الباب. نزلت. رأيت بابا حديديا كبيرا يقوم بإغلاقه رجلان شديدان ورجل آخر يصرخ في وجههما ويشتم الإدارة التي قام عليها مدير لصندوق الضمان الاجتماعي سرق الملايين من مساهمات المنخرطين ثم حكم عليه بالسجن ولم يُحْكَمْ عليه باسترداد الأموال التي سرقها. عرفت مَن يعني. كانت الفضيحة قد نشرتها الصحف. دفعوني أنا أيضا، وأغلقوا الباب الحديدي في وجهي. توترت أعصابي. بعد حين سمحوا بالدخول. تقدمت نحو الموظف. أسلمته الملف. أخذه مني. نظر إليه ولم يعلق بشيء. سألته:

ـ متى سوف أحصل على الموافقة لإجراء العملية؟

قال دون أن ينظر إليّ:

ـ سبعة أو ثمانية أشهر.

قلت له:

ـ ساعتها سأكون قد مت.

ردَّ عليَّ بكثير من القسوة:

ـ إذا مت فليرحمك اللـه.

عدت مع القطار إلى فاس. وأنا في عربة القطار أخذت أفكر في عملية توسيع الشرايين التي سوف تنتظر لسبعة أو ثمانية أشهر. فكرت في حل يُعَجِّلُ بقبول ملفي في أسرع وقت. في الغد عدت إلى عملي في إدارة المحافظة العقارية. دخلت مكتب المحافظ. حكيت له القصة من أولها إلى آخرها، وأخبرته بأن حالتي الصحية لا تنتظر إجراء العملية لسبعة أو ثمانية أشهر. قال لي:

ـ سوف أتدخل مع إدارة الضمان الاجتماعي، ليعلو ملفك فوق كل الملفات.

عرفت أن في الأمر محسوبية. خجلت من هذا التدخل، لكن حياتي في خطر. شكرته وعدت إلى عملي. أقامت قطر الندى مناحة في الإدارة. أخذت تصرخ:

ـ حبيبي مراد سوف يموت ويتركني دون أمل. حبيبي مراد لا أحد له غيري. حبيبي مراد إن مات فأنا قد مت بعده.

أثار صراخها ضحكات السي الطاهري وعبد السلام الخناش ومحسن الوزاني وباقي الموظفين. جحظت عيناها وأخذت تضرب بيديها على فخذيها. أقبلت عليّ وقالت لي:

ـ حبيبي لا تمت.

ثم قالت لي:

ـ ابق حيا إلى أن نتزوج. زواجنا سوف يُطيل من عمرك، وحتى إن مِتَّ وأنت زوجي فليرحمك الله، سوف أبقى مخلصة لك، لن أتزوج بعدك، وكل يوم جمعة سأزور قبرك، وأسقيه بماء الرحمة، وأجعل المقرئين يقرأون عليك سورة تبارك.

ثم تقول لي:

ـ لا تصدق كلام الأطباء. قبل العملية علينا أن نتزوج ونقيم عرسا على قد حالنا، ولك الخيار، تقيم معي في بيتي أو أقيم معك في بيتك، لا فرق.

ثم تقول لي:

ـ لا. نؤجل الزواج إلى ما بعد نجاح العملية.

أضحكَ حديثها الجميع، وهي لم تبالِ بذلك الضحك، فقد كانت مخطوفة الوجه، غائبة النظرات، محتقنة العينين باحمرار ناتج عن صعود الدم إليهما. أشفقت عليها كما أشفقت على نفسي. لم أرد عليها بشيء.

بعد أسبوع جاءتني مكالمة من (مصحة أكدال) تخبرني بأن العملية سوف تُجرى لي في يوم الأحد القادم، فقد وصلت المصحة موافقة الضمان الاجتماعي على تحمل المصاريف.

بدأت محنة أخرى. كيف أوفر مبلغ سبعة وعشرين ألف درهم، من أين آتِ به. اتصلت بشركات القروض. حصلت على المبلغ لكي أؤديه بأقساط شهرية من راتبي على مدى ثلاث سنوات. ألحت قطر الندى على مرافقتي إلى الرباط لتكون بجانبي خلال إجراء العملية. تملصت منها بكل الوسائل. اتصلت بـ مريم ابنة خالتي. أخبرتها بحالتي الصحية وبموعد العملية. أبدت تَحَسُّرَهَا وقالت:

ـ مراد ابن خالتي. سأكون معك، أنا وأختيَّ هند وسهام.

قلت لها:

ـ لا داعي لذلك.

قالت:

ـ إن لم تحضر أختاي فأنا سوف أحضر معك، سأكون بجانبك.

سألتني:

ـ مراد، هل أنت في حاجة إلى مال؟

قلت لها:

ـ بارك اللـه فيك. لقد رتبت كل أموري.

قالت:

ـ متى احتجت إلى مال فلا تتردد في طلبه.

شكرتها. أحسست أن البعيد قد أصبح قريبا. صوتها أعادني إلى تلك الأيام الخوالي من طفولتنا المشتركة، وأيام الصبا، ثم بدايات أيام الشباب. سافرت إلى الرباط وحيدا، دخلت (مصحة أكدال). أديت المبلغ لكاتبة المصحة فَأخذت تَعُدُّهُ ورقة ورقة. ثم طلبت مني أن أنتظر.

خلال وقت الانتظار تعرفت إلى كولونيل متقاعد من عمله في الجيش قال لي إن اسمه الطيب مرغيش، وكانت ترافقه شابة في غاية الجمال، مليحة الوجه على سمرة مشربة بالدم، دقيقة الأنف رقيقة الشفتين، شعرها الفاحم ينسدل على الكتفين، مع فرقة في وسطه، ترتدي جلبابا أخضر يكشف عن جسد رشيق القوام، سمعت والدها يناديها: جنة. قدم لها شيكا بمبلغ خمسة وعشرين مليون سنتيم، وطلب منها أن تصرفه في البنك. وكما قال فالمصحة لا تقبل

الشيكات. غابت جنة لبعض الوقت ثم عادت بالخمسة والعشرين مليون سنتيم نقدا، فسلمتها لموظفة الاستقبال. جاء الطبيب بنفسه وأخذ يَعُدُّ أوراق النقد. أُجريت العملية للكولونيل الطيب ثم أجريت لي بعده. طرحونا على فراشين متجاورين. وقفت جنة بيننا. قبَّلت جبين والدها. رَوَّعَنِي جمالها الباهر حتى وأنا لا أزال تحت تأثير التخدير. هنأتني بالسلامة. سألتني:

ـ من أية مدينة أنت؟

قلت:

ـ من فاس.

قالت لي:

ـ نحن أيضا من فاس.

تمنيت أن أراها في فاس حتى أبتهج بجمالها الباهر. قدم لنا الطبيب بعض النصائح، وأرشدنا إلى الأدوية التي سوف نتناولها مدى الحياة. أخبرنا بأننا في صباح الغد سوف نغادر المصحة. استسلمنا للارتخاء الذي يحدثه المخدر. في صباح الغد وَقَّعْتُ على الكثير من الأوراق. أخذت وصفة الأدوية. نزلت مع المصعد والحقيبة الصغيرة في يدي. خرجت من باب المصحة إلى الطريق. على الرصيف شعرت بالدوار. أحسست أنني على وشك أن أصاب

بالإغماء. سقطت على الأرض. عندما فتحت عيني وجدت جمعا من الناس يجتمعون حولي. ويدان تمتدان إليَّ لكي تساعداننني على الوقوف، إحداهما لمريم، والأخرى لقطر الندى.

7

قبل عامين، وفي الواحد الثلاثين من ديسمبر 2010، جاء اليوم الذي أنهيت فيه عملي بإدارة المحافظة العقارية فأصبحت مُحَالاً على التقاعد، كانت قطر الندى ترقص من حولي. تبتسم لي. تحكي لي نكتة بعد أخرى. لكن شبح التقاعد كان يخيِّم على كل شيء.

أعدت قطر الندى مائدة عليها منديل أبيض فوقه باقة ورد وأطباقًا بها حلويات من صنع يدها، ومشروبات، وعلبة كرتونية مغلفة بورق الهدايا. قالت لي:

ـ دعوت الجميع للحضور، السيد المحافظ والموظفين والعاملين.

وقفنا أنا وهي، لوحدنا أمام المائدة. أجرت عدة مكالمات هاتفية تَحُثُّ فيها من خاطبتهم بالحضور إلى مكان الحفل.

أحسست أنني في ورطة. بدأت أفكر في طريقة أُغَافِلُ بها قطر الندى ثم أنسحب، أذهب إلى حال سبيلي، غير أنها كانت تَلْتَصِقُ بي كظلي، فوجدت من العيب أن أُفْسِدَ عليها كل ما أعدته بانسحابي. بقيت واقعا في الحيرة. بعد حين جاء السي الطاهري وهو يلهث. أخبرنا بأن المحافظ السي مشواط يعتذر عن الحضور بسبب اجتماع طارئ في الولاية. سألته قطر الندى:

ـ ومحسن الوزاني، ألن يحضر؟

قال لها:

ـ لا أعرف.

ـ وعبد السلام الخناش، ألن يحضر؟

ـ الغائب حجته معه.

ـ وباقي الموظفين، ألن يحضروا؟ السي مراد صديق الجميع، ليست له عداوات مع أحد. سنوات قضيناها مع بعضنا في العمل، وهو اليوم يودعنا.

قال لها السي الطاهري:

ـ كلنا يا آنسة ندى سوف نترك العمل في هذه الإدارة، لا أحد منا سوف يبقى إلى الأبد.

التفت نحوي وقال لي:

ـ هل أوجدت لنفسك عملا تقوم به بعد التقاعد؟

فاجأني سؤاله. قلت:

ـ أي عمل؟

قال:

ـ أنا مثلا، أقوم بتسمين العجول، وهو عمل أتهيأ من خلاله لقتل الفراغ الذي سوف يصيبني بعد التقاعد، كما أكسب منه الكثير من المال.

قلت:

ـ أنا لا شأن لي بتسمين العجول.

ـ الفراغ يا أخي مراد يقتل النفس. وإذا لم يكن لديك مشروع تعمل على تنميته فسوف تبقى قاعدا في البيت، أو ستجلس في مقهى لتنهض منه ثم تجلس في مقهى آخر.

قالت قطر الندى:

ـ السي مراد يقرأ الكتب. يملأ وقته بالقراءة.

قال لها:

ـ وما الذي سوف يجنيه من قراءة الكتب غير صداع الراس؟

ردَّت عليه:

ـ وهل تريده أن يفعل مثل ما فعلته أنت؟ آ السي الطاهري كُلٌّ وما خُلق له.

قال:

ـ وليته كان متزوجا ليشغل نفسه بالزوجة والأولاد!

هتفت قطر الندى:

ـ متزوج؟ آه! معك الحق. ليته كان متزوجا. ألف امرأة تتمناه، ولكن...

ـ ولكن ماذا؟

ـ هو لم يرغب في أن يتزوجني.

تنهدتْ. ثم تداركت وضعها فقالتْ:

ـ تفضلا. الحلويات والمشروبات.

أقبل السي الطاهري على كوب صب فيه العصير من القارورة، ثم تناول من أحد الأطباق قطعة من الحلوى التهمها فأخذ قطعة أخرى وثالثة. بدا فمه ممتلئا بالحلوى وهو يلهجها. ملأت قطر الندى كوبا بالعصير وقدمته لي، وملأت لنفسها كوبا آخر. أخذت باقة الورد وقدمتها لي. قالت:

ـ السي مراد. نتمنى أن تكون أيامك كلها ورودًا، ومحبة، وتفاؤلًا بالحياة. التقاعد ليس هو نهاية الحياة، وإنما هو لحظة يجب أن يشعر فيه الموظف بأنه قد أدى واجبه واستراح.

أعادت باقة الورود إلى مكانها. طلبت مني أن أتناول من الحلوى التي قالت إنها قد أعدتها بنفسها. أخذتُ قطعة من أحد الأطباق. قالت للسي الطاهري:

ـ السي الطاهري. قدم الهدية للسي مراد.

حمل العلبة الكرتونية المغلفة بورق الهدايا وقدمها لي. قالت قطر الندى:

ـ تفضل. هدية متواضعة.

أخذتها منه ثم وضعتها على المائدة. قالت لي:

ـ افتحها آ السي مراد.

فتحت العلبة. وجدت فيها بساطا صغيرا مزركشا بزركشات بربرية. قالت قطر الندى:

ـ أعجبك البساط؟

قلت:

ـ أعجبني.

قالت:

ـ هدية متواضعة أنا اشتريتها، وأقدمها لك باسم جميع الموظفين والعاملين.

شكرتها. لم أجد ما أقول. أحسست بالرغبة في أن أنسحب. بدا لي الحفل كالمأتم، وكأن قطر الندى والسي الطاهري، يشيِّعانني إلى قبري. خيم على اللحظة جو مأساوي. أخذت الهدية. غادرت المكان مسرعا، كأني أهرب منه ومن نفسي ومن كل تلك السنوات الطويلة التي قضيتها فيه. مشيت في الطريق خطوات. سمعت وقع خطى مسرعة من الخلف. التفت فوجدت قطر الندى. كانت تلهث. قالت لي:

ـ السي مراد. أعرف أنك حزين. لا أحب أن تكون حزينا، لذلك خرجت وراءك.

قلت لها:

ـ لا أحزن على شيء.

قالت:

ـ أنتم الرجال تملكون القدرة على إخفاء مشاعركم، لكن عين المرأة خبيرة. أنا رأيت الحزن في عينيك.

قلت:

ـ حتى وإن كان، فالحزن يستمر لبعض اللحظات ثم يَتَبَدَّد.

ـ ذلك ما أتمناه. الموظفون أخجلوني بعدم الحضور في الحفل. أنا أعددت كل شيء، ودعوتهم واحدا بعد الآخر. لكنهم...

ـ لا تحملي همًّا.

قالت لي:

ـ أدعوك آ السي مراد إلى مقهى نجلس فيه ونتحدث على راحتنا.

قلت لها:

ـ تعالي.

في المقهى ظلت تتحدث عن مشروع زواجنا وكأنه مشروع لتعمير مدينة أدركها الخراب بسبب حرب أو زلزال. لم أكن أصغي إليها كثيرا، لكني سمعت شيئا من كلامها وهي تتحدث عن برنامج لإنجاح ذلك المشروع وتحقيقه على أرض الواقع، قالت:

"نبدأ من كتابة عقد زواجنا في مكتب العدول، فلا مشكلة في ذلك. لستُ قاصرة ولا أحتاج إلى وليّ أمر ليوافق على زواجي، وهذا أجمل ما جاءت به مدوَّنة الأسرة، فاللآنسة مثلي إن اختارت فارس أحلامها لم تعد مطالبة عند الزواج بإذن من والدها أو ولي أمرها، أو أن ينوب عن أحدهما القاضي، فقد أصبح زواجها بيدها

لا بيد أحد. إذن نكتب عقد زواجنا، ثم نرتب لما بعد ذلك. أول خطوة لنجاح مؤسسة الزواج هي أن يضم الزوج راتبه الشهري لراتب زوجته في حساب بنكي واحد، وأن يضعا خطة للتوفير من أجل شراء شقة حتى يتخلصا من الكراء. ألا تنظر آ السي مراد إلى ذلك الإشهار التليفزيوني الذي تقدمه مؤسسات العقار وهو يحمل شعار: الشرا بحال الكرا؟ المغفل في هذا الوقت هو من يبقى في الكراء. أنت مغفل وأنا مغفلة، كلانا يكتري شقة".

تركتها تقول ما تريد، فكأني كنت أُعِيرُهَا أذني لبعض الوقت، ما دام ذلك يسعدها.

8

توفي عمي الضوبلي ليلة البارحة. منذ أيام طويلة لم يخرج إلى (مقهى السعادة) القريب من العمارة، حيث كنا نلتقي ونتحدث، ونتبادل المحبة، حتى إنه ورغم فارق السن واختلاف التجارب في الحياة قد أصبح صديقا لي، على ندرة الأصدقاء أو عدم وجودهم في حياتي بالمرة.

كنت أمر بجوار المقهى فلا أراه جالسا كعادته يتمتم بكلمات لا يسمعها أحد، وهو يُحدث نفسه بما يجول في خاطره من ذكريات. ما إن يراني قادما حتى يَكُفَّ عن تَمْتَمَتِهِ بتلك الكلمات المبهمة التي يقولها لنفسه. يظهر الاستبشار على وجهه. يستقبلني ضاحكا. نشرب الشاي بالنعناع ونبدأ حديثنا عاديا حول تقلبات الطقس وغلاء الأسعار، وفحش البنات وهن يخرجن إلى الشوارع شبه

عاريات، ثم ينتقل بنا الحديث إلى المخدرات التي أصبحت تُباع عند أبواب المدارس والدعارة التي تنتشر في كل مكان حتى إن بلدنا أصبح يُصدر البغايا إلى عدة بلدان عربية وأوربية، والجريمة التي اتسعت رقعتها في كل مكان. سرعان ما يصل عمي الضوبلي إلى مراده من الحديث، وهو يتحول من الحاضر إلى الماضي، فيحكي لي باسترسال عجيب عن أيام الاستعمار والحركة الوطنية، وعن سفره الأول إلى القاهرة في بداية الخمسينيات من القرن الماضي، وحضوره سهرة لسيدة الطرب العربي السيدة أم كلثوم. ثم يستحضر حفيده إبراهيم وزوجته راضية وبَرَّهُمَا به بعد أن تخلى عنه أولاده ولم يبق له إلا حفيده إبراهيم وزوجته راضية.

عندما غاب في الأيام الأخيرة، التقيت بإبراهيم فسألته عنه. أخبرني بأنه يعاني من وعكة صحية. لم يبد عليه القلق. قال لي:

ـ عمره طويل إن شاء اللـه، حتى وقد تجاوز المائة.

قلت له:

ـ أطال اللـه في عمره، فهو رجل بركة، وذاكرة تختزن الكثير من صور الماضي.

قال:

ـ لكن أولاده وأحفاده تناسوه، وهو يشعر بالضيم.

ـ حرام عليهم.

ـ كلهم تناسوه، ولولا أننا لا نَبَرُّ به أنا وزوجتي راضية لتعرض إلى الضياع.

ـ جازاكم اللـه خيرا.

قال لي:

ـ تعال لنجلس في المقهى.

قلت:

ـ لن تحلو الجلسة من دون عمي الضوبلي، ولكن لا بأس.

في المقهى قال لي:

"أسنان جدي ناصعة بيضاء، هي أسنان البدل، كتلك التي تنبت في مكان ما يتساقط من أسنان الأطفال. ضاحك أبدا. عقله صاح. لا تفوته شاذة ولا فادة. ذاكرته قوية. يستحضر كل ما عاشه وعاشته فاس من أحداث. غير أنه غاضب من أبنائه الذين بقوا في الحياة ومن أحفاده. كل يوم يتذكر أنهم قد نسوه. أنا أواسيه بأنه معي ومع زوجتي راضية في البيت لا ينقصه شيء. يقول لي:

ـ آ إبراهيم أولادي من مات منهم اللـه يرحمه، وإذا كان عيسى

وزينب وهنية ما زالوا على قيد الحياة فلماذا لا يسألون عني؟

أقول له:

ـ هي مشاغل الحياة يا جدي.

يقول:

ـ ولماذا لا يسأل عني أحفادي، ألستُ جَدًّا لهم كما أنا جَدٌّ لك؟

أقول له:

ـ أحفادك يا جدي هم أبناء أعمامي وعماتي، وأنا لا أعرف منهم إلا القليل.

يضحك ويقول لي:

ـ يا إبراهيم، كلهم تنسلوا مني.

ثم يغتم ويقول لي:

ـ لكنه نسل لا خير فيه.

يَعُدُّ عدد أحفاده على رؤوس أصابعه ويذكر أسماء بعضهم وعندما ينسى أسماء بعضهم الآخر يطلب مني أن أذكره بها. وأنا مثله لا أعرف أسماءهم، فهم كثر، وقد انتشروا في الأرض.

يقول لي:

ـ يا إبراهيم عندما أموت سوف يأتي عيسى وأختاه لاقتسام

التركة. أولاد مساخيط وأنا ساخط عنهم، فكيف يتمتعون بما سوف أُخَلِّفُهُ ورائي من تركة؟

أقول له:

ـ يا جدي فَكِّرْ في حياتك ولا تفكر فيما سوف يقع بعد موتك، بعد طول العمر إن شاء اللـه. في يوم الأحد المقبل سوف آخذك إلى (حامة مولاي يعقوب) لتعوم في الماء الساخن المشبع بالكبريت، فترتخي عضلاتك وتشعر بالراحة.

يضحك ويقول:

ـ كما تأخذني كل ليلة جمعة إلى الْحَمَّام فَتَدْلَكُ جسدي وتغسله، اللـه يرضى عليك.

استهام إبراهيم في حديثه:

"وأقول لك آ السي مراد، خصصت له غرفة في الشقة، بها جهاز تليفزيون يشاهد فيه الأخبار ويتابع المسلسلات والأشرطة المتحركة، وأنا أطعمه بنفسي، وأقوم على نظافته، وزوجتي لا تتضايق من وجوده معنا في البيت. الأولاد يحبونه ويحترمونه، وهم يُسْحَرُونَ بحكاياته التي يحكيها لهم. كثيرا ما نجالسه أنا وزوجتي حتى لا يشعر بالقنوط. فيشرع في حكي حياته الماضية، يحكيها لنا بالتفصيل، ورغم أننا قد حفظناها فهو يرددها بين يوم وآخر كلما جئنا لمجالسته وشرب الشاي معه. كان في شبابه وارثا لعدة أراض

في "الحياينة"، فأصله "حَيَّانِي"، لكنه جاء إلى فاس في الثلاثينيات من القرن الماضي، فعمل في "دار اعمل". بدأ مُتَعَلِّمًا يعجن الطين ويسويه ألواحا تُنْضَجُ في الفرن ثم تصبغ بألوان عديدة، ثم أصبح صانعا يقطع تلك الألواح بمطرقة حادة الجانب ليصنع منها قطعا للزليج الفاسي وزخرفاته المتعددة الأشكال والألوان. بعد ذلك أصبح معلما، وأصبح له معمل في "دار اعمل"، ومع المعمل اتسع له الرزق ففتح محلا في (الفخارين) يبيع فيه الأواني الخَزَفِيَّة. اشترى دارا فاسية في (الزربطانة) القريبة من (البطحاء) ليصبح مجاورا لأعيان فاس في السكن، فقد كان عليه أن يتخلى عن بداوته لِيَتَطَبَّعَ بطبائع أهل فاس. تزوج سبع نساء.

كان مزواجا مطلاقا، وكان موت إحدى الزوجات يُعَدُّ سببا لزواجه من غيرها، وإن تخاصمت إحداهن مع ضراتها فهو يختلق لها الأسباب لكي يُطلقها ويتزوج أخرى يكون شرطه الوحيد عليها هو التواؤم مع ضراتها. زوجاته كلهن فاسيات، وقد تصاهر مع أسر فاسية عريقة كأولاد برادة وبناني وبنشقرون، فتزوج من تلك الأسر أبكارا ومطلقات وأرامل. معهن أنجب ثلاثة عشر ولدا. ثمانية ذكور وخمس بنات. الأولاد سَمَّاهُم جميعا بأسماء الأنبياء: محمد وإبراهيم وإسماعيل وإدريس ويوسف وسليمان وعيسى وموسى. والبنات سمَّاهن فاطمة وخديجة وعائشة وزينب وهنية. ومن أولاده من توظفوا في الإدارات العمومية، فعمي محمد كان موظفا في

قباضة الضرائب، وعمي يوسف كان موظفا في أحد البنوك، ووالدي سليمان اللـه يرحمه كان قابضا في وكالة الماء والكهرباء، وبعد وفاته حللت أنا مكانه في العمل، وعمي عيسى كان موظفا في إدارة البريد والبرق والهاتف، لكن من عاشوا منهم لم يستقروا في فاس، فقد انتشروا في عدة مدن وخاضوا في شئون الحياة، وهذا ما جعلهم ينشغلون عن والدهم. ليسوا جميعا، فعمي إدريس تولى "دار اعمل"، لكنه توفي فحل أولاده محله، وعمي موسى تولى محل (الفخارين)، وهما معنا في فاس ومع ذلك لا يسألان عنه. عمتي فاطمة توفيت، وعمتي زينب كان زوجها يسوق القطار، وعمتي راضية كان زوجها مديرا للسجن المدني في "العادر" ثم انتقل منه إلى سجن "الوطيطة" ثم إلى سجن "سيدي قاسم".

سافر جدي إلى بلدان كثيرة. أريده أن يُحَدِّثَكَ عن سفره إلى القاهرة في بداية الخمسينيات، وزيارته لسيدنا الحسين والسيدة زينب، وسكنه لشهر كامل في حي يسمى "العجوزة"، ومتابعته لثورة الضباط الأحرار، وحضوره لإحدى سهرات السيدة أم كلثوم، وغرامه بأغاني فريد الأطرش الذي تمنى أن يلتقي به في القاهرة ليتحدث معه عن العود الذي صنعه له في فاس محمد بنحربيط، وهو أحسن صانع للعيدان وأهداه إليه. جدي كان قلبه أخضر، يحب الغناء والمغنين ويطرب لأغانيهم، وكان في ذلك الوقت يملك فونوغرافا يضع عليه أسطوانة لينبعث منها صوت يقول:

"أسطوانات بيضفون"، محمد عبد الوهاب. فينطلق صوت محمد عبد الوهاب وهو يغني: "النيل نجاشي"، و"في البحر لم فتكم"، و"يا ناعما رقدت جفونه" وغيرها من الأغاني.

كان المغرب في تلك الفترة من بداية الخمسينيات ما زال تحت نير الاستعمار الفرنسي، وكان جواز السفر لا يحصل عليه من إدارة الحماية إلا الأعيان أو الحاصلون على الحماية الفرنسية والإنجليزية، وكانوا يسمون مَحْمِيِّين، كما كان يحصل على جواز السفر بعض الخونة ممن لهم علاقة مباشرة مع المقيم العام. بكثير من الفخر يقول جدي إنه قد حصل على جواز السفر، ولا يقول لنا من أي صنف هو، فهو ليس من الأعيان كما أنه لم يحصل على الحماية، وبالتأكيد فهو لم يكن خائنا لشعبه وملكه، وعندما كنا نسأله كيف حصل على جواز السفر نجده يبتسم ولا يقدم جوابا شافيا.

كان أول سفره إلى طنجة، فقد كان السفر من فاس إلى طنجة يتطلب جواز السفر للإدلاء به عند النقطة الحدودية بين جنوب المغرب المستعمر من قبل فرنسا وشماله المستعمر من قبل إسبانيا، وهي المسماة "الحدادة" عند "عرباوة" قرب القصر الكبير. يحكي لنا عن بعض المبتكرات الجديدة التي وجدها تباع في محلات الهنود بطنجة، كآلات الحلاقة الكهربائية التي اشترى منها واحدة، وآلات التصوير التي اقتنى منها واحدة، وأخذ بها بعض الصور

لمناظر طنجة متشبها بالسياح الأجانب الذين يحملون معهم كاميرات يلتقطون بها الصور لما يعجبهم من المناظر، وساعة "دوكَما" الذهبية التي وضعها في معصم يده اليسرى، والساعات ذات المنبه التي اشترى منها ثلاثا ليوزعها على أرجاء البيت، فهي تصلح للزينة، كما أن منفعتها كبيرة في معرفة الوقت وإيقاظ من أخذه النوم وهو على سفر، أو إن جاء رمضان فهي توقظ من أخذهم النوم قبل السحور ليتسحروا، وعطورًا باريسية ومرايا وأمشاطًا وحقائب صغيرة لحمل أدوات الزينة اشتراها لزوجاته كهدايا، ولم يكن جدي وهو يحكي عن سفره إلى طنجة يحكي عن هذه الأشياء التي اشتراها من هناك وكانت في وقتها مدهشة بل حكى لنا عن زيارته لضريح سيدي بوعراقية، وهو أكبر وليّ صالح بالمدينة، وعن وقوفه أمام البحر لأول مرة في حياته، ثم دخوله للميناء واكتشافه لباب البحر الذي ينفتح على الكثير من دول العالم، ولذلك عاد من سفره إلى طنجة وهو يخطط لسفر آخر إلى القاهرة.

حمل معه ما يحتاج إليه من أموال، ثم اشترى تذكرة سفر بالباخرة إلى مرسيليا، ومنها سافر بحرا إلى السويس، ثم جاء إلى القاهرة. حديثه عن القاهرة مشمول بأعز الذكريات وبالشجن، فقد اكترى بيتا في حي يسمونه "العجوزة" لشهر، ومن بيته كان يخرج كل يوم فيذهب إلى سيدنا الحسين، وخان الخليلي، والدقي، وباب اللوق، والعتبة، والجيزة. يجول في أحياء القاهرة الشعبية طوال

النهار. في الليل يتعشى من "حمام محشي" في المطاعم القريبة من سيدنا الحسين. يأخذ سيارة تاكسي تُعيده إلى بيته في حي العجوزة. ينام وهو يحلم بمصر أم الدنيا، كما يقول لنا. إن فاق من نومه في الصباح فهو يقصد النيل، وعندما يقف على حافة واحد من الكباري، يُغرق عينيه في الماء. يأخذه الشجن. يغني مع محمد عبد الوهاب:

سمعت في شطك الجميل

ما قالت الريح للنخيل

يسبح الطير أم يغني

ويشرح الحب للخميل

وأغصن تلك أم صبايا

شربن من خمرة الأصيل.

يحكى لنا أن دعابات المصريين وروحهم الخفيفة وميلهم إلى السخرية. يقول إن المغاربة شعب جهم، قليل الضحك والإضحاك، ولذلك فأصلهم البشري سوف ينقرض سريعا، أما المصريون فهم يجعلون من الحياة فكاهة، ولذلك تطول أعمارهم ويخلدون في الحياة. سألته:

ـ لماذا يا جدي لم تَحُجَّ إلى بيت اللـه الحرام؟

تردد قبل أن يقول لي:

ـ ذلك المقام الشريف لم يَدْعُنِي إليه، ولو دعاني لكنت قد استجبت.

أمازحه وأقول له:

ـ يا جدي أنت لا تزال تشتهي الحياة، لم تسأم منها والحمد للـه، وما زالت صحتك بخير وعلى خير، لا تشكو من مرض أو ألم، فهل نُزَوِّجك؟

يضحك ويقول لي:

ـ لا أحد يا إبراهيم يشبع من الدنيا، لكن الزواج له وقته، وقد فات الأوان.

عندما ألح عليه في موضوع الزواج يضحك ويقول لي:

ـ إن كَتَبَ اللـه لي امرأة أخرى فلمَ لا؟

تدخل زوجتي راضية معي في التواطؤ على موضوع زواجه. تقول له:

ـ آ عمي الضوبلي البس قدك يواتيك. يلا كانت امرأة في الخمسين من العمر يكون أحسن، تكون شاربة عقلها.

يقول لها:

ـ وأين هي؟

ـ تقول له:

ـ موجودة.

يسأل:

ـ أين هي؟

ـ في بيت الجيران.

ـ ما اسمها؟ تقول له:

ـ أسماء.

ـ هل هي أرملة أم مطلقة.

تخبره راضية:

ـ أرملة، وهي من أسرة طيبة، لا ترفع نظرها أمام الرجال.

يقول لها:

ـ تلك هي التي أريد.

بعد أيام يسأل راضية عن أسماء، تخبره بأنها بخير. يقول لها:

ـ أحب أن أراها.

ـ وهل سوف تتزوجها؟

ـ الأذن تعشق قبل العين. ما سمعته عنها جعلني أحبها، وإن شاء اللـه وقبلت أتزوجها.

نضحك. جدي أخذ مزاحنا على محمل الجِدّ، وتعلق بأسماء، فأصبح عاشقا حتى وهو قد تجاوز المائة. بدأ من حين لآخر يقول:

ـ أين هي أسماء؟

ـ متى تأتي أسماء؟

ـ أنا أحب أن أرى أسماء.

وما أسماء سوى امرأة من خيال زوجتي، لا وجود لها في الواقع. هل حقا يمكن لرجل تجاوز المائة أن يحب امرأة؟ أ السي مراد تأكدنا أنا وزوجتي راضية من أن جدي حتى وهو على هذه السن فما زالت له طاقة للعشق، ولعشق امرأة يريدها أن تنزل معه من عالم الخيال إلى أرض الواقع. ما الذي كان سوف يحدث بينهما لو نزلت؟ لا أعرف. فهل تعرف آ السي مراد ما يمكن أن يحدث بين جدي وقد تجاوز المائة وبين امرأة محتملة قد تقبل الزواج منه؟ أنا أعرف. أول ما سوف يفعله هو أن يُمَلِّكَهَا كل أملاكه على سبيل البيع والشراء لكي لا يترك لوارث ما يرث، ثم سوف يعيش حياته كزوج، وامرأته تأويه وتحويه، وهو يشعر بالسعادة.

لم نحسب أن الموت سوف يَتَخَطَّفُ عمي الضوبلي ليلة البارحة، الاثنين الواحد والثلاثين من ديسمبر 2012، وهي ليلة رأس السنة، وأن جنازته سوف تخرج من العمارة قبيل صلاة الظهر لِيُصَلَّى عليها في (مسجد عمر بن الخطاب) ثم يكون الدفن في (مقبرة القبب) في صباح الغد.

الموقف الثالث

أولى اليقظات

أرى العنقاء تكبر أن تُصَادَا
فَعَانِدْ من تطيق له عنادَا

(أبو العلاء المعري)

"يا رب، كثيرون قائمون عليّ، اجعل سروري أعظم من سرورهم. في الضيق رَحّبْتَ لي يا رب".

(المزمور الثالث من التوراة)

1

أنا في علياتي، في (طريق ملعب الخيل).

أسكن في العلياء.

لم أعد أخشى شيئا من طولي الغريب بعد أن اَلِفْته. أصبحت آلفُ نفسي وأنا على كل هذا الطول العجيب الغريب.

ألفة تمت بيني وبين جسدي.

ما ضرني شيء.

لست رابحا ولا خاسرا.

نظرت إلى (المدينة الجديدة). رأيت حركة غير عادية عند مدخل عمالة فاس ـ زواغة، ثم ظهر لي عامل المدينة في مكتبه وهو يُجري مكالمة هاتفية مع المراقب العام للأمن. سمعته يقول له:

ـ قبل حين اتصل بي السيد الوالي حول الوضع الأمني في المدينة.

ردّ عليه المراقب العام:

ـ ليس هناك ما يقلق، ونحن على أهبة الاستعداد لتنفيذ الأوامر.

قال له العامل:

ـ ألم تكفنا متابعة نشاطات الخلايا الإرهابية النائمة، ومظاهرات من ينتمون إلى حركة الرابع عشر من فبراير، والجرائم اليومية التي تعرفها المدينة، لنزيد على ذلك شائعة الرجل الطويل؟

ردّ عليه المراقب العام للأمن:

ـ نحن على تمام الاستعداد لمكافحة الشغب كيفما كان مصدره.

ـ أريد أن يصل إلى مكتبي تقرير مفصل عن الوضعية في المدينة، وفي الحال، قبل أن أخرج بنفسي لمعاينة الأوضاع.

ـ سيصل في الحال.

انتقل نظري إلى مديرية الأمن. رأيت المراقب العام يجتمع مع عمداء الشرطة وبعض الضباط. بعد أن استمع إلى تقاريهم الشفهية طلب منهم أن ينسحبوا. دعا الكاتب لأن يكتب التقرير. فأخذ يمليه عليه.

وزارة الداخلية
مديرية الأمن
فاس

من المراقب العام للأمن، إلى السيد العامل

تحية وسلام بوجود مولانا الإمام

وبعد:

الموضوع: تقرير حول الحالة الأمنية بمدينة فاس ليوم الثلاثاء الفاتح من يناير 2013

مسجل تحت عدد: 3 أ 4212

نص التقرير:

إنه في صباح يوم الثلاثاء الفاتح من يناير 2013، وفي حدود الساعة العاشرة صباحا، لاحظت أجهزة الأمن بالمدينة صعود جحافل من السكان من كل أحياء المدينة القديمة مشيا على الأقدام إلى المدينة الجديدة، فمنهم من خرجوا من أحياء (باب الفتوح) فأخذوا الطريق الصاعدة إلى ساحة المقاومة، ومنهم من خرجوا من أحياء (الصَّفَّاح) و(الكدَّان) و(رأس الجنان) و(البليدة) و(عين الخيل) و(بوعجارة) فقصدوا الطريق الجديدة. عند ملتقاها مع

الطريق الصاعدة إلى (ساحة المقاومة) التقى الجحفلان فتكاثر العدد حتى أصبح يناهز العشرة آلاف نسمة، من رجال ونساء وأطفال، زاد عليهم عدد آخر ممن جاءوا من جهة البطحاء وهم من سكان (الزَّرْبَطَانَة) و(حومة الدوح) و(الطالعة الكبيرة) و(الطالعة الصغيرة) و(قصبة الأنوار) و(قصبة الشمس) ومن جاءوا من جهة (باب السَّمَّارِينْ) وهم من سكان (الْمَلاَّح) و(فاس الجديد)، فوقع التزاحم على الطريق الصاعدة إلى (ساحة المقاومة)، مما عرقل حركة السير، فاضطرت أجهزتنا إلى إغلاق طريق السيارات نظرا لكثرة عدد الراجلين.

لاحظت أجهزتنا الأمنية أن اتجاه السكان كان هو (ساحة المقاومة). لم يكونوا يرفعون شعارات سياسية أو نقابية. لا يحملون لافتات، وهم في الغالب لا ينتمون إلى حركة من حركات الاحتجاج. وبيقظة أجهزتنا الأمنية وحرصها على الأمن، وحزمنا، أخذنا نتابع كل الحركات والسكنات، فأعددنا العدة لكل أمر متوقع. بثت أجهزتنا الأمنية العيون بين أولئك السكان الصاعدين على الطريق على شكل جماعات وقمنا بالعمليات الاستخباراتية من خلال العيون التي بثثناها بين المحتشدين، فوجدنا أن كل سكان (المدينة القديمة) يرغبون في التوجه نحو طريق ملعب الخيل، والسبب في ذلك هو أن شائعة قد سرت بينهم كما تسري النار في الهشيم، مفادها أن رجلا اسمه مراد الأشقر، خرج من العمارة التي يسكنها ثم عندما

وصل إلى طريق ملعب الخيل ليمارس رياضته الصباحية فأصبح طويلا طولا غير عادي، ويقولون إن برنامجا تليفزيونيا يتعلق بشريط سينمائي شرعت في تقديمه التلفزة المغربية ثم لم تبثه، موضوعه هو مراد الأشقر نفسه، الرجل العادي الذي تحول إلى رجل طويل طولا غير عادي، وعندما لم تبث التلفزة الشريط بقي في نفوسهم شيء من الفضول.

تلقت قواتنا الأوامر بقطع الطريق عليهم عند ساحة المقاومة، وذلك بوضع المتاريس ومنع أي أحد من تجاوزها، تحسبا لحوادث محتملة أو مناوشات يُحتمل أن يقوم بها بعض المخربين، الذين قد يستغلون الوضع ليكسروا واجهات المتاجر وزجاج السيارات ويعتدوا على البنوك، وقمنا بوضع شارعي محمد الخامس والحسن الثاني وساحة الأطلس تحت مراقبة شديدة، كما وجهنا أوامرنا إلى عمداء الشرطة ليوجهوها إلى جميع رجال الأمن، لكي لا يقوموا باستفزاز المواطنين، بأي شكل من الأشكال، حتى لا تَحْسِبَ علينا بعض المنظمات الحقوقية ما يمكن أن يقع من تجاوزات.

خلاصة التقرير: حسب التقارير التي وصلت إلى علمنا من جهاتنا الاستخباراتية فليست ثمة نية للسكان في القيام بأي عمل تخريبي أو عدواني، ونحن ننظر في طريقة تصريف الوضع بهدوء، ليعود السكان إلى أحيائهم وبيوتهم.

ملاحظة: بحثنا عن مراد الأشقر موضوع الشائعة فوجدنا أنه كان موظفا في إدارة المحافظة العقارية. تقاعد قبل عامين. عمره 62 سنة. لا سوابق له. لا ينتمي إلى أي حزب سياسي أو حركة احتجاجية. اسمه غير مدرج في لوائح المبحوث عنهم بسبب تكوين خلايا إرهابية، حسب ما انتهى إلى علمنا. عازب، يسكن في عمارة الحاج السحنوني الكائنة بشارع قاسم أمين، الشقة 6. ونحن بصدد استكمال التحقيق.

تقبلوا سيدي العامل، خالص عبارات احترامي وتقديري.

المراقب العام للأمن الوطني
إدريس بنرابح

طلب من الكاتب أن يرسل التقرير إلى السيد العامل. ثم اتصل بالهاتف بالزبير رئيس قسم الاستعلامات.

2

رأيته وعرفته كما أعرف أصابع يديَّ العشرة.

تذكرت أنه كان يأتي إلى الحانات التي أشرب فيها الخمرة في ذلك الزمن القديم من السبعينيات، وكان يُشار له بالبنان على أنه رجل خطير. السكاري يخرسون بمجرد أن يدخل الحانة حفظا لألسنتهم من أن تنطق بكلام يَسْتَشِفُّ منه المساس بالأمن العام، أو بأمن الدولة، فقد كان يشعر أنه هو الدولة، وإن لم يكن الدولة فهو حاميها من فاسدين يريدون قلقلة الاستقرار بهدف قلب نظام الحكم في البلاد. كان يتصور أن كل من يتكلم في الحانة بكلام عادي يرمز بكلامه إلى شيء له علاقة بقلب نظام الحكم. لذلك كان الخرس يصيب الجميع. لم يكن ذلك مجرد فوبيا يُحدثها حضوره في الحانة، بل كان هو أيضا يساعد على تلك الفوبيا، باتصالاته

الهاتفية التي يسمعها الجميع، وهو يتحدث بما يشبه ما قاله الحجاج بن يوسف الثقفي في خطبته المشهورة. كان يتحدث مع مخاطبه عن الرؤوس التي أينعت وحان قطافها. وأي قطاف! نحن لسنا في زمن قطع الرؤوس ولكننا في زمن الاعتقال التعسفي والتعذيب الذي يصل إلى درجة القتل والدفن الجماعي لجثث الضحايا. حجاج معاصر يحضر معنا، لكنه طور أدواته في التعذيب والقتل بأدوات عصرية، وغيَّر اسمه من الحجاج إلى ثلاثة أسماء أولها الزبير، وهو اسمه الحركي، وعبد السلام ماجاش، وهو اسمه الحقيقي، وشارل برانسون، وهو الاسم الذي يختاره لنفسه، أما روّاد الحانات فيسمونه، فيما بينهم، الحنش.

من عليائي رأيته. عرفت أنه يستعصي عليه نظرا لطولي العجيب أن يراني وأن يعرفني. وحتى وإن رآني فهل ما زال يحتفظ بذاكرته التي ترجع إلى السبعينيات ليعرفني ويرى في عيني تاريخا من تاريخه كجلاد؟

الجلادون غالبا ما ينسون ضحاياهم، لكن الضحايا لا ينسون جلاديهم.

في (حانة المارينيون) أو في (حانة جيلدا) أو في (حانة المنار الفضي) كان حضوره يُفسد على الناس بهجتهم. كل واحد منهم يتصور أنه مطلوب في هذه الليلة لجلسة من جلسات التعذيب تعقبها

جلسة من الأسئلة عن شخص معتقل، ربما يكون جارا في الحي أو زميلا في العمل. الإنكار لا يفيد، وكل المعلومات مطلوبة. جلسات التعذيب يمكن أن تتكرر لعدة أيام. الاعتراف ضروري. أي اعتراف؟ وبماذا؟

هو الزبير، كثيرا ما كان يتصل بالهاتف لتحضر دورية الشرطة فتغلق باب الحانة وتأخذ كل من فيها للتحقيق، على سبيل اصطياد مناضل ثوري من الطلبة أو من تنظيم نقابي ضاقت به الحال فدخل الحانة ليشرب كأسا. كم اعتقل من المثقفين وزعماء التنظيمات الطلابية والنقابية، ولفق لهم في أول تهمة تهمة شرب الخمر التي كان يشربها معهم في نفس الحانة، ثم جعل من تلك التهمة سبيلا إلى الوصول إلى التنظيمات المناهضة للنظام، بكل فصائلها. كان يقول وهو سكران في الحانة:

"صيد ألف سكران في الحانات يكشف عادة عن عشرة ثوار. أنا أعرف شغلي ولن يُعلمني أحد كيف أشتغل. إن كشف التحقيق عن ثائر واحد فنحن لا نخسر شيئا، وإنما نربح القبض على ذلك الثائر لنعلمه دروسا في استقرار الوطن، ودروسا أخرى في حب الملك، ودروسا أخرى في الانصياع إلينا. إن لان استلطفناه وإن خشن حولناه إلى آلة التعذيب، وإن مات تحت التعذيب نحذف اسمه من الحالة المدنية ويصبح كأنه لم يولد، ولم يكن، ومقبرة جثته في

الأماكن التي نحن، بذكائنا الخارق، ندفن فيها الجثث، وهي أماكن لا يتصورها أحد، فمن بينها حديقة (جنان السبيل)".

في الحانات كلها، (حانة المارينيون)، و(حانة الإكسلسيور) و(حانة دليلة) و(حانة جيلدا) وحانات أخرى، كان السكارى يشربون خمرهم صامتين وهم أقرب إلى البكاء، يُحدثون أنفسهم بأحاديثهم الخاصة ومنهم من يتمتمون حتى أصبحت التمتمة عادة من عاداتهم، كلما دخل الزبير الحانة ووجدها صاخبة بالأحاديث والناس يضجون ويبتهجون، يحكون تفاصيل عن حياتهم أو يتذكرون أشياء من ذاكرتهم يحكونهم لمن يجالسونهم. مع الكأس تتحرر الألسن ويكثر الكلام، ويأخذ رواد الحانة في أحاديث متقاطعة كلها تتصل بالبوح، وكل واحد يبوح للآخر، وعندما يصبح البوح سيد المكان، فقد كان يدخل الزبير، وبحركات شديدة الاعتداد بالنفس يجلس إلى الكونتطوار. يرسل تحية بحركة من يده إلى الساقي. كل من يجلسون إلى الموائد يلتزمون الصمت. واحد يقول بهمس:

ـ الحنش دخل الحانة.

آخر يقول: (موجها كلامه إلى من يجلسون على الموائد):

ـ إيوا صافي. بارا من الكلام.

ـ واحد يقول:

ـ آش كاين؟

آخر يرد عليه:

ـ الحنش دخل الحانة.

يصمت الجميع. تفقد الحانة بهجتها ويصبح شرب ذلك الشراب مثل شرب الزعاق".

هو الزبير، أو عبد السلام ما جاش.

رأيته يتثاءب وهو ممدد في فراش نومه. حالما رأيته عرفته، رغم ما بدا عليه من آثار السنين، فقد تَجَعَّدَ وجهه الْمُفَلْطَحُ وغارت عيناه وبرزت جبهته العريضة بعد أن غزا مقدمة رأسه الصلع. صفرة كأنها صفرة الموت بادية عليه، كما تبدو عليه مظاهر الدوار. اسمه الحركي الزبير، واسمه الحقيقي عبد السلام ماجاش، وهو من كان بطلا من أبطال تعذيب المواطنين في تلك السنوات التي تسمى سنوات الرصاص. اسمه مدرج في اللوائح التي أعدتها جمعيات حقوق الإنسان حول من قاموا بتعذيب المواطنين في تلك السنوات. كان مجرد أداة لممارسة التعذيب على المواطنين، ثم ترقى إلى منصب رئيس قسم الاستعلامات. زوجته وهي نصف عارية، هي التي أيقظته ثم قدمت له الهاتف المحمول وهو يرن. بدا مرتبكا، مضطرب الحركات، وعينيه زائغتين. قالت له:

ـ عبد السلام، قم. لديك مكالمة.

أخذ منها الهاتف المحمول وقال:

ـ آلو. من معي؟

وجد أن من معه هو مدير الأمن. قال له:

ـ السي عبد السلام. لا شك أنك تتابع ما يحدث في ساحة المقاومة.

ردّ عليه:

ـ احتراماتي نعم آس. أقول لك صباح الخير أولا.

بدا صوت مدير الأمن غاضبا وقال له:

ـ صباح الخير أولا وثانيا. أسألك هل أنت تتابع ما يحدث في ساحة المقاومة.

ارتبك الزبير ثم قال:

ـ أنا وأجهزتي نتابع الموضوع عن كثب. كنت على وشك أن أتصل بك. لكن الصورة لم تكتمل. حالما أدقق في المعلومات سوف أتصل بكم، وأبعث بكل التفاصيل. احتراماتي نعم آس.

بدا لي واضحا أنه لا يعرف شيئا عما يقع في (ساحة المقاومة)، فهو لم ينهض من فراشه بعد. حاصره مدير الأمن بعدة أسئلة فأخذ يتملص منها محاولا أن ينهي المكالمة قبل أن يكتشف مدير الأمن

جهله بالموضوع. قال ليحسم المكالمة:

ـ أنا سأتصل. سأتصل بعد قليل.

إذا ما أراد أن يتصل بمدير الأمن فماذا سوف يقول له؟ افترضت لو أنه قد عاين شيئا مما يقع في فاس، فسوف يستغله لتوريط بعض الضحايا فيما ليس لهم فيه شأن، على سبيل تصفية بعض الحسابات، وليظهر أمام زملائه ورؤسائه بأنه هو من يملك في يده بعض الأوراق التي لا يملكونها، وهو يلعب بها كما يشاء، كما أنه من خلال تلك الأوراق يظهر بمظهر رجل الاستعلامات الجاد، فالكل يعرف أنه يقوم بالتسلل لعدة مجالات يعرف من خلالها كل شاذة وفاذة عن التنظيمات الحزبية والحقوقية والجمعيات الثقافية وجمعيات المجتمع المدني والحركات الطلابية في الجامعة والإدارات العمومية والشركات والمعامل، فلا يخفى عليه شيء بفضل العيون التي يبثها في كل هذه المجالات، ومنهم موظفون وطلاب وأشباه مناضلين في الجمعيات الحقوقية يسترخصون كل شيء ليصبحوا مبلِّغين. لذلك تأتي إليه الأخبار إما بمبالغ مالية صغيرة أو بحل مشاكل تتعلق بتجارة المخدرات أو بقضايا في المحاكم. وهو لا يكتفي بتلك العيون التي بثها هنا وهناك، بل إنه يستقي معلوماته أيضا، من ماسحي الأحذية ونادلي المقاهي والحانات وسائقي سيارات الأجرة.

نهض من فراشه وهو هَلِعٌ. أجرى مكالمة مع أحد معاونيه علم من خلالها ما وقع في المدينة. توترت عضلات وجهه فقال للمعاون:

ـ من هذا الذي تدور حوله الشائعة؟

ردّ عليه المعاون:

ـ يقولون اسمه مراد الأشقر.

قال وأطراف أصابعه ترتعش:

ـ كل يوم يطلعون علينا بشائعة من الشائعات.

قال له المعاون:

ـ ساحة المقاومة اختنقت فيها حركة السير، والحواجز تمنع المرور.

قال:

ـ كل هذا يحدث وأنا نائم؟ أليس من حقي أن أنام في صباح يوم الأحد هذا، الأول في السنة الجديدة؟ صافي صافي هذا عام أكحل. العام الجديد بدا أكحل.

قطع المكالمة. عندما اقتربت منه زوجته لتعرف ما حدث أبعدها بحركة عنيفة من يده. ذهب إلى المغسلة فغسل وجهه بالماء البارد

محاولا أن يزيل عنه آثار الخمر. أخذ يرتدى ملابسه. قالت له:

ـ أنت لم تعد إلى البيت إلا مع طلوع الفجر.

صَمَّ أذنيه بإبهاميه وأخذ ينتعل حذاءه. قالت له:

ـ استمتعت بالسهرة؟ لو أخذتني معك إلى أحد الفنادق لنتعشى ونسمع الموسيقى لما كان هذا النكد قد أصابك.

وقفت أمامه كنمرة تُخرج مخالبها:

ـ قضيت ليلتك مع امرأة؟ هل هي أجمل مني؟

عاد يصم أذنيه بإبهاميه. قالت:

ـ مساء أمس أتى أحدهم بخروف مشوي.

قال لها:

ـ ضعيه في الثلاجة.

ـ وجاء آخر بسمكة كبيرة.

ـ ضعيها في المجمد.

ـ وأتي أحدهم ب...

قاطعها وقال:

ـ بالخراء. كُلِيه وأغلقي فمك.

تنمرّت وقالت:

ـ أنا آكل الخراء؟ وأنت ماذا تأكل؟ الجيف؟ بطون الموتى؟

صَمَّ أذنيه بسبابتيه. قالت له:

ـ وما الذي أتتك به المكالمة، ما الذي وقع في فاس، تفجير إرهابي، عمارة انهدت على ساكنيها، حريق شب في المنطقة الصناعية، رجل ذبح زوجته وأولاده الثلاثة؟

وقف أمامها يداري ما يشعر به من دوار. قالت له:

ـ قل، ما الذي وقع اليوم في فاس؟ أخبرني حتى أجد ما أخبر به جاراتي وصديقاتي في صالون الحلاقة.

لم يرد عليها. خرج مهرولا. ركب سيارته وقصد (ساحة المقاومة). ركن السيارة عند زاوية (معهد تعليم اللغات). تلفن لأعوانه فالتقى مع ثلاثة منهم في ذلك المكان. تحدث معهم. طلب من أحدهم أن يرافقه ومن الآخريْن أن يبقيا في عين المكان ليراقبا ما يحدث وليتسقَّطا الأخبار. ركب سيارته ومعه المعاون. ساق السيارة إلى (شارع قاسم أمين). نزل منها هو ومعاونه، عند باب عمارة الحاج السحنوني. رأى كراسي خشبية تمتد على الرصيف، فعرف أن الأمر يتعلق بجنازة سوف تخرج من العمارة، سأل عن الميت فوجد من قال له إنه عمي الضوبلي، رجل تجاوز المائة.

كان أول من التقى به هو إدريس. سأله:

ـ أنت حارس العمارة؟

ـ أنا هو. اسمي إدريس.

ـ جنازة من؟

ردّ عليه إدريس:

ـ جنازة عمي الضوبلي. رجل تجاوز المائة. البارحة توفاه اللـه.

ـ مراد الأشقر يسكن في هذه العمارة؟

ـ يسكن بها.

في تلك اللحظة خرج إبراهيم، حفيد عمي الضوبلي من باب العمارة. تصيَّده الزبير وقال له:

ـ أنت ساكن في العمارة؟

ردّ عليه إبراهيم:

ـ ساكن.

ـ جنازة من هذه التي سوف تخرج هذا الصباح من العمارة؟

ـ جنازة جدّي.

ـ جدك؟

توترت أعصاب إبراهيم وقال للزبير:

ـ من أنت؟ من هذا الذي معك؟ هل جئتما للعزاء أم لشيء آخر؟

قال إدريس لإبراهيم:

ـ آ السي ابراهيم هذا الرجل ومن معه من المخزن.

قال إبراهيم:

ـ ولماذا يأتي المخزن للعمارة في هذا الصباح؟ نحن لا نتاجر بالمخدرات ولا نسرق أموال الدولة ولا نمارس الفساد، وليس عندنا مجرمون هاربون من العدالة.

قال له الزبير:

ـ ما عملك؟

ردّ عليه إبراهيم:

ـ قابض في شركة الماء والكهرباء. هل هذا تحقيق معي؟

قال له إدريس:

ـ اسألهما لماذا جاءا، حتى يمر هذا الصباح بسلام.

قال الزبير:

ـ جئنا نسأل عن مراد الأشقر.

قال لهما إدريس:

ـ هل شاهدتما مقدم برنامج عالم السينما وهو يتحدث عنه؟

نهره الزبير:

ـ أنا أسأل عن مراد الأشقر الذي يسكن في العمارة، وليس عما قاله معد برنامج عالم السينما.

قال له إدريس:

ـ السي مراد رجل طيب، لا يسمع له صوت في العمارة. خرج هذا الصباح بلباسه الرياضي ليتريض في طريق ملعب الخيل، وهو لم يعد بعد.

سأل الزبير:

ـ وصلتكم شائعة الرجل الطريل الذي يقال إنه هو مراد الأشقر؟

قال له إدريس:

ـ ذلك ما قاله معد برنامج عالم السينما. أما السي مراد الساكن في العمارة فقد قضى ليلته في شقته وخرج في الصباح.

قال له الزبير:

ـ إلى أين ذهب؟

ـ إلى طريق ملعب الخيل.

ـ وما علاقته بطريق ملعب الخيل؟

ـ هناك يتريَّض.

ـ وكيف عرفت أنه يذهب لطريق ملعب الخيل لكي يتريض؟

ـ لأنه يخرج من باب العمارة كل صباح ويتجه إلى هناك بلباسه الرياضي ليتريض.

ـ وهل كل من يرتدي لباسا رياضيا يتريض؟ ما أغباكم! أنا لا أطيق مثل هذا الغباء.

قال له إبراهيم:

ـ نحن لسنا أغبياء. جدي توفي ليلة أمس، وأنا مشغول بإعداد الجنازة. ليس لديّ وقت للشائعات.

سأل الزبير إدريس:

ـ متى خرج مراد الأشقر من باب العمارة؟

ـ في السابعة صباحا، كعادته كل يوم.

التفت الزبير نحو إبراهيم وسأله:

ـ وأنت ماذا تقول عن مراد الأشقر؟

رد عليه إبراهيم:

ـ بعد أن سمع ولولة امرأتي في شقتي عرف أن جدي قد ذهب إلى دار البقاء، وكان أول من جاء يعزيني.

ـ في أية ساعة؟

ـ نحو الثانية صباحا.

ـ هل هو قريب لك؟

ـ هو جار ونعْم الجار. كان صديقا لجدي المرحوم، يجلس معه في مقهى السعادة القريب من العمارة، يشربان الشاي ويتحدثان.

ـ فيم كانا يتحدثان؟

ـ لم أكن معهما. لكن جدي أخبرني بأنه كان يُحَدِّثُ مراد عن ذكرياته، وما كانت عليه فاس في عهودها السابقة.

ـ هل كان يشرب الخمر؟

ـ لم نلاحظ ذلك.

ـ هل كان يتعاطى المخدرات؟

ـ مراد ليس من ذلك النوع من الناس الذين يتعاطون المخدرات.

ـ ما دمنا نعرف أنه قد عاش عازبا، حتى وقد تجاوز الستين، هل كان يستقبل النساء في شقته؟

ـ لم نلاحظ شيئا من هذا القبيل.

ـ من كان يزوره في الشقة؟

ـ ثلاث بنات يبدو أنهن من أسرته.

ـ وكيف عرفت أنهن من أسرته؟

ـ هن بنات محجبات، كن يزرنه ثلاثتهن مجتمعات، ولم يكن يزوره غيرهن.

ـ ألم يكن يستقبل أحدا غيرهن في بيته؟

ـ في بعض ليالي السبت كان يستقبل ضيوفا لعلهم من أفراد أسرته أو من معارفه وأصدقائه.

ـ ها أنتِ تقول إنه لم يكن يستقبل أحدا غيرهن، ثم تقول إنه كان يستقبل ضيوفا. يجب أن تكون مسئولا عن كلامك.

ـ إذا كان هذا تحقيقا معي فأنا لست مستعدا له الآن.

ـ ولماذا أنت غير مستعد؟ قل لنا لماذا كان مراد يستقبل ضيوفه في ليالي السبت، هل كان يعقد في بيته سهرات؟

ـ لم نكن نسمع ضجيجا أو موسيقى مرتفعة، ولذلك لم يتدخل أحد في جار يستقبل ضيوفه.

ـ متى كان أولئك الضيوف يغادرون شقة مراد؟

ـ لم نكن نتجسس عليه.

في تلك اللحظة أقبل عليهم دًا أحماد البقال وقد كان من زاوية العمارة يتلصص على حديثهم، فقال:

ـ مراد. أواه هاك آوا. رجل زين. كلامه حلو، رجل خفيف وظريف، ولكن ما عندوش كناش الطلق فالحانوت ديالي. تيشري وتيخلص. ما كاين مزاح.

ـ سأله الزبير:

ـ وماذا كان يشتري؟

ـ ما عندي فالحانوت. الزيت والسكر وشي مرة الكاشير والزبدة والكونفتير. الخبز أوهُو، تيشريه من المخبزة.

ـ صافي. صافي. سر لحانوتك.

قال الزبير لإدريس:

ـ أنت الحارس تعرف كل شيء، ولا تبلغ لنا عن أي شيء.

قال له إدريس:

ـ لست مستخدما معكم. وأنا على فقري وحاجتي إلى المال لا أحب أن أكون مبلغا، فهو تريد مني أن أتجسس على الناس وآتيك بأخبارهم؟ ذلك ما لن أفعله.

ـ نترك الآن أخبار الناس لأعلمك كيف تأتيني بها أولا بأول، ونكتفي بمراد الأشقر. متى كان يخرج مراد من العمارة ويعود إليها؟

ـ في السابعة صباحا، وكان يعود في تمام الساعة الثامنة.

ـ وفي المساء متى كان يخرج؟

ـ في المساء لا أكون بباب العمارة. لا آتِ إلى حراسة العمارة والسيارات إلا مع السابعة أو الثامنة مساء.

ينظر إلى ساعته ويقول لإدريس:

ـ واليوم بلغت الساعة العاشرة صباحا ولم تره يعود في وقته المعتاد، في الثامنة كما قلت.

ـ لم أره يعود. أنا بتُّ ليلتي أحرس العمارة والسيارات، ووقت عملي انتهى. يجب أن أذهب لأنام.

ـ أين تنام؟

ـ في بيتي.

ـ أين يقع بيتك؟

ـ في جنان الحريشي.

ـ متزوج؟

ـ تزوجت ثلاث مرات وطلقت ثلاث مرات.

ـ ولماذا تزوجت ثلاث نساء وطلقتهن؟

ـ هذا شأني معهن وشأن القاضي الشرعي. هل تريد أن تتدخل في حياتي الخاصة وفي شأن القضاء؟

ـ سأتدخل، ولكن ليس الآن. نادِ الحاج السحنوني وسكان العمارة.

غاب إدريس قليلا ثم نزل ومعه الحاج السحنوني صاحب العمارة وزوجته شمس الضحى وابنته قمر، ومعهم من سكان العمارة عبد المولى وأخوه عبد الرفيع اللذان يسكنان معي في الطابق الثاني، وحضرت الزاهية منظِّفة أدراج العمارة، ثم جاء حميد الزَّيَانِي. وقفوا مبهوتين أمام الزبير ومرافقه. أول من تكلم هو الحاج السحنوني، قال:

ـ احتراماتي لرجلي الأمن. إذا كانت لي معلومات أقدمها عن مراد الأشقر، فهو أولا، ابن خال زوجتي هذه لالة شمس الضحى.

قال له الزبير:

ـ وثانيا؟

قال الحاج:

ـ ثانيا هو واحد من سكان العمارة.

قال له الزبير:

ـ وثالثا:

قال الحاج:

ـ هو رجل طيب، مسالم، لا يتخاصم مع أحد، ولم نر منه أية شائنة، ولعلمكم فهو كبير السن، رصين وعاقل، لا يتدخل في شئون الآخرين.

قال له الزبير:

ـ قل لنا آ الحاج رأيك فيما وقع.

قال له الحاج:

ـ وماذا وقع؟ أنا لا أعرف ما وقع لمراد. هل نزل عليه ظلم بأنه قد اغتصب فتاة صغيرة، هل دعاه إلى المحكمة جار بتهمة جائرة أراد منها إفراغه من الشقة التي يسكنها في عمارتي؟

قال له الزبير:

ـ أنا من يسأل آ الحاج.

قال له الحاج:

ـ اسأل.

قال له الزبير:

ـ الموضوع يتعلق بشائعة حول مراد الأشقر، وقد خرج للتريض في طريق ملعب الخيل، ثم تحول إلى رجل طويل طولا غير عادي.

ضحك الحاج وقال للزبير:

ـ يا سيدي يا ابن مولاي الموضوع الذي تتحدث عنه وقع البارحة وليس في صباح هذا اليوم، لكنه وقع في شريط تليفزيوني.

ـ شريط ليلة البارحة الذي لم تقدمه التلفزة.

ـ تماما. بعد أن رأينا ليلة أمس مُعِدَّ برنامج عالم السينما وسمعناه يتحدث عن شريط سوف يظهر فيه مراد الأشقر كرجل طويل خارق للعادة. أصابنا العجب.

ـ وماذا فعلتم؟

ـ صعدنا إلى شقته أنا وزوجتي هذه، شمس الضحى، وابنتي قمر، هذه، فوجدناه رجلا عاديا، تحدث معنا بشكل عادي.

ـ فيم تحدثتم معه؟

ـ فيما قاله مُعِدُّ برنامج عالم السينما.

ـ وماذا قال لكم؟

ـ هو نفسه كان مستغربا لحديث مُعِدِّ البرنامج، وقال لنا إن بطل الشريط هو مراد الأشقر آخر وليس هو.

ـ وهل صدقتم كلامه؟

ـ صدقنا. ولماذا لا نصدق؟ مراد كان رجلا عاديا، وما بقي في ابنتي قمر هو أن مُعِدَّ البرنامج ذكر اسمها كاملا: قمر السحنوني، وذكر أنها ابنة صاحب العمارة، الحاج السحنوني الذي هو أنا.

ـ وكيف تفسر ذلك آ الحاج؟

ـ من يفسر لنا الأمر هو مخرج الشريط.

ـ وهل لمراد الأشقر علاقة بمخرج الشريط.

ـ عندما سألناه هذا السؤال نفى هذه العلاقة.

ـ هل كان محرجا؟

ـ ربما من زيارتنا المفاجئة لبيته.

ـ هي المرة الأولى التي زرتموه فيها في بيته؟

ـ ليست هي المرة الأولى، فهو ابن خال زوجتي شمس الضحى، وهي ابنة عمته. تزوره من حين لآخر. كما أن ابنتي قمر تزوره بعلمي وبإذن مني.

ـ ولماذا تزوره؟

قالت قمر:

ـ يعطيني كتبا أقرأها.

سألها:

ـ الآنسة طالبة؟ أريد أن أعرف هل كانت لمراد علاقة مع الطلبة.

ردت عليه:

ـ أنا موظفة في وكالة للأسفار تابعة للخطوط الملكية المغربية.

ـ ولديك الوقت لقراءة الكتب التي يقدمها لك مراد؟

قالت شمس الضحى:

ـ مسكين مراد ابن خالي، يحتمل أن يكون ما وقع له في صباح هذا اليوم سحرًا من عمل ساحر.

قالت لها ابنتها قمر:

ـ يا ماما أي سحر؟ خلاص. باركا من التخريبق.

كان عبد المولى واقفا بجلبابه الأبيض وطاقيته البيضاء على رأسه يتابع الحديث. التفت نحوه الزبير وقال له:

ـ أنت ساكن في العمارة؟

رد عليه عبد المولى:

ـ ساكن، وفي نفس الطابق الذي يسكن فيه مراد.

ـ هل لديك شيء تقوله عن مراد الأشقر؟

ـ الرجل لا يعمل بالسنة النبوية ولا يصلي مع المسلمين في المساجد.

ـ كيف تفسر ما وقع له؟

ـ كل ما يصيبنا من عند اللـه. ذاك عقاب أنزله به اللـه تعالى في الدنيا قبل عقاب الآخرة.

قال له الحاج السحنوني:

ـ لو كان اللـه تعالى يعاقب كل من لا يعملون بالسنة النبوية، ولا يصلون مع المسلمين في المساجد لرأيت السواد الأعظم من هذه الأمة قد أصبحوا على تلك الحالة التي يقولون إن مراد قد صار عليها.

ـ قال عبد المولى:

ـ إن اللـه يمهل ولا يهمل.

ظل عبد الرفيع شقيق عبد المولى يقف صامتا، بجلبابه الأبيض وطاقيته البيضاء. التفت إليه الزبير وسأله:

ـ وأنت أيضا ساكن في العمارة؟

رد عليه:

ـ ساكن في العمارة.

قال له الزبير:

ـ ما رأيك في مراد الأشقر؟

قال:

ـ هو إلى جهنم، لأنه كما قال أخي لا يعمل بالسنة النبوية ولا يصلي مع المسلمين في المسجد.

قالت له الزاهية:

ـ اللـه وحده يعرف من سوف يذهب إلى الجنة أو إلى النار.

بدا عليها الغضب وأرادت أن تقول كلاما آخر. توجه إليها الزبير وقال لها:

ـ ومن أنت؟

قالت:

ـ أنا الزاهية منظفة أدراج العمارة. هذان الرجلان لا يؤخذ بكلامهما، لأن الرحمة لم تنزل على قلبيهما.

قال لها الزبير؟

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد أنهما بخيلان أشد البخل، لا تُشَمُّ رائحة الطعام من بيتيهما، وهما لا يرحمان من في الأرض فكيف يرحمهما من في السماء.

قال عبد الرفيع:

ـ هذه فاسقة لا يؤخذ بكلامها. أنا وأخي عبد المولى نؤتي الصدقات لمن يستحقونها ونُخرج الزكاة، ونقول الحق ولا نخشى فيه لومة لائم. رجل يسكن معنا في العمارة مسخه اللـه. عاش ممسوخا وسيبعث ممسوخا في يوم القيامة.

اتجه نحو الحاج السحنوني وقال له:

ـ أيرضيك آ الحاج أن يبقى ساكنا معنا في العمارة وهو ممسوخ؟

قالت الزاهية للحاج:

ـ هو وأخوه يتشفَّيان فيما وقع لمراد. قلباهما مليئان بالحقد والعياذ باللـه.

سألها الزبير:

ـ هل فرغت من تنظيف أدراج العمارة؟

قالت:

ـ فرغت من تنظيفها بعد أن غمرها ماء غُسل عمي الضوبلي. هذان الجاران، لو كانت فيهما مروءة لكانا قد قدما العزاء لجارهما إبراهيم الذي توفي جدُّه ليلة أمس.

تداركا خطأهما فأقبلا على إبراهيم يعزِّيانه. نهرهما الزبير:

ـ وقتي ضيق، ولا حاجة بي إلى التفرج على هذه المسرحية السخيفة.

قالت له الزاهية:

ـ يا سيدي لا تأخذ على الجلباب الأبيض والطاقية البيضاء. عبد المولى وعبد الرفيع لباسهما أبيض وقلباهما أسودان.

اعترض عبد المولى وعبد الرفيع على ما تقول بحركة من يديهما. زادت تقول:

ـ ويقول عبد الرفيع عني إني فاسقة. أنا أرملة أربِّي ابنتي وأعمل بعرق جبيني. تهمته تحتاج إلى دليل، وإلا فسوف أقلب عليه الدنيا. ها الحاج السحنوني يعرفني منذ أكثر من عشرين عاما. اسألوه هل أنا فاسقة.

سالت دموعها. أخذت تكفكفها بظاهر يدها. قال الحاج:

ـ أعود بالله من الشيطان الرجيم. الزاهية تجاوزت الخمسين وهي امرأة فقيرة، لم نر منها إلا الخير، ولا ينبغي لأحد أن يصفها بالفسوق.

قال الزبير:

ـ كفانا من هذا الخروج عن الموضوع.

اتجه نحو الزاهية وقال لها:

ـ قولي شيئا عن مراد.

قالت:

ـ السي مراد لم نر منه إلا الخير.

ـ أهذا كل ما تقولين؟ هل كانت له أسرار؟

ـ لم أكن أتجسس عليه لأعرف أسراره، ثم إن كل الناس لهم أسرار في حياتهم، حتى أنت آ السي الضابط.

توترت أعصاب الزبير وقال لها:

ـ حتى أنا؟

أكدت له:

ـ حتى أنت. ألست بشرا مثل كل البشر؟ وإذا أردت أن تعرف

شيئا عن مراد، فهو لا علاقة له بالفضائح التي تقع في العمارة.

ـ أية فضائح؟

نظر إليها الحاج نظرة لها معناها فتراجعت عما قالت:

ـ ليست فضائح، وإنما مشاكل تحدث في بعض البيوت.

قال لها الزبير:

ـ أردت أن تتحدثي عن فضائح تقع في العمارة ثم تراجعت عن أقوالك.

قال له الحاج:

ـ يا سيدي يا ابن مولاي هي تقصد بعض الخصومات التي تحدث بين الأزواج، وأنا وزوجتي وأولادي نقيم في العمارة، وكلما وجدت مكتريا لا يحترم الجوار أخرجه على الفور، بالتي هي أحسن.

ظل حميد الزَّيَانِي طوال ذلك الوقت صامتا وهو يطرق برأسه إلى الأرض ويتابع ما يجري من حديث. التفت نحوه الزبير وسأله:

ـ أنت ساكن في العمارة؟

رد عليه:

ـ ساكن.

ـ ماذا تعمل؟

ـ سائق حافلة للمسافرين.

ـ بين ماذا وماذا؟

ـ بين فاس والناظور.

ـ تُهَرِّبُ الويسكي من مليلية؟

ـ الطريق مليئة بحواجز الدرك التي تقوم بالتفتيش، وأنا لم يثبت عليَّ شيء من ذلك.

ـ ما رأيك في مراد الأشقر.

ـ مراد هو الجار الأعزب الوحيد في العمارة، وكل نساننا يحترمنه، لأنه يخفض بصره كلما التقى بهن على أدراج العمارة.

ـ هل تصدق أنه هو موضوع الشائعات، أقصد، مراد الأشقر الذي تحول إلى رجل طويل؟

ـ لا أصدق. سبب هذه الشائعات هو شريط فسيفساء الذي قدمه معد برنامج عالم السينما ولم تبثه التلفزة.

ـ إذن فهناك مراد الأشقر جاركم في العمارة ومراد الأشقر آخر هو من كان يظهر في الشريط.

ـ ربما!

ـ وأين يكون مراد الأشقر، جاركم في العمارة، في هذا الوقت؟

ـ لا أعرف.

ـ يقول الحارس إدريس إن من عادته أن يتريض في طريق ملعب الخيل من السابعة إلى الثامنة صباحا، وقد خرج اليوم في نفس الوقت ولم يعد.

قال حميد الزياني:

ـ ربما ذهب لقضاء بعض أغراضه وسيعود.

قالت شمس الضحى:

ـ يا رب. يا رب أعد مراد ابن خالي سالما إلى شقته في العمارة.

قال لها دًّا أحماد:

ـ آ لالة شميسة، فين غدي يمشي؟ يمشي حتى يعيى ويرجع.

قالت:

ـ يا ويلي! يرجع وهو طويل طويل؟ لا ما يمكنشي.

نظر الزبير إلى مرافقه ثم غادرا باب العمارة. عند مغادرتهما بقيَ سكان العمارة ينظرون إلى بعضهم وهم يقفون على قارعة الطريق. في تلك اللحظة باغتهم الشنتوف، صاحب محل لتعليم

السياقة يقع في أسفل العمارة، وهو يخرج من المحل يمشي على أربع، ولسانه مُدَلّى وتلك الرائحة تُشَمُّ من سراويله. نظروا إليه باستغراب. هو الآخر جار في العمارة، وزوجته هي ثريا صاحبة محل للحلاقة خاص بالنساء وتزيين العرائس. عندما أخذ يمشي أمامهم على أربع، وهو يحاول الوقوف فلا يستطيع، قال عبد المولى:

ـ وهذا، ألا يكون اللـه قد مسخه كلبا أو حمارا؟

قال عبد الرفيع:

ـ لعن اللـه شاربها وحاملها وبائعها.

قال عبد المولى:

ـ أم الخبائث.

وقال عبد الرفيع:

ـ يوم يُبعثون تتحول إلى نار في بطونهم.

قال عبد المولى للحاج السحنوني:

ـ أيُرْضِيكَ آ الحاج أن يكون من جيراننا في العمارة أسوأ خلق اللـه هذا؟ ألا تطلب منه الإفراغ لنرتاح من شره؟

قال له الحاج:

ـ ندعو له بالهداية والتوبة.

خرجت ثريا من محل الحلاقة. عندما رأت زوجها الشنتوف يسير على أربع هبَّت لمساعدته على الوقوف، وطلبت من إدريس أن يساعدها. ظل الشنتوف لا يقوى على النهوض. حمله إدريس والزاهية وهو يدفع بذراعيه وساقيه في الهواء. صعدا به إلى الشقة وثريا تسبقهما لكي تفتح الباب. انسحب عبد المولى وعبد الرفيع وحميد الزَّيَاني. انسحبت شمس الضحى وابنتها قمر. أخرج الحاج السحنوني من جيب جبته مبلغا ماليا قدمه لإبراهيم وقال له:

ـ هذا عزائي في المرحوم جدك. كان رجلا بركة، رحمه اللـه.

شكره إبراهيم وهو يأخذ المبلغ. قال له الحاج:

ـ مصاريف الجنازة كثيرة. سَأُوَسِّعُ عليك. لن تدفع كراء هذا الشهر.

عاد إبراهيم يشكره. سأله الحاج:

ـ هل أعددتم كل شيء للجنازة والدفن؟

قال له إبراهيم:

ـ أعددنا كل شيء. لكن جدي ولد ثلاثة عشر ولدا وبنتا، منهم والدي الذي توفي رحمه اللـه قبل خمسة وعشرين عاما، بقي منهم

عم واحد لي وعمتان، وقد خَلَّفَ خمسة وثلاثين حفيدا وحفيدة، هم أبناء أعمامي.

ـ أخبرتموهم بالوفاة؟

ـ أخبرت عمي وعمتيَّ، وعليهم أن يخبروا أولادهم.

قال له الحاج:

ـ عجِّلوا بالدفن. إكرام الميت دفنه.

ـ سوف تخرج الجنازة قبيل صلاة الظهر لنصلي عليها في مسجد عمر بن الخطاب، ثم ننطلق إلى المقبرة.

ـ سأكون حاضرا، وكل سكان العمارة يعرفون بموت السي الضويلي، من أراد منهم أن ينال الأجر عند اللـه فسوف يخرج مع الجنازة.

كان الزبير ومعاونه قد ركبا السيارة وسارت بهما في اتجاه (ساحة المقاومة). في الطريق لم يتبادلا أي كلام. ظل الزبير من حين لآخر يأخذ قارورة الماء المعدني ويبلل من مائها فمه. في الساحة شاهد بأم عينه السوق التي أصبحت عامرة، والحشود التي احتشدت والحواجز التي وضعت أمامها لكي لا تذهب من هناك إلى طريق ملعب الخيل، وتعطل حركة السيارات، فأعطى الإشارة لرجال الأمن لكي يفتحوا له الطريق، وقصد مركز الشرطة الذي

يقع في بداية (شارع محمد الخامس)، ثم أوقف سيارته على الناصية وخرج منها هو ومعاونه فدخلا المركز وصعدا الأدراج إلى أن وصلا إلى مكتبه. دعا بواسطة الهاتف كل معاونيه لكي يلتحقوا به في المكتب. في انتظار أن يحضروا أخذ يدخن سيجارة بعد أخرى ويعب من قارورة الماء المعدني. عقد اجتماعا موسعا خرج منه بالتقرير التالي:

مديرية الأمن

فاس

من رئيس قسم الاستعلامات

إلى السيد المراقب العام للأمن الوطني.

تحية وسلام بوجود مولانا الإمام

وبعد:

الموضوع: تقرير حول الحالة الأمنية بمدينة فاس لصباح يوم الثلاثاء الفاتح من يناير 2013

مسجل تحت عدد: 24 سج 2013

نص التقرير:

قمنا بعملية استخباراتية في صباح يوم الثلاثاء، الفاتح من يناير 2013، بمعاينة الأوضاع في ساحة المقاومة، كما قمنا بزيارة للعمارة التي يقيم بها مراد الأشقر موضوع الشائعات، وهي الكائنة بشارع قاسم أمين، فقمنا باستنطاق مالكها الحاج السحنوني ومن معه من السكان، وكذا إدريس حارس العمارة والسيارات التي تقف على رصيفها والزاهية منظفة الأدراج، فوجدنا من يرى أن مراد الأشقر رجل نزيه ذو أخلاق، كما وجدنا من تحاملوا عليه لأنه لا يصلي مع المسلمين في المساجد، أما الشائعة فقد وجد من السكان من أكدها بكون الخالق سبحانه وتعالى قد مسخ مراد على ذلك الطول، بينما وجدنا آخرين لا يصدِّقون ما أتت به الشائعة، كما اعتبرت زوجة مالك العمارة أن ما وقع لمراد هو بسبب سحر ساحر حوَّله إلى ذلك الرجل الطويل. وما كنا بحكمتنا وتعقلنا نقبل مثل هذه الترهات. أما الشريط السينمائي الذي أقام هذه الفتنة فقد وجد من بين سكان العمارة من اعتبر أن مرادا آخر في ذلك الشريط هو الذي وقع له ما وقع، وهو مجرد خيال من خيالات مخرج الشريط. ثم انتقلنا إلى ساحة المقاومة فاستخبرنا كل معاونينا عن الأوضاع، ووجدنا أن حركة 24 فبراير التي ظهرت مع ما يسمونه الربيع العربي تغيب عن ذلك التجمع، كما لم تحضره الأحزاب والنقابات، ولم نلاحظ أي استعداد لدى تلك الحشود للقيام بأعمال تخريبية، كما أننا

على اتصال مباشر مع الأجهزة الأمنية لتصريف المحتشدين حتى يعودوا إلى أحيائهم ومقرات سكناهم. وبقي أن نقوم بجولة تمشيطية في طريق ملعب الخيل بحثا عن هذا الرجل الطويل، وحتما لن نجده، لأن الأمر لا يعدو مجرد شائعة من الشائعات. كما بقي علينا أن نجد مراد الأشقر الحقيقي لنعرف سبب تأخره عن العودة إلى شقته في العمارة، وأن نستجوبه عن ذلك التأخر أو الاختفاء، فلو كان قد عاد إلى بيته في الوقت المعتاد لوجدناه في العمارة وقدمناه للجموع المحتشدة لنقول لهم هذا هو مراد الأشقر، وها هو في طوله العادي كباقي عباد اللـه، وبذلك نقنعهم بالانصراف، أما وقد تعذر علينا ذلك، فنحن نرى أن تفريق الحشود لا يمكن أن يتم إلا بالقوة، وفي أسرع وقت، لأن حركة السيارات معطلة والطرق مقطوعة، وقد يستفيد من هذا الوضع بعض المخربين.

خلاصة التقرير: الحكمة تقتضي أن يبادر رجال الأمن إلى تفريق الجموع المحتشدة، ولو بتدخل سريع من قوات الأمن.

ملاحظة: البحث جارٍ عن مكان وجود مراد الأشقر.

تقبلوا سيدي العامل، خالص عبارات احترامي وتقديري.

رئيس قسم الاستعلامات
عبد السلام ماجاش

ثم أرسل التقرير إلى السيد المراقب العام للأمن الوطني. أخذ ينقر بأصابعه على المكتب. فكر في توريط بعض الأشخاص فيما وقع، وجعلهم سببا في نشر الشائعة ليصفي بعض الحسابات معهم، وهم ليسوا أشخاصا عاديين، بل المستهدفون منهم هم عمدة المدينة ومن معه من نواب البرلمان ومفتش الحزب الذي ينتمي إليه، ثم أدرك أن الوقت لم يحن لذلك بعد. جاءته مكالمة من زوجته فرأيتها تقول له:

ـ عبد السلام، اليوم هو يوم الأحد وهو أول يوم في السنة الجديدة. ألن نتغدى في أحد المطاعم؟

ردّ عليها:

ـ أنا مشغول. أنا في العمل.

ـ وهل هناك من يعمل في يوم الأحد، حتى وإن كان هو اليوم الأول في السنة الجديدة؟

ـ قلت لك أنا مشغول جدا، ورأسي سوف ينفجر.

ـ لينفجر رأسك حتى أستريح منك. قل إنك تتناول طعام الغداء مع امرأة أخرى في أحد المطاعم.

ـ لا تقتليني بالشك والغيرة، فأنا مشغول جدا.

ـ مت. خير لك أن تموت. لكن أمثالك لا يموتون حتى يقتلوا أمة بكاملها.

قطع المكالمة، وبقيَ ينقر بأصابعه على المكتب، ويستعد لأن يذهب بسيارته إلى طريق ملعب الخيل.

3

بقيت الحال على ما كانت عليها في (ساحة المقاومة). الحواجز التي نصبها رجال الوقاية المدنية والحرس البلدي تمنع الحشود من أن تتقدم نحو (طريق ملعب الخيل) لتشاهد الرجل الطويل. ورجال الأمن في حالة استنفار قصوى، يمنعون السيارات من أن تمر في طريقها نحو (شارع الحسن الثاني) أو (شارع محمد الخامس)، وقد فقدوا أعصابهم، فأخذوا يشتمون سائقي السيارات، وهي عبارة واحدة يرددونها جميعا:

ـ الطريق مقطوعة.

في ذلك الاختناق الذي عرفته حركة السير، أخذ أحدهم يتسلى بحل الكلمات المتقاطعة، وراح آخر يشتم أولاده الذين يتقافزون في خلفية السيارة، وينهر زوجته التي لم تعلمهم الانضباط، وأخذ

ثالث "يَتَزَلَّلُ" على امرأة كانت تقف بسيارتها بجوار سيارته، فبعد أن خفض الزجاج بدأ ينظر إليها بنظرات جريئة متفحصة، ثم أخذ يرسل إليها معسول الكلام. وآخر وضع يديه وراء رأسه ثم راح في نومة. وثلاثة شبان أطلقوا من جهاز الموسيقى أغنية من أغاني الرَّايْ فأخذوا يغنون معها ويرقصون داخل السيارة. أصحاب عاهات جاءوا ليعرضوها أمام سائقي السيارات، فهذا مقطوع الرِّجْلِ يخطو على رِجْلٍ واحدة، وهذا يزحف مستندا إلى الأرض بيديه، وهذا مبتور اليد اليمنى يُعَرِّي كتفه ليظهر مكان البتر، وآخرون يُظهرون أمراضهم للناس، فواحد يحمل في يده قنينة التبول الموصولة بجانب من بطنه، وآخر محروق الوجه، وامرأة لا تخجل وهي كلما وقفت أمام سائق سيارة تُعَري صدها ليظهر ثديها المبتور. ناهيك عن باعة الكلينيكس والشوينكوم ومن يمسحون زجاج السيارات، وناهيك عن لصوص يلجأون إلى العنف، فيستغلون فرصة فتح السائق لزجاج السيارة القريب منه فيلقطون أذنه بملقاط، ويطلبون منه تقديم الهاتف وما معه من مال وإلا فهم سوف ينزعون الأذن من مكانها. فوضى تَعُمُّ المكان.

في (ساحة المقاومة)، كان التزاحم واختناق حركة السيارات لا يزالان كما كانا. إلا أن صحفية كانت تتشاجر بالأيدي مع رجال الشرطة، وصراخها يرتفع، بعد أن نزع منها أحد رجال الشرطة آلة تصوير كانت قد التقطت بها صورا للحشود والباعة

المتجولين والحواجز واختناق حركة السيارات. جاء ضابط بزيه الرسمي وأخذ يُهَدِّئُهَا. دخلت معه في حوار عن حرية الصحافة وحق الصحفيين في الوصول إلى المعلومة أينما كانت. أطلعته على بطاقتها الصحفية. طالبت باسترجاع الكاميرا. كان الشرطي الذي انتزع منها الكاميرا قد ذهب بعيدا، واختفى وسط الحشود. طمأنها الضابط إلى أنها سوف تسترجع الكاميرا من مقر إدارة الشرطة.

عدت أرى نفسي في (طريق ملعب الخيل) وأنا أسير وكأني لا أسير. توترت أعصابي. إلى متى سوف أبقى على هذه الحال؟ عطش ولا ماء. نضب الماء من جسدي. نشف ريقي. أصبح لساني كشوكة تقف في حلقي. هل سأموت واقفا، ليدفنوني في قبر ليس ككل القبور، وكيف سيكون ذلك القبر، وكم عدد الأمتار التي يتطلبها، وفي أية مقبرة سوف يكون؟ لا أعرف.

وسط الزحام رأيت الآنسة ندى وهي تزفُر. شهيقها مرتفع والعرق يتصبب من سائر جسدها وهي تحاول أن تخترق الحواجز التي وضعها رجال الوقاية المدنية والحرس على (ساحة المقاومة) من أجل ألا يجتاز أحد (شارع الحسن الثاني) للوصول إلى طريق ملعب الخيل لمشاهدة الرجل الطويل، الذي هو أنا.

رأيتها تقف أمام الحواجز عاجزة عن اختراقها بدفع من أياد قوية هي أيدي الحرس. سمعتها تقول:

"مراد؟

هل هو مراد الأشقر؟

يا ويلي!

لماذا وقع هذا لمراد؟

هل هو من وقع له ما وقع؟

لا يمكن.

هو ليس مراد.

مجرد شائعة خلقها بعض الناس من أجل أن تقع هذه الفوضي في فاس. أناس يكرهون مدينتهم ولا يحبون أن يعيشوا فيها بسلام، أو أن يجعلوا العيش فيها يتم بسلام. مخاصمون لأنفسهم وللآخرين ولا مجال للمصالحة. وأنا لا يهمني أمر هؤلاء الناس. يهمني مراد حبيبي. أريد أن أراه. أريد أن أرى إن كان هو مراد حقا أم أنه شخص آخر. وربما لن يكون هناك رجل طويل وإنما هي شائعة من الشائعات. عندما تلقيت الخبر من إحدى الجارات خرجت هرعة لأرى بأم عيني إن كان ما يتحدثون عنه حقيقة أم هو مجرد شائعة. وها أنا لا أصل إلى شيء. كل المتجمِّعين في (ساحة المقاومة) لا يُكَذِّبُون ولا يصدقون. وكلهم مدفوعون بالفضول لرؤية الرجل الطويل. يقولون إن الخبر قد وصل إلى الدوائر العليا. مراد نصحه

الطبيب بالمشي كل صباح، ساعة في اليوم. وهو الآن يمشي، لكنه طويل، طويل طويل.

يا ويلي!

بعض الناس يبعثون برسائل "إسميس وإيميميس" من هواتفهم المحمولة بالخبر. يخبرون أصدقاءهم وزوجاتهم وأقاربهم وزملاءهم في العمل بما وقع، وما وقع لا يصدق. لا يمكن أن يصدقه أحد.

أعاجيب الدنيا الست معروفة، وهي ما يُخْتَبَرُ بها في بعض المسابقات التليفزيونية.

العمالقة قوم وجدوا في أساطير قديمة ولم يوجدوا على أرض الواقع. لم يشاهد أحد في زماننا عملاقا من العمالقة، لكن الأقزام موجودين، وفي زماننا هذا، بل وفي المغرب، فقد بثت إحدى القنوات التليفزيونية برنامجا عن حي بكامله يسكنه الأقزام وبالعشرات، على اختلاف أعمارهم، فسمعنا الكثير من جرأتهم على الكلام. في وطننا أقزام كثيرون، لكن العمالقة لا يوجدون إلا في الأساطير.

اليوم هو يوم الأحد، أول يوم في السنة الجديدة، والناس يتبادلون التهاني والأماني ولا يفكرون في العمالقة كما لا يفكرون في الأقزام. لكنهم يشغلون بالهم بالرجل الطويل الذي يعتقدون أنه هو مراد.

مراد لم يره أحد وهو على تلك الحال الغريبة، فكيف بالناس يَدَّعُون أنه هو؟

إذا كان ما وقع لمراد قد وقع في الحقيقة، فماذا لو كنت قد أصبحت زوجة له وتحول إلى كل هذا الطول؟

كيف كنا نلتقي في الفراش؟

أي فراش للزوجية يكون لنا، وهو على طوله غير العادي وأنا التي لا يختلف طولي عن طول باقي النساء، الميَّالات إلى القِصر؟

السي الطاهري لا يصدق. قال لي كلمناه البارحة بالهاتف، وكان كما قال بخير وعلى خير. أنا لا أصدق، وما عندي وقت نفكر في هادِ الخزعبلات. تسمين العجولِ راه شاغلني. مراد الأشقر كان زميلنا فالعمل، وتقاعد مشى اللـه يعاونه. محسن الوزاني أنا كلمته هذا الصباح بالهاتف فوجدته لا يزال نائما ولا علم له بالخبر. نهض فزعا وقال أعوذ باللـه من الشيطان الرجيم. كأني قد حلمت بشيء من هذا، لكني نسيت الحلم، وها أنت يا آنسة ندى تُذكرينني به. أراد أن يَقُصَّ عليَّ الحلم. طلبت منه أن يؤجل ذلك إلى وقت آخر. عبد السلام الخناش هو الآخر تلفنت له. ردّت عليَّ زوجته. أصبت بالحرج. عندما قدمت له زوجته الهاتف ارتبكت ولم أعرف ما أقول. سألته إن كان قد علم بشائعة عن مراد الأشقر الذي تحول في (طريق ملعب الخيل) إلى رجل طويل، ضحك وقال لي يا آنسة ندى هل أنت مشغولة بمراد إلى هذا الحد؟ اعتذرت له وقطعت

المكالمة. ويلي! طويل فطويل لهاد الدرجة؟ لا ما يمكنش. لا ما يمكنش.

شيء واحد لم أفهمه، وهو أن مقدم برنامج "عالم السينما" قد تحدث ليلة أمس عن الشريط لم يشاهده أحد. غير أنه في تقديمه وقبل أن ينقطع البث ذكر اسم مراد الأشقر وذكر اسمي، الآنسة ندى. وأنا هي الآنسة ندى. كل من ينادونني في إدارة المحافظة العقارية قطر الندى أقول لهم الآنسة ندى فيعاودون مناداتي بالآنسة ندى. رغم ارتفاع الكلفة بيني وبين الموظفين فكلهم ينادونني الآنسة ندى. أنا آنسة، وحالما أتزوج سأصبح السيدة ندى. ما معنى ذكر مقدم برنامج "عالم السينما" لاسم مراد الأشقر ولاسمي؟ كل الموظفين أصبحوا يقولون لي كنا سنراك في التليفزيون لو لم ينقطع الإرسال، والحقيقة أن ممثلة بدينة مثلي اسمها فاطمة الزعفراني هي التي كانت سوف تمثّل دوري في الشريط. أي دور؟ دور الموظفة العازبة التي تقبل على الأربعين ولم تتزوج؟ دور البدينة التي تحتفظ لنفسها بسر وزن جسدها حتى لا يصبح موضوعا للسخرية؟ وأنا عاشقة للحلويات، أحضّرها بنفسي في البيت، وأتلذذ بتناول أطباق منها، فهل هذا يتسبب في مشكلة للآخرين؟ كل زملائي في إدارة المحافظة العقارية ذاقوا من الحلويات التي أعدها فاستلذوها وتمنوا لو كانت زوجاتهم تعد لهم مثلها في اللذة والمذاق.

من أعطى الإذن لمخرج الشريط بأن يستعمل اسمي ويسمي به بطلته التي سمْنتها لا تصل إلى درجة سمنتي، فلو وقفنا أنا وإياها على الميزان لظهر الفرق الكبير بين وزني ووزنها؟

أحقا سأرى مراد على تلك الحال، وإن رأيته فهل سوف يستطيع أن يراني وأنا أقف عند مستوى قدميه، هل سيعرفني؟ إن كان مرادا آخر هو الذي وقع له ما وقع فحرام عليهم، وغدا الاثنين سأرسل رسالة إلى إدارة القناة لأستفسر عن ذلك الشريط الذي ذكر فيه اسمي، الآنسة ندى، مقرونا باسم مراد الأشقر، وأنا في واد والممثلة فاطمة الزعفراني في واد، لا شيء يجمعنا ما عدا بدانتي وبدانتها. مراد أحببته زوجا لي ولكنه لسبب غامض، لم يرفضني، ولم يقبل الزواج مني. تركني في حيرة، حتى إنني قد بدأت أشك في الأيام الأخيرة في وجود علاقة بينه وبين ابنة خالته مريم، تلك التي التقيتها عند باب (مصحة أكدال) بالرباط، في تلك اللحظة التي كان يخرج فيها من المصحة، وعندما سقط على الأرض، مددتُ له يدي، فكانت هي الأخرى تَمُدُّ له يدها.

والبارحة أخبرني بوجود قمر السحنوني ابنة مالك العمارة معه في شقته. ساورتني الشكوك. ولكن لا يمكن. مراد سيكون لي وحدي. سمنتي الزائدة هي عيبي الوحيد، فأنا طيبة القلب، أحب الناس ويحبونني، أُصَلِّي لخالقي ولا أرتكب المحرمات والمعاصي،

فما له لا يقبلني زوجة له؟ سأظل أحاول، إن كان مراد آخر هو الذي وقعت له تلك الواقعة. أما إن كان مراد حبيبي هو الذي وقعت له الواقعة، فهي مصيبة نزلت على رأسه وعلى رأسي".

4

سمعت الأزيز.

رأيت الهيلوكبتر تحلق فوق رأسي وكأنها سوف تخترقه، ثم رأيتها تهبط قليلا لتصبح قريبا من مستوى صدري. أخذت تحوم حولي ثم عادت لتحلق فوق رأسي. الأزيز يصم أذني. رأيت قائد الهيلوكبتر بلباسه العسكري ونظارته السوداء، ورأيت الزبير يجلس بجواره. التقط لي بعض الصور. أخذ يرسل بعض الإرساليات. يسير وكأنه لا يسير. حَوِّلْ. التقطنا له بعض الصور. حَوِّلْ. يبدو غير مبالٍ بما وقع له. حَوِّلْ. نراقبه بالمنظار. حَوِّلْ. الموقع محروس ومُؤَمَّن. حَوِّلْ. لا توجد قنوات تليفزيون أو مراسلون للصحف. حَوِّلْ. لا خطر يُتَوَقَّعُ منه. حَوِّلْ. أرسلنا عليه من الهيلوكبتر كشافات ضوئية لينهار ويسقط. حَوِّلْ.

رغم الكشافات الضوئية التي أغشت عيني، والأزيز، فأنا لم أبال. كنت في حالتي القصوى، أقاوم كل مناوشات الزبير، وهو تَحَدٌّ لم يسبق لي أنْ مارسته في حياتي، لأنني لم أتعرض لموقف كهذا يستدعي المواجهة وإسقاط كل ما في يد رجل الاستعلامات من أدوات لقهر مواطن عادي، بريء، ليس له ذنب في شيء، لم يسرق المال العمومي بحجة المجلس الأعلى للحسابات، ولم يكن من كتيبة للأمن تورطت في تجارة المخدرات، ولم يكن من المفسدين في هيئة القضاء، وإنما أنا مراد الأشقر، الذي عمل طوال عقود من الزمن في المحافظة العقارية، فلم يتقاض رشوة، ولم يساعد على اختلالات الإدارة، ولذلك لم يحضر السي مشواط مدير إدارة الضرائب حفل تقاعدي. وأنا لم أسع إلى ما أنا فيه من طول غير عادي وإنما هي لحظة خارقة وقع فيها ما وقع.

لم أبالِ بالهيلوكبتر التي تحلّق فوق رأسي. ولم أبال بالإرساليات التي كان يرسلها الزبير. ما شغلني هو ما في حلقي من عطش ولا ماء. سمعته يقول لقائد الهيلوكبتر:

"مراد الأشقر أرنب، وأنا أحب أن أعلقه من قدميه ورأسه إلى الأسفل حتى أجعله يراني وأنا من فوق وهو من تحت. لكنه على ما يبدو من ذكور الأرانب المشاكسة، التي تتنطع وكأنها لا تعرف أن أكثر من سكين حادة يمكن أن تذبحها في أية لحظة. أرنب مشاكس،

لو وجدته في العمارة لمرت الأمور كالعادة. آخذه معي في نزهات من تلك النزه التي طالما أخذت إليها من أجد عندهم ما أفعل. لديّ أشياء كثيرة أفعلها في تلك النزه.

ولكن أين هو الآن؟

أهو ذاك الذي نحسب أننا نراه ونحن لا نراه؟

هل هو ظاهر أم خفي؟

هل نراه بأعيننا أم نتوهم أننا نراه؟

هل هو وَهْمٌ أم حقيقة؟

إنه يتحداني، وأنا لا أقبل أن يتحداني أحد. الذين تحدوني في السبعينيات ولم يبوحوا بأسرار تنظيماتهم السرية قَبَرْتُهُمْ في مقابر جماعية. في ذلك العقد السبعيني وحتى بداية الثمانينيات كنا نصطادهم كالأرانب. طلبة قاعديون من تنظيمات ماركسية لينينية ويساريون ومنتمون إلى الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية. كانوا يريدون قلب نظام الحكم في البلاد وكنا لهم بالمرصاد، نصطادهم كالأرانب من معقلهم في (كلية الآداب / ظهر المهراز)، لمعتقلات سرية كانت تقع بين أيدينا وعندما يصبحون مَرْعُوبِينَ لا نذبحهم كما تُذْبَحُ الأرانب، وإنما نُعَلِّقُهم من الأرجل حتى نسمع كلامهم، وإن لم يتكلموا فآخر البطش بهم يوصلهم إلى الموت فيموتون

كالكلاب، لكن الخسارة في موتهم أنه لم يفتح لنا طريقا لنحتوي التنظيم بأكمله.

كنت أعمل على قدم وساق، ليل نهار. لا يغمض لي جفن. عيني على الساحة الطلابية ومعامل المنطقة الصناعية وعلى المقاهي والحانات وأماكن تجمع المثقفين وبعض الكتّاب الفاسدين وشعراء لا شعر لهم إلا كلام غامض لا يفهمه أحد. تظل كل حواسي متيقظة وأنا أتسقط الأخبار من نادلي المقاهي وماسحي الأحذية وعاهرات الفنادق. من أعرف عنهم خروجا عن طاعة أولي الأمر أصطادهم واحدا بعد الآخر، وكلما طال صمتهم تزداد أساليب التعذيب والبطش، وإن اعترف أحدهم بمن يسميهم رفاقه، نكون قد ظفرنا بما نريد. أطلعهم على منشوراتهم السرية وأوراق صغيرة مكتوبة بخط اليد، وكأنها خربشات يتداولونها فيما يحسبونه سرا وهي كلمات لكارل ماركس وتروتسكي وماو تسي تونج يمررونها لبعضهم لأنهم عاجزون عن قراءة كتب هؤلاء، فيكتفون بتلك النتف القليلة يتداولونها مكتوبة بخط اليد، وما كان أسهل أن نعرف خطوط من كتبوها من دفاترهم الجامعية التي يملي عليهم فيها أساتذتهم كلاما لا نفهم منه إلا القليل، ولكن ما نفهمه هو تلك الحواشي التي كانوا يكتبونها على الدفاتر، ومنها كنا نتعرف على ما يجمع بين الأوراق الصغيرة التي ضبطنا الكثير منها في جيوب الطلبة عند الاعتقال، وبين ما يكتبونه على دفاترهم المدرسية.

أبهذا كانوا سوف يقلبون نظام الحكم؟

استسلم لنا الكثيرون وجندناهم معنا، ومن برهنوا عن حسن تعاونهم إلى أبعد الحدود وجدنا لهم وظائف في العمالة لكي يتقوى إخلاصهم للـه والوطن والملك، وهو شعار المملكة، ويسيروا في الطريق الصحيح. أما من أصروا رغم كل أنواع التعذيب على ما يسمونه اختيارهم الثوري، فقد بطشنا بهم بما فيه الكفاية، إلى أن خربنا عقولهم وأجسادهم، ثم دفعنا بهم إلى المحاكمات.

اليوم، ومع هيئة الإنصاف والمصالحة، وتنامي نشاط جمعيات حقوق الإنسان، يظهرون كالمظلومين، وقد أخذوا تعويضات مالية تُقدر بالملايين، عما سمِّي بجبر الضرر، ناسين أنهم كانوا يزعزعون أمن البلاد. واليوم وقد تغير الزمان، أصبحوا يعملون في إطار المشروعية، فأصبح منهم وزراء وقادة في بعض الأحزاب، وأصبحنا نحن كالكلاب الضالة تجتمع على مزابلهم. أي تغير هذا؟ أنا لا أفهم، ولا يمكنني أن أفهم.

ومع ذلك فمراد الأشقر هذا لن يُخَيِّرَنِي، سوف أطوِّعه بأية طريقة كانت. قبل ثلاثة عقود من الزمن كنت خفيف الحركة، وسيما، أقلد شارل برانسون في اقتحام لمكان وهمي وأنا أحمل رشاشا وهميا في يدي. لا يوجد مكان اسْتحال عليَّ أن أقتحمه.

كنت أسخر من سذاجة شباب يحلمون بتغيير نظام الحكم في

البلاد. أراهم كالأرانب معلقين من أرجلهم في مخافر التعذيب. على جبن الأرانب فهي لم تكن تعترف بسهولة. كنا نعرف كيف نأخذ منها الاعترافات. مَنْ طبع المنشورات ومن وزَّعها ومن هم رؤوس الفتنة. وكنا نسعى إلى الوصول إلى العقول المدبرة. للوصول إليها كان لا بد من إقناع الأرانب بأن تتعامل معنا مقابل إطلاق سراحها، وأن تأتينا بالأخبار أولا بأول. بواسطة الأرانب اخترقنا ما كان يسمَّى باليسار، وعرفنا تنظيماته في الداخل والخارج. بعض تلك الأرانب هم الآن أساتذة في الجامعة، أو فاعلون جمعويون، وهم يتبجَّحون بتاريخهم النضالي، ونحن لا نحب أن نفضح أنهم كانوا أرانب، تعاملوا معنا وزودونا بالكثير من المعلومات. كيف لهم اليوم أن ينسوا شارل برانسن، أنا، الزبير، وهو اسمي الحركي في قسم الاستعلامات، وكيف أنسى نفسي، أنا، عبد السلام ما جاش؟ عدا "الرافان"، مخفر الشرطة الذي كان مكانه معلوما، كانت هناك ثلاث فيلات تركها المعمرون فاسترجعتها الأملاك المخزنية وفوتتها لنا لنجعل منها أماكن سرية للاعتقال والتعذيب. إليها كنا نأتي بالأرانب التي نصطادها.

الزمان تغير والشاب الطموح شارل برانسون تغير هو الآخر. أنا بنفسي كنت أحضر التجمعات الخطابية التي يعقدها حزب الاتحاد الاشتراكي في الساحات العمومية خلال الانتخابات، وكنت أَبُثُّ العيون على من كانوا يُسمون بالمناضلين. من داخل مقر الحرب

كانت تأتيني الأخبار. تقارير قدمها لنا أعواننا في ذلك الزمن، وإن كان قد أكل عليها الزمان وشرب فهي لا تزال محفوظة بأسماء تلك الأرانب التي قدمتها لنا. ولكن أين هي الأرانب لنصطادها؟ ألم تعد توجد أرانب في هذا البلد؟.

تأتيه مكالمة هاتفية من زوجته. يقول لها:

ـ هيه. ربة الصون والعفاف. أنا في مهمة دقيقة. سوف أكلمك فيما بعد.

تقول له:

ـ مهمة دقيقة في أول يوم من السنة الجديدة؟ ألا تفرح بيوم العطلة لتقضيه معي؟ اليوم سوف نتناول طعام غدائنا أنا وأنت في أحد المطاعم. أي مطعم ألحق بك إليه؟

ـ تناولي غداءك في البيت.

ـ وحدي؟ وحبيبي زوجي يتناول غداءه مع امرأة أخرى.

ـ لا امرأة أخرى ولا رجل آخر.

ضحكت وقالت:

ـ رجل آخر؟ أنا التي سوف أخرج للغداء في أحد المطاعم مع رجل آخر؟

ـ رجل آخر؟

ـ طبعا، من دون فضائح، إذا أردت أن تتأكد سوف أخبرك باسم المطعم، ولكن لا تثر الزوبعة، ولا تزعج حبيبي.

ـ حبيبك!

ـ أليست لك حبيبات القلب، وهل تريدني أن أبقى دون أن يكون لي حبيبي؟

ـ ما هذا الكلام يا نادية؟

ـ هو كلام الصراحة، من يتغدى ويتعشى مع عاهرات آخر الليل وينام معهن في الفنادق، يتعين عليه أن يقبل من زوجته ألا تبخس جسدها لأي أحد، وأن تمنحه لحبيب.

ـ يا نادية ما هذا الكلام؟

ـ هو العدل آ السي عبد السلام. ما تفعله بنفسك يجب أن تقبل أن تفعله زوجتك بنفسها، مع أن الأمر مختلف، فأنت تلقي بنفسك في أحضان العاهرات، أما أنا فأحضن حبيبي وهو أعز الرجال.

ـ من هذا الكلب؟

ـ ليس كلبا. أنت الكلب.

ـ سأدفنه في مقبرة جماعية.

ـ تلك المقبرة التي دفنت فيها ضحاياك أيها الجلاد؟ هو من سوف يدفنك في تلك المقبرة، لأنه يعرفها كما تعرفها أنت، وهو رئيس رؤسائك.

ـ من هو؟

ـ عندما سوف تعرفه، ستصبح ذليلا أمامه، وسوف تقبل بأن يكون عشيقا لي، وإن لم تقبل، فمصيرك في تلك المقبرة الجماعية.

ـ قولي. من هو؟

ـ قلت لك سوف أتناول معه طعام الغداء في أحد المطاعم. وحالما يتصل بي ويخبرني باسم وعنوان المطعم سوف أخبرك، إذا أردت أن تأتي، ككلب ذليل، لتتمرغ على أقدام سيدك.

ـ إلى هذه الدرجة تهينينني؟

ـ بل وأكثر.

ـ وتتآمرين عليّ في غيابي؟

ـ ليس أقل من مؤامراتك عليّ في غيابي.

ـ هل أصدق ما تقولين؟

ـ صدق أو لا تصدق.

ـ إذا صدقت فسوف أقتلك.

ـ هاي هاي! تقتلني؟ هل تعودت على القتل حتى أصبحت لا تنام دون أن تقتل أحدا من ضحاياك؟

ـ لن أقتلك. أيمكن أن نتصالح؟

ـ يمكن. شريطة أن تقبل الحضور إلى المطعم الذي سوف أتناول فيه الغداء مع حبيبي، لكي تراه وتعرف من هو.

ـ أنتِ تلعبين بأعصابي.

ـ كما لعبت بأعصابي لسنوات طويلة. عليك أن تتحمل أن ألعب بأعصابك ولو ليوم واحد.

ـ لن أحتمل.

ـ إذن فبعد قليل سوف أخبرك بالمطعم الذي سوف أتناول فيه طعام الغداء، وعليك أن تأتي لكي تعرفه، وتتأكد بنفسك.

ـ أنتظر مكالمتك، وسترين ما سوف أفعل.

ـ إن كان على وهم شارل برانسون الذي يسكنك، فلن ينفع مع رئيس رؤسائك.

ـ احذري يا نادية. أنا أستطيع أن أقتل.

ـ طبعا! لقد تعودت على القتل. لكني أنصحك يا عبد السلام بأن تتخلى عن فكرة القتل، وأن تأتي إلى المطعم لترى مع من أتناول طعام الغداء.

ـ وماذا تطلبين مني أن أفعل؟

ـ أن تحيِّي رئيس رؤسائك، وتقدم له احتراماتك.

ـ ساعتها سوف يفهم أنني قوَّاد.

ـ قوَّاد؟ هل تخاف من هذه الكلمة؟ ألم تعمل قوَّادا لأسيادك كما سبق أن أخبرتني؟ ما الذي يضيرك اليوم وأنت تصبح قوَّادا لزوجتك، وليس لأي أحد، بل لرئيس رؤسائك. ربما تترقى في وظيفتك إلى مدير الأمن الوطني.

ـ أنا لست قوَّادا لامرأتي.

ـ وقوَّاد لنساء رجال آخرين لأسيادك؟ ألا تخجل من نفسك وقد أخذت نساء متزوجات إلى غرف نوم أسيادك؟

ـ ندمت لأنني حكيت لك مثل تلك الأشياء التي حدثت. أنت تُشَهِّرِينَ بي.

ـ أنا لا يهمني رجل اسمه عبد السلام ماجاش، ولقيته الحركي الزبير.

ـ لكنك يا نادية تهميننني كثيرا.

ـ من حيث ماذا؟

ـ من حيث إنك زوجتي.

ـ زوجتك؟ هاي هاي هاي. يجب أن تعرف شيئا، وهو أنني أكرهك، وأنتقم منك.

ـ ولماذا؟

ـ لأنك خنتني ألف مرة مع العاهرات، ولديّ ألف دليل. الخلاصة الآن أنك لن تتناول طعام الغداء معنا أنا وحبيبي.

ـ حبيبك؟ حبيبك يا نادية تقولين؟

ـ هل أكذب عليك؟ هو حبيبي. وأنت لن تتناول الغداء معنا معا، ولكن اتركني أطلب منه أن تحظى بترقية كبيرة.

ـ أنا لا أعرفه. هل ترقيتي الكبيرة بيده؟

ـ قلت لك تعالَ لتراه. لكنك لن تتناول طعام الغداء معنا على نفس المائدة. يمكنه أن يجعلك ضيفا عليه في مائدة نائية عني وعنه قليلا، لكي لا تسمع أحاديثنا.

ـ ثم ماذا؟

ـ بعد أن تشرب شرابك وتتناول طعامك عليك أن تأتي إلى مائدتي التي أجلس فيها مع حبيبي، لكي تراه وتعرف من هو، وأن تنحني أمامه، ثم غادر المطعم وانتظرني في البيت.

ـ هل تعلمين أنني في طائرة هيلوكبتر تابعة للجيش، في مهمة

خطيرة، ولا أستطيع أن آتِ إلى البيت لآخذك إلى الغداء في أحد المطاعم؟ أنا لا أصدق ما تقولين.

ـ يجب أن تصدق، وأن يحترق قلبك بالغيرة كما أحرقت قلبي.

ـ الغيرة؟ هل تؤدي الغيرة إلى الخيانة الزوجية؟

ـ أيها الخائن، هل بقيَ لك شيء تُؤْتَمَنُ عليه؟

ـ تقولين هذا الكلام بعد أن التقطتك من الشارع، وملَّكتك الشقة والسيارة؟

ـ سوف يحاسبك حبيبي، وهو رئيس رؤسائك، على هذا الكلام.

ـ هل أصبحنا عدوَّين؟

ـ لو كنت عدوة لك لما سعيت مع رئيس رؤسائك إلى ترقيتك.

قطع المكالمة. رمى بالهاتف المحمول بحركة عصبية. أصابه غم شديد. قال لقائد الهيلوكبتر:

ـ زوجتي تغار عليَّ، وتهددني بالانتقام.

بدا قائد الهيلوكبتر غير مبالٍ.

قال بصوت مرتفع:

ـ الآن جاءتني المناسبة لكي أطلِّقها. سوف أعرف كيف أجبرها على أن تشتري مني ورقة الطلاق.

طائرة الهيلوكبتر تحلق رأسي تكاد تخترقه وأزيزها يصم أذني، وأنا أرى عبد السلام ماجاش كأنه قريب مني، يراقبني بالمنظار. يلتقط لي بعض الصور. يتلقى مكالمة من مدير الأمن. يقول له:

ـ كيف هو الوضع في طريق ملعب الخيل؟

يرد عليه الزبير:

ـ ما عدا الرجل الطويل مراد الأشقر فكل شيء عادي.

ـ تقول الرجل الطويل! هل رأيته بأم عينك؟

ـ رأيته والتقطت له بعض الصور. نحن نتابع حركاته من زجاج الهيلوكبتر.

ـ تقول حركاته؟ وما حركاته؟

ـ في الحقيقة ليست هناك حركات. يبدو كأنه يسير وهو لا يسير.

ـ ما هذا الكلام؟ هذا تخريف. هل أنقل كلامك هذا إلى السيد العامل، والسيد الوالي، ليسخرا مني؟ نحن رجال الجد. نحن حماة هذا الوطن، وعلينا مسئوليات.

ـ نحن نقوم بمسئولياتنا نعم آس. احتراماتي نعم آس.

ـ آ عبد السلام اللحظة دقيقة والفوضى تضرب أطنابها في

ساحة المقاومة. خلصني من هذا الموضوع. المرتقب منك أن تثبت للناس أن لا رجل قد أصبح طويلا، في طريق ملعب الخيل.

ـ حاضر نعم آس.

ـ وكيف بك تقول إنك قد رأيته بأم عينك، والتقطت له بعض الصور؟

ـ وماذا تريدني أن أقول نعم آس؟

ـ الحقيقة. قل إن الرجل الطويل ليس سوى أسطورة ابتدعها الخيال الشعبي.

ـ حاضر نعم آس.

انقطعت المكالمة، فقال الزبير لقائد الهيلوكبتر:

ـ انظر. ألا تراه معي؟

قال له القائد:

ـ أنا أقود الطائرة، ولا أنظر بالمنظار الذي تنظر من خلاله أنت.

ـ وإذن فأنت لم تره.

ـ لم أره. هل أنا أعيش في الخيال أم في الحقيقة؟ عندما أريد

أن أعيش في الخيال أتفرج على شريط من أشرطة الأكشن. لكني إنسان واقعي، لا أومن بالأساطير.

ـ وإذن فأنا أعيش في الأساطير.

ـ هذا شغلك، أما شغلي أنا فهو أن أقود الهيلوكبتر.

جاءته مكالمة أخرى من مدير الأمن. قال له:

ـ هل هو بالتأكيد مراد الأشقر؟

ردّ وهو مرتبك:

ـ هو نعم آس.

ـ هل تعرفت إليه؟

ـ تعرفت إليه نعم آس. صورته بين يدي. استخرجتها من وثائقه الشخصية التي توجد نسخ منها لدى الإدارة.

ـ وهل هو ذلك الرجل الطويل؟

ـ ليس قزما نعم آس.

ـ لم أسألك هل هو قزم. سألتك هل هو الرجل الطويل الذي أقام الدنيا وأقعد الناس.

ـ طويل نعم آس. طولا عاديا، يبلغ مترا و73 سنتمترًا.

ـ وكيف عرفت؟

ـ من الوثائق التي توجد لدى الإدارة.

ـ أريد أن تخبرني بطوله وهو يسير في طريق ملعب الخيل.

ـ متر و73 سنتيمترًا نعم آس.

ـ آتني به في الحال، لنعرضه على من يتجمعون في ساحة المقاومة، وحالما يرونه بطوله العادي، نُفَرِّقُهُمْ بالتي هي أحسن.

ـ سوف آتِ به نعم آس.

حطت الهيلوكبتر بجوار قدمي. نزل منها الزبير. رفع نظره يحاول أن ينظر إليَّ. تملكه العجب. قال لقائد الهيلوكبتر:

ـ انزل. انزل لتراه.

رد عليه القائد:

ـ أنا لا شأن لي بهذا الموضوع.

استعطفه الزبير لكي ينزل. قال له:

ـ ولماذا سوف أنزل؟ هل تريد مني أن أكون شاهدا على خيالاتك المريضة؟

دارى الزبير ما شعر به من تجريح وقال لقائد الهيلوكبتر:

ـ أعطني قارورة الماء.

أعطاه قارورة الماء. عَبَّ منها حتى روى عطشه. عندما رأيت ما بقي من ماء في القارورة زاد عطشي، وتمنيت لو أن يدي تصل إلى القارورة فآخذها منه وأشرب كما شرب، غير أن ذلك كان غير ممكن، فبقيت على عطشي.

كنت أحب أن أرجع إلى حالتي الطبيعية، وأن أعود إلى عمارة الحاج السحنوني لأحضر جنازة عمي الضوبلي.

سمعته يقول لقائد الهيلوكبتر:

ـ انطلق.

قال له القائد:

ـ هل سنذهب إلى مكان معين؟

قال له:

ـ سنعود إلى ثكنة الجيش.

ـ وماذا سوف نفعل هناك؟

ـ سترى.

تحركت الهيلوكبتر. علت حتى صارت في مستوى قامتي التي أدركها هذا الطول، فَصَمَّ أزيزها أذني. ما عاد بإمكاني أن أرى

ما رأيته في فاس، فقد أخذني الفضول لمعرفة ما سوف يفعله عبد السلام ما جاش في ثكنة الجيش.

حطت الهيلوكبتر في ثكنة (ظهر المهراز)، وسط ساحة الثكنة. نزل منها الزبير وقال للقائد:

ـ ابق أنت هنا.

غاب لبعض الوقت داخل الثكنة، ثم عاد ومعه ثلاثة جنود يحملون شباكا من حديد وضعوها في مؤخرة الطائرة. ركبوا وركب الزبير بجوار القائد. ضحك القائد وقال له:

ـ ما هذا الذي أتيت به؟

ـ شبكة من حديد، سلسلة، ألم ترها؟

ـ وما الذي سوف تفعل بها؟

ـ لا تسبق الأحداث. سترى. عد بنا إلى طريق ملعب الخيل.

عرفت أنه يريد أن يقبض عليَّ بواسطة تلك الشبكة. حامت الهيلوكبتر فوق رأسي. قال عبد السلام للقائد:

ـ أنت ستحلق فوق رأسه.

وقال للجنود الثلاثة:

ـ وأنتم سوف ترمون الشبكة ليقع مراد داخلها.

قال له القائد وهو يضحك:

ـ كم طول هذه الشبكة؟

رد عليه؟

ـ ولماذا تسأل؟

ـ هل قِسْتَ طول مراد؟

ـ لم أَقِسْه.

ـ وهل قِسْتَ طول الشبكة؟

ـ لا يهم طول الشبكة. المهم أن يقع فيها مراد.

أخذ الجنود الثلاثة يُلْقُونَ بالشبكة وهي لا تقع إلى على الفراغ. حاولوا عدة مرات دون جدوى. كانوا يلقونها وعندما تقع في الفراغ يسحبونها من حلقة في أعلاها ثم يلقونها من جديد. ضحك القائد وقال:

ـ هل تصطادون سبْعا؟

قال له الزبير:

ـ قرد أو سبع، الأمر سواء.

قال القائد:

ـ ما هكذا تُصَاد السباع.

سأله الزبير:

ـ وكيف تُصاد؟

قال القائد:

ـ السباع لكي تُصاد تُحفر لها حفرة مفروشة بشبكة من حديد، والحفرة يوضع فيها لحم.

قال أحد الجنود:

ـ ثم ماذا؟

قال القائد:

ـ ثم تُغطَّى الحفرة بأغصان الشجر، وتبقى تحت المراقبة.

قال الجندي:

ـ ثم يأتي السبع الجائع فيشم رائحة اللحم. يقترب من الحفرة فيسقط فيها. يَلُمُّ الصيادون الشبكة ويسحبون السبع وهو يزأر إلى حيث يريدون.

قال أحد الجنود:

ـ سبق لي أن شاهدت شيئا كهذا في أحد الأفلام.

بدا الغضب على الزبير. قال:

ـ هل نحن نقوم بواجبنا أم نحكي ما يقع في الأفلام؟

سأله القائد:

ـ وإن قبضت على مراد، ما الذي سوف تفعل به؟

ـ سأثبت لرؤسائي أنه على هذا الطول الغريب، وأنه ليس وَهْمًا أو خيالا.

ـ ثم ماذا سوف تفعل به؟

ـ سأعرّضه للاستنطاق.

ـ حول ماذا؟

ـ هذا شغلي وليس شغلك أنت.

ـ وأين ستحقق معه، وعلى أية أرض سوف يتمدد، وبأية أدوات للتعذيب سوف تنتزع منه الاعترافات؟

ـ قلت لك هذا شغلي وليس شغلك أنت. لن يغمض لي جفن حتى أقبض عليه.

ومتى كان جفنه يغمض وهو يقضي نهاره بين ولاية الأمن وبين الحانات؟

يوقف سيارته في ممر الراجلين ويدخل (حانة المارينيون) ليجلس على الكرسي العالي ثم يأتي ماسح الأحذية ليمسح حذاءه ريثما يأتي النادل بزجاجتين باردتين من البيرة يكرعهما الواحدة بعد الأخرى وهو يصغي إلى وشاية من وشايات ماسح الأحذية، ثم يأتي بائع أوراق اليانصيب فيقف بجواره ليقدم له وشاية أخرى. يصرفه عندما يأتي شاب ليصافحه، فيطلب من النادل ثلاث زجاجات من البيرة، اثنتان له وواحدة للشاب الذي يقدم له تقريرا شفهيا عن استعدادات طلبة كلية (ظهر المهراز) لخوض إضراب جديد، وصراعات الفصائل، وأسماء بعض قادتها. يكرع من الزجاجة الأولى وهو يتجشأ ثم يكرع من الثانية.

لا يدفع ثمن البيرة. يغادر (حانة المارينيون). يمشي في الشارع ليدخل (حانة دليلة). يأتيه النادل بزجاجتين من البيرة، ويهمس له ببعض الكلمات. ينظر إلى ماسح الأحذية. يأتي ليمسح حذاءه وخلال ذلك يخبره ببعض الأخبار. يرن هاتفه المحمول. ينظر إلى رقم مخاطِبه فلا يرد. يدخل الحانة شخص معتد بنفسه. يقبل على الزبير ويعانقه. يتبادلان القُبل على الخدين. يتطوع ذلك الشخص، الذي يظهر أنه مستشار جماعي بتقديم عرض مفصل عن اجتماع للمجلس البلدي لمناقشة الميزانية. يبدو الزبير كأنه لا يصغي إلى المستشار. شرود يأخذه وهو لا يخرج منه إلا عندما تلمع عيناه فينظر إلى ما حواليه.

يترك المستشار الجماعي وينتقل إلى (حانة جيلدا). يجد نقابيا في انتظاره. يلتقي مع رجل لحيان يصطنع عوينات ويدخن كازا سبور التي يقال عنها إنها أبأس السجائر على وجه الأرض. من حديثهما يظهر أن الرجل زعيم نقابي. الزعيم النقابي يخبر الزبير بأن عمال معمل النسيج المنطقة الصناعية عازمون على خوض إضراب طويل، وأن احتواءه نقابيا غير ممكن. يبدو الزبير غير مبالٍ بما يسمع. يظل الزعيم النقابي يتحدث عن حالة الغليان التي تعرفها معامل أخرى. تضيع كلماته في الفراغ. الباطرونا. العمال. النقابة. الإضراب. التعويضات. الضمان الاجتماعي. التأمين الصحي. الفوضى. الصراخ. الخطابة. الزعماء. نقابة تنفصل عن أخرى. تشتت. تفرقة. أيها العمال اتحدوا. لا شيء يوحد العمال. لا أمل في وحدة نقابية تجمع الشمل.

يخرج من الحانة ويدخل مكتبه. ينظر إلى جهاز الفاكس فيسحب منه عدة إرساليات. يكتب بعض التقارير. يُخْرِجُ قرصا من علبة الدوليبران المهدئ لصداع الرأس ثم يضعه في كأس نصف مليئة بالماء. ينتظر أن يفور القرص ثم يتجرعه. يستلقي على الكرسي الوثير. يفتح ذراعيه في الهواء ويتثاءب. ينام قليلا ثم يخرج ويذهب إلى (مطعم السلام) فيطلب زجاجة من النبيذ وسلاطة وطبقًا من السمك المتنوع. يصب من الزجاجة في الكأس. يحتسي منها. يُخرج هاتفه المحمول فيُجري عدة مكالمات مع أناس كثيرين ثم يُجري

مكالمة مع هند. يغازلها ببعض الكلمات. يخبرها بأنه يتناول غداءه في (مطعم السلام) ويطلب منها أن تأتي. عندما تأتي هند يتبادل معها القُبل على الخدين. يخبرها بأنه متعب. تنحني هند وتُخْرِجُ منا بين مُشْطِ وقدم حذائها آلة التسجيل الصغيرة. تقدمها له، فيقدم لها آلة تسجيل صغيرة أخرى تضعها في حقيبتها. يسألها مع من قضت ليلة البارحة. يأخذ منها بعض المعلومات. يطلب لها زجاجة بيرة وطبقًا من السمك المتنوع. يتناولان غداءهما. تطلب منه أن يقضي الليلة معها. يقول لها زوجته قلقة من غيابه عن البيت، لم يضاجعها منذ مدة طويلة، وهي تشك في أنه يخونها مع امرأة أخرى.

يقول لها، البنتان لم يعد يراهما إلا قليلا، فهو يعود في ليل متأخر، ولا يكون بإمكانه سوى أن يلقي نظرة عليهما وهما نائمتان. يتركها في المطعم تُكْمِلُ غداءها ويذهب إلى (مقهى لارونيسانس). يطلب من النادل قهوة مركزة. يحتسي القهوة ويدخن العديد من السجائر. يعود إلى مكتبه. يطلب من أحد معاونيه أن يقدم له تقريرا عن الصور التي التقطتها الكاميرا المبثوثة في (شارع محمد الخامس). يأتيه المعاون بالتقرير. ينظر إليه ثم يضعه في درج المكتب. يتصفح الجرائد. يتثاءب. ينهض إلى باب المكتب فيغلقه بالمفتاح. يعود إلى الكرسي الوثير فيستلقي عليه ويدخل في نوم عميق حتى إن شخيره كان يُسمع من المكاتب الأخرى. بالليل يطوف طوفانه المعهود على الحانات. يلتقي بمخبرين آخرين. يذهب بسيارته إلى

(فندق المرينيين). يسأل في مكتب الاستقبال عن ثلاثة سياح جاءوا من رومانيا ويشتبه في أنهم جواسيس. يؤكد له موظف الاستقبال أنهم بغرفهم بالفندق، وأن جهاز التنصت يشتغل. يدخل الحانة وفيها يلتقي مع أحد معاونيه. يقدم له تقريرا مفصلا عن السياح الرومانيين الثلاثة، مصحوبا بصور لهم وهم يتجولون في (المدينة القديمة). يطلب كأس ويسكي. يحتسي منها وهو يدخن بعض السجائر. يطلب من المعاون أن ينسحب. يُجْري مكالمة مع معاون آخر ويطلب منه أن يأتي. يأتي المعاون ويقدم له تقريرا عن السياح الرومانيين الثلاثة، مع صور لهم في عدة أماكن. يشتغل عقله وهو يقارن بين المعلومات التي استقاها من هذا المعاون والمعلومات التي استقاها من سابقه، بحثا عن بعض الثغرات ليسأل عنها فيما بعد. عندما تأتي هند يطلب من المعاون أن ينسحب. يطلب لها كأس ويسكي. أهذا هو عبد السلام ماجاش الذي لا يغمض له جفن؟ كيف يغمض جفنه وهو على هذه الحال؟

وها أنا في طريق ملعب الخيل أسير وكأني لا أسير، وطائرة الهيلوكبتر تحلق فوق رأسي، أسمع الزبير يقول للقائد:

ـ انخفض قليلا.

يرد عليه القائد:

ـ إن انخفضت الهيلوكبتر وسارت نحوه فقد أقطع رأسه.

يقول له الزبير بغضب:

ـ اقطعه.

يقول له القائد:

ـ وإن قطعت رأسه، ألا تخاف من الضجة التي سوف تُحدثها جمعيات حقوق الإنسان؟ ألم ينته بعد زمن قطع الرؤوس؟

ـ أنت تتكلم كثيرا. قلت لك انخفض قليلا.

ـ لكني لا أراه كما تراه أنت.

يقول له الزبير:

ـ أنت أعمى. كيف يمكن لأعمى أن يقود طائرة هيلوكبتر وأن يرى ما يظهر على الأرض؟ قلت لك حَلِّقْ فوق رأسه.

عندما تحلق الطائرة فوق رأسي يصم الأزيز أذني. يطلب الزبير من الجنود أن يلقوا بالشبكة. يُلقون بها عدة مرات دون أن أقع فيها، لكني كنت هلعا، أخشى أن أقع في مرة من المرات التي تُلْقَى فيها الشبكة داخلها، وما أشده من هلع.

مع فشل كل المحاولات للإيقاع بي داخل الشبكة زال عني الهلع، وانتظمت دقات قلبي. لم أعد أخشى أن يصيبني ما كان قد أصابني قبل سنوات من نتائج الانسداد في الشرايين. أخذ الهلع يخف عني.

استقمت في وقوفي كما يفعل الجندي وهو يعتد بنفسه وشجاعته. ربما كان ما دعاني لأن أستقيم بجسدي هو شعوري بفشل كل محاولاتهم في اصطيادي بواسطة تلك الشبكة. كانت الشبكة تقع خلفي أو أمامي، وإن نظرت إليها وهي تحاول أن تسقط فوق رأسي فقد كنت أتجاوزها ماضيا نحو الخلف أو الأمام. لعبّ لعبته مع من كان يرمي بالشبكة وكنت أجعله يصطاد العنقاء أو يراود المستحيل. يرمي بالشبكة فلا يصطادني بها. أضنيته حتى توترت أعصابه وترك الشبكة تسقط من يده على الأرض. دستها بقدمي وأنا أراه يراني. كبرت الخسارة على الزبير. أخذ يصرخ داخل الهيلوكبتر ويشتم. جثا على الأرض وأجهش بالبكاء. بقي هناك يبكي لمدة من الزمن. أخذ يشهق ويبكي. رأيت قائد الهيلوكبتر يضحك ويشمت به. قال له:

ـ زنبور وتجثو أمام قدميه؟

مسح دموعه بظاهر يديه وقال لقائد الهيلوكبتر:

ـ ارجع إلى الثكنة.

قال له القائد:

ـ ومراد الأشقر ألا تقبض عليه لتستنطقه؟

ردَّ عليه بصوت جريح:

ـ كيف أقبض عليه؟ ليتني أستطيع أن أقبض عليه.

مضت الهيلوكبتر بعيدًا عني. بقيت في (طريق ملعب الخيل) أفكر في مصيري. أي مصير ينتظرني؟ هل سأبقى هنا في هذا المكان إلى أبد الآبدين؟ لا يمكن.

5

رأيت قمر السحنوني وهي تظهر أمامي مثل طيف ساحر، وكأنها قد أصبحت قريبة مني. هتفت بها:

قمر!

هتفت بي:

ـ مراد!

طلبت مني أن أعود إلى العمارة لأن والدتها لالة شمس الضحى ترغب في أن تتحدث معي. قلت لها:

ـ يا قمر، ألا تنظرين إلى حالي؟ كيف يمكنني أن أعود إلى العمارة وأنا على هذه الحال؟

قالت لي:

ـ حاول. حاول آ السي مراد.

قلت لها:

ـ كيف سأحاول وأنا على هذه الحال؟

قالت:

ـ امش حتى تخرج من المكان الذي تقف فيه. امش.

مشيت خطوات. رأيتني أنني أعود إلى حالتي الطبيعية، وكأن ذلك الطول الغريب لم يعتر جسدي. مشيت كما يمشي الناس وإن نظر إليَّ أحد منهم أُخفي وجهي خشية أن يكون قد رآني وأنا على ذلك الطول فيتعرف إليّ.

وجدتني أدخل عمارة الحاج السحنوني كما أدخلها كل صباح بعد أن أعود من رياضتي الصباحية. وأنا أصعد الأدراج توقعت أن ألتقي مع ابنة عبد المولى فيتكرر ما حدث لي معها من جديد. دخلت الشقة. دخلت الحمام. نزعت ملابسي الرياضية واستحممت ثم ارتديت ملابس نظيفة. في المطبخ بدأت في تحضير دجاج منزوع الجلد، أردت أن أطبخه مع الجزر والجلبان. عندما عبقت رائحة الطبيخ سمعت جرس الباب وعندما فتحته وجدت شمس الضحى فدعوتها للدخول. خشيت أن تسألني عن الرجل الطويل

الذي كُنْتُهُ لكنها لم تسأل وبدت كأنها لا تعرف. دخلت وقالت لي:

ـ أشم في بيتك رائحة تُحلب الريق.

قلت لها:

ـ إن هو إلا دجاج مع الخضر، وليس دجاجا محمَّرا من شغل يدك آ لالة شمس الضحى.

قالت:

ـ لكنك آ السي مراد سوف تهبط إلى شقتنا لتناول طعام الغداء معنا.

قلت لها:

ـ وما المناسبة آ لالة شمس الضحى؟

قالت:

ـ ألستُ ابنة عمتك، وهل لا تدخل بيتي إلا عندما تكون هناك مناسبة؟

قلت لها:

ـ سوف أتناول طعام الغداء معكم، لأنني أشتاق إلى الحاج وأحب أن أجالسه.

قالت:

ـ سبحان اللـه. كأنك قد عرفت. هو أيضا يحب أن يجالسك. ولدي الدكتور عادل جاء من الدار البيضاء وهو سوف يتناول طعام الغداء معنا، وسوف يتعرف إليك.

قلت لها مجاملا:

ـ الحمد للـه على سلامته.

لم أستبشر خيرا بهذا الطبيب عمر، فقد بدا لي في أول لقاء لي معه يوم أقامت أسرته حفل تخرجه في كلية الطب متعاليا ينظر إلى من يحتفلون معه من الأعلى، وكأنه قد وصل إلى ما لم يصل إليه غير من الناس.

في موعد الغداء خرجت من شقتي ونزلت الأدراج. قرعت جرس باب شقة الحاج. فتحت لي الباب الخادمة. ابتسمت في وجهي وقالت لي:

ـ تفضل آ السي مراد.

ترددت في الدخول فجاء الحاج بنفسه وقال لي:

ـ يا مراد ادخل. هل أنت غريب؟

أخذني من ذراعي وقدمني إلى ولده الدكتور عادل. سلمت عليه

فرأيت نفس التعالي في نظرته إليَّ. بذات التعالي اصطنعت شمما في أنفي واستقمت بجسدي وأنا أضبط حركاته. قال لي الحاج:

ـ اجلس.

جلست. جاءت شمس الضحى ترحب بي، وجاءت قمر تتحدث معي بكثير من الألفة، وعادل يلاحظ حفاوتهما بي وتلقائيتي معهما في الحديث. أحسسته يشعر أنني واحد من أفراد البيت. بقي على صمته وتعاليه وهو يشعر بالحرج إلى أن سألني:

ـ أنت ابن خال والدتي ونحن لم نعرفك من قبل؟

تدخلت شمس الضحى وقالت له:

ـ خالي المرحوم الحاج حميد الأشقر مات ومراد لا يزال صغيرا. جدتك والدتي لالة هبة هي عمته.

قال لها:

ـ ولماذا لم أتعرف إليه قبل اليوم؟

قالت له:

ـ يا ولدي هو نشأ مع زوج خالته السي الفاطمي، وفاس واسعة وكبيرة، وهو ضاع ونحن ضعنا فيه إلى أن جاء اليوم الذي نادى فيه الدم الدم فالتقينا.

قال لها:

ـ ومتى جاء ذلك اليوم؟

قالت له:

ـ يوم جاء يكتري شقة في هذه العمارة.

قالت له قمر:

ـ يا أخي لا تُكْثِرْ من الأسئلة. السي مراد رجل طيب، وهو من أعز الناس.

قال لها:

ـ قبلنا ورضينا. لم نقل إنه أحقر الناس.

ثم قال لي:

ـ تشرفت بمعرفتك آ السي مراد.

قلت له وأنا لا أستسيغ عبارته "أحقر الناس" حتى وهو لم يقلها:

ـ وأنا أيضا تشرفت بمعرفتك.

أخذ يجوسني بنظراته ثم سألني:

ـ ماذا تعمل، يا ابن خال والدتي؟

قلت له:

ـ كنت موظفا في إدراة المحافظة العقارية ثم تقاعدت عن العمل.

سألني:

ـ بسبب عجز عن العمل؟

قلت:

ـ لا أبدا. بلغت سن التقاعد فتقاعدت.

نظر إلى أخته قمر وقال لها:

ـ متقاعد؟ هو الآن يتجاوز الستين.

قالت له:

ـ لكنه يبدو في الأربعين. شعره لم يشب بعد، وهو ما زال يظهر بمظهر الشباب، ثم إن هذا الأمر لا يهمك يا عمر، وإنما يهمني أنا.

سألتها:

ـ يا قمر أخبريني ما الذي لا يهم أخاك عادل مني وما الذي يهمك أنت مني؟

ضحكت وقالت لي:

ـ لا تلقِ بالا إلى عادل وما يقول.

قال لها:

ـ أختي قمر أنا نصحتك بأن هذا الزواج غير ممكن، لعدة أسباب.

سألتُه:

ـ أي زواج تتحدث عنه آ السي عادل؟

قالت له قمر:

ـ السي مراد لا علم له، فأنا لم أتحدث معه بعد في الموضوع.

قال لها:

ـ يا أختي قمر ما خاب من استشار، وأنا أخوك، واستشارتي إن لم تنفع فهي لن تضر.

قلت لهما:

ـ إن كان من حديث شخصي بينكما فأنا سوف أنتقل للجلوس في غرفة أخرى.

قالت لي قمر:

ـ السي مراد، لا تنزعج من هذا الحديث بين أخ وأخته.

قلت لها:

ـ يا قمر، لا تضعيني في الحيرة. ما الذي سوف إن لم ينفع فهو لن يضر؟

قالت لي وهي تبتسم:

ـ ذلك ما سوف تعرفه فيما بعد، آ السي مراد، فلا تتعجل الأمور.

جاءت شمس الضحى تدعونا للغداء، فوجدنا مائدة محفوفة بالسلاطات، ثم وضعت أمامنا طبقًا كبيرا به لحم غنم وفير فوقه برقوق مُعَسَّلٌ ولوز مقلي. أكلت حتى شبعت. طلب مني الحاج المزيد. أثنيت على لذة الطعام الفائقة وعلى شمس الضحى الطباخة الماهرة. اعترضت قمر وقالت لي:

ـ حرام عليك آ السي مراد. أنا من اشتغلت في المطبخ وليست أمي.

ابتسمتُ وأثنيتُ على خبرتها في المطبخ. قالت لي:

ـ أعرف آ السي مراد أنك طباخ ماهر، لكني لا أَقِلُّ عنك مهارة، وسأطبخ لك ألذ الطعام.

قلت لها:

ـ متى؟

قالت:

ـ في القريب العاجل. أليس بيتك آ السي مراد هو بيتي؟

قلت:

ـ بيتي هو بيتك يا قمر.

قال عادل:

ـ ها هما يتغازلان. نريد أن نسمع منهما غزلا حقيقيا، لا غزلا حول الطعام.

ضحكت شمس الضحى وقالت:

ـ طريق وصول المرأة إلى قلب الرجل يبدأ من معدته.

سألتها:

ـ ماذا تقصدين؟

قال لي الحاج:

ـ بعد حين سوف تعرف ما تقصد، عندما نصارحك بالموضوع.

قلت له:

ـ أي موضوع آ الحاج؟

قال لي:

ـ آ السي مراد التأنّي من الرحمن والعجلة من الشيطان.

عرفت أن شيئا ما يُخَطَّطُ لي وأنا لا أستطيع أن أدركه. التزمت بالصمت. انتقلنا إلى الصالون فجاءت شمس الضحى بالشاي والحلويات.

جلسنا خمستنا في الصالون نشرب الشاي ونتناول من الحلويات. قال لي الحاج:

ـ يا ولدي يا مراد، أنا قررت أن أزوِّجك ابنتي قمر، بناء على رغبتها وعلى ما نعرفه عنك من أخلاق حسنة. فما رأيك.

أصابتني الارتباك حتى إنني لم أصدق أذنيّ. أطرقت برأسي وبقيت ذاهلا. قال لي الحاج:

ـ أنت تعلم يا مراد أن ابنتي قمر هي قرة عيني، كما تعلم أنها كانت مخطوبة. وأنا أريد لها زوجا صالحا يحبها ويرعاها ويعيش معها في أمان، وهذا الزوج هو أنت.

قلت:

ـ أعلم ذلك. واعذرني آ الحاج، فقد أربكتني المفاجأة. قمر كانت في مكانة ابنة لي. بيني وبينها فارق كبير في السن، و...

قالت لي شمس الضحى:

ـ آ السي مراد قمر تحبك كما أنت، وتقدرك، ونحن لا نحب أن نحرجها بأن تتحدث إليك بنفسها. قال لك الحاج إنها ترضى بك زوجا.

قلت:

ـ هي شابة لطيفة. تستحق أحسن زوج في هذا العالم، وليتني أقدر على إسعادها والإخلاص لها ما بقي من حياتي.

نظرت إلى قمر فوجدت وجهها مجللا بحمرة الخجل، حتى بدا كتفاحة مقطوفة للتو من أحد جنان فاس. رفعت نظرها ونظرت إليّ. قال عمر:

ـ كلام جميل، لكنه يحتاج إلى الفعل.

قالت له والدته:

ـ السي مراد قوْل وفعل. ثم قالت لي:

ـ آ السي مراد جرت العادة بأن يطلب الرجل يد من يرغب في الزواج من والدها، وها هو الحاج أمامك.

قلت له وأنا متلعثم، وأصابع يدي ترتعش:

ـ آ الحاج، سامحني، فأنا مرتبك. أنا أطلب يد ابنتك قمر،

لأتزوجها على سنة اللـه ورسوله، بعد رضاها وموافقتها.

ابتسم الحاج وقال لي:

ـ قبلت ورضيت بعد قبولها ورضاها، وهي يا ولدي مراد حلال عليك، فصنها كما تصون نفسك وأَسْعِدْهَا كما تحب لنفسك السعادة. أما أنا وزوجتي لالة شميسة وولدي عمر فندعو لكما بحياة موفَّقة.

نهضت من مكاني فاتجهت نحوه وقبَّلت كتفه تعظيما وإجلالا، ثم عدت إلى مكان جلوسي. في تلك اللحظة داهمتني نوبة بكاء. قال لي الحاج:

ـ لا تبكِ يا ولدي مراد.

قالت شمس الضحى:

ـ هو بكاء الفرح.

نهضت قمر من مكان جلوسها وجلست بقربي فقالت لي:

ـ حبيبي لا تبك.

أخذت تمسح دموعي بأصابعها. طلبت شمس الضحى من الحاج وعمر أن ينسحبا وانسحبتْ. تركونا وحدنا. نظرت إليها من خلال دموعي. بدت لي صبية فاتنة لم أحلم طوال عزوبيتي أن أظفر بمثلها. لكني كنت أرفض الزواج، وها أنا أستعيد كل ما سبق أن

عرفته من مشاكل العلاقة بين الأزواج، ثم قلت لنفسي لا أبدا لن يحدث شيء من ذلك بيني وبين قمر. أتت إليَّ وعانقتني. عانقتها. أسندت رأسها إلى كتفي. غابت في أفكارها وغبت في أفكاري. قلت إنني أسترجع لقلبي كل ما ضاع منه من صبوات وخفق وحنين، وأنني أسترجع لجسدي كل ما ضاع منه من حاجاته إلى جسد الأنثى. استيقظت الأنثى في عروقي. أحسست بذكورتي تقترب من أنثى ما أعذبها وما أجملها وما أبهاها! أحطّها بذراعي فارتخت كغصن نعناع، وعندما شممت منها رائحة الأنثى أخذت أرتخي. هي التي أيقظتني. قالت:

ـ هل تريد أن تتحدث معي في شيء؟

قلت لها:

ـ بأية لغة سوف أتحدث معك يا قمر؟ أنت تقدمين لي حياة أخرى أعيشها معك على طبق من ذهب، لكني خائف.

قالت:

ـ خائف من ماذا؟

قلت:

ـ من ألا أستطيع أن أُسعِدَك.

قالت:

ـ من أية ناحية؟

ـ قلت:

ـ ليس لي مال سوى دخلي الشهري من راتب التقاعد، وأنا لو كنت أملك مال الدنيا لقدمته لك.

قالت:

ـ أنا اخترت أن أتزوج رجلا مثقفا، طيب القلب، ولم أُرِدْ زوجا ثَرِيًّا لِيُغْرِقَنِي في حياة الثراء.

قلت لها:

ـ شقتي لا تليق بمقامك.

قالت:

ـ بابا وماما سوف ينتقلان للعيش في الفيلا، وسيتركان لنا الشقة الواسعة لنقيم فيها أنا وأنت، هكذا قالت لي ماما.

أصابني نوع من الأنَفَة، فقلت لها:

ـ لن أقبل.

قالت لي:

ـ ولماذا لن تقبل؟

قلت لها:

ـ أنت حبيبتي وقرة عيني، ويجب أن تفهمي أنني لا أطمع في مال والدك أو في بيت أسكنه وهو يملكه بالمجان. أنا سأدفع لك صداقا على قدر حالي لنكتب عقد زواجنا، ثم إننا أنا وأنت سوف نؤثث نفس الشقة التي أنا أقيم فيها بأحسن الأثاث، وفيها سوف نعيش.

قالت لي:

ـ هذه شهامة منك، وأنا أحب الرجل الشهم، لكن الحياة العصرية تتطلب المشاركة بين الزوج وزوجته. ولن نختلف. لا تخف من شيء يا حبيبي مراد.

كلمة حبيبي أنعشت كل الحنايا والعروق. تأجل كل الموت الذي عرفته في حياتي. صرت أحلم بما يأتي به المؤجل والمؤمّل.

قالت لي:

ـ كرامة زوجي من كرامتي.

اقتربت مني. وضعتُ يدي فوق راحة يدها وأخذت ألامسها بحنان. لَثَمْتُ خدها. لَثَمَتْ هي الأخرى خدي. التهبت شفتانا بقُبلة محمومة وأنا أحوطها بذراعي وأُدخلها في حناياي. قالت لي:

ـ حبيبي مراد، سوف نتفق على كل شيء بما يُرضيك.

قلت:

ـ وبما يُرضيكِ أنتِ أيضا.

ـ لنا كل الوقت لكي نتحدث في التفاصيل. أقترح عليك أن أطلب في الغد إجازة من عملي، وأن أستعير من ماما سيارتها لنقضي يومنا معا في إيفران. ما رأيك؟

قلت لها:

ـ موافق.

قالت:

ـ في تمام الساعة التاسعة سوف تنزل من شقتك لتتناول الفطور معنا ثم ننطلق.

قلت:

ـ في التاسعة ونصف، بعد أن أمارس رياضتي الصباحية في طريق ملعب الخيل وأعود فأستحم وأفطر.

قالت:

ـ كما تشاء.

هتفتُ بها:

ـ حبيبتي.

وهتفت بي:

ـ حبيبي.

أمسكتني من يدي. خرجنا من تلك الصالة. عدنا لمجالسة والدها ووالدتها وأخيها عمر. أحسست بالخجل. جلست مطأطأ الرأس. قال لي الحاج:

ـ يا ولدي عمر، في يوم السبت القادم نُشهد عدلين على زواجكما، ولن نحتفل إلا مع بعضنا، فالحفلة الكبيرة هي التي سوف نقيمها لزواجكما.

قلت له:

ـ كم هو صداق ابنتك المصون آ الحاج؟

ضحك وقال لي:

ـ هو صداق الزواج الشرعي، ربع دينار.

ضحكت شمس الضحى وقالت له:

ـ ويلي يا الحاج، من أين سوف يأتيك بربع دينار؟ الدينار الذهبي عملة قديمة، فما بالك بربعه.

قال:

ـ قال صاحب الكافي في الفقه:

في ربع دينار فأعلى تُقْتَضَى

به اليمين ثم بعد تُرْتَضَى

وهذا هو صداق المرأة، ربع دينار فأعلى.

قالت له قمر:

ـ يا بابا السي مراد سوف يدفع عشرين ألف درهم، وأنا تفاهمت معه على أن يكون هذا المبلغ هو صداقي.

نظرت إليها فغمزتني. قال الحاج:

ـ تبارك الله. نقرأ الفاتحة.

بسطنا أَكُفَّنَا أنا والحاج وعمر وقرأنا الفاتحة. ختم الحاج بالدعاء لنا بالسعادة والرفاه والبنين. ثم قال لي:

ـ أنا أتعهد بأن أجدد لكما أثاث هذه الشقة لتقيما فيها، وبمصاريف العرس الذي سوف نقيمه في الفيلا التي هي على وشك أن تتم فيها الأشغال، كما أتعهد بأن أهدي لابنتي في ليلة عرسها مفاتيح سيارة من آخر موديل.

قلت له:

ـ ما بيننا ليس فيه طمع، وأنا لا أطمع إلا في أن أنال رضاكم ورضا ابنتك المصون الآنسة قمر.

قال لي:

ـ يا ولدي لا طمع ولا هم يحزنون. المال مال اللـه والعبيد عبيد اللـه، وحبذا لو كان الحب يملأ قلوب البشر، فالحب بين الناس قيمة لا تُعْدَلُ بمال.

قالت له شمس الضحى:

ـ بارك اللـه فيك آ الحاج. طيب وكريم ومن سلالة الكرماء.

قال لها:

ـ وأنا، لا تشرق شمسي كل صباح إلا مع زوجتي لالة شميسة.

ثم ضحك وقال:

ـ أين هو ذلك المخرج وذلك المصور؟ لو كنت أعرفهما لدعوتهما لكي يُكْمِلاَ ذلك الشريط الذي قال عنه معد برنامج "عالم السينما" إنه يحمل عنوان "فسيفساء"، لتكون خاتمته عرسًا فاسيًا أصيلًا، والعريس هو مراد الأشقر، والعروس هي ابنتي قمر.

ضحكنا جميعا. داعبني الحاج وقال لي:

ـ إياك يا مراد أن تصبح ذلك الرجل الطويل فتستحيل المعاشرة بينك وبين ابنتي قمر.

قالت له قمر:

ـ لن تستحيل المعاشرة يا بابا، فإن أصبح مراد هو ذلك الرجل الطويل فأنا سوف أصبح معه على نفس الحال، طويلة مثله.

قال:

ـ هذا هو الحب وإلا فلا.

استأذنت في الانصراف. قالت شمس الضحى لابنتها قمر:

ـ رافقي خطيبك إلى الباب.

عند باب شقتهم طال الهمس واللمس والعناق كما طالت القُبَلُ بيني وبين حبيبتي قمر. في تلك اللحظات خشيت أن يظهر على الأدراج الجار عبد المولى أو أخوه الجار عبد الرفيع فيريا منظرنا أنا وقمر متعانقين عند الممر، وساعتها سوف يتهماننا بالفساد. تركتها تدخل. قالت لي:

ـ حبيبي تصبح على خير.

قلت لها:

ـ حبيبتي تصبحين على خير.

صعدت إلى شقتي وأنا أرفرف بأجنحة ملائكية لا أعرف كيف التصقت بجسدي. صرت إلى وجود آخر غير وجودي: تدفأت في فراغ البيت بدفء قمر، وقد أتت لِتُلْهِبَ عواطفي. أصابني الحنين إليها. تمنيت لو كانت معي في كل لحظة حتى أغمرها بحناني وبهذا

الدفق الذي يتدفق من عاطفتي. ثم راجعت كل ما وقع. فكرت في أمر العشرين ألف درهم التي هي صداقها. قلت إنني أستطيع أن آخذها سلفة من البنك وستحل المشكلة. تذكرت خطيبها السابق نعيم وكيف كنت أنا من أبعده عن طريقها برغبة منها. خفت ألا تكون قد نسيته. شعرت بالغيرة. تذكرت ما أصابها من غيرة وهي تصغي إلى مكالمتي مع الآنسة ندى. قلت ماذا لو علمت ما كنت أُخَبِّئُهُ في قلبي لمريم؟ خشيت أن نبتذل جسدينا فنصبح أربعة في الفراش، هي مع نعيم وأنا مع مريم. استبعدت أن تحصل لنا خيانة كهذه، وقلت لنفسي يا مراد لا تفكر في شر الأمور، وعليك أن تفكر في أحسنها، فقد واتاك الحظ وأنت تقترب من أرذل العمر، فافرح ما أوتيت فإن كانت حمامة فطر معها حيث تطير، وإن كانت سمكة فاسبح معها حيث تسبح، وإن كانت فتاة جميلة فاستمتع بجمالها وأخلص لها في الحب ولا تبال بغير ذلك، فقد وجدت من تبالي بك فَبَالِ بها.

نمت ولم أنم. بت ليلتي في فراش مخملي. حلمت أحلاما وردية. بين كل حلم ويقظة كنت أشتاق إلى حبيبتي. نمت وكأني لم أنم.

في السادسة ونصف نهضت من الفراش. ارتديت البذلة الرياضية وانتعلت الحذاء الرياضي. غادرت الشقة وأنا أضع مفتاح الباب في جيب زَرَرْتُهُ بِزِرٍّ لكي لا يضيع مني. عندما نزلت الأدراج وقفت عند باب شقة الحاج السحنوني وقوفا طويلا وأنا ألقي السلام على

أهل الدار وعلى مَن تقيم في تلك تلك الدار، حبيبتي قمر. قلت لها:

ـ صباح الخير والحب والجمال.

خِلْتُهَا لا تجيبني لأنها لا تزال مستغرقة في نومها الجميل. خرجت من باب العمارة. وجدت إدريس الحارس يقف عند الباب ثم رأيته يدير لي وجهه ويخطو خطوات على الرصيف وهو يتجاهلني. سرت بين العمارات حتى خرجت إلى طريق ملعب الخيل. تريَّضت خفيف الجسم وكأن شيئا من روح الشباب قد عادت إليَّ. عدت إلى الشقة. استحممت ثم أفطرت بنفس الفطور الذي تعوَّدت عليه. تناولت الأدوية الصباحية. ارتديت معطفا أسود مبطنا واقيا من المطر وسروال بلودجين، ووضعت فوق رأسي قبعة سوداء ثم انتعلت حذاء سميكا يطلع إلى الركبة لم أكن قد استعملته من قبل. نزلت الأدراج. ضغطت على جرس باب بيت الحاج السحنوني. فتحته قمر. كانت ترتدي جاكيتة حمراء مشدودة إلى خصرها وسروال بلودجين أزرق، وفي يدها طاقية صوفية حمراء. بدت في غاية الجمال. قالت لي:

ـ صباح الخير حبيبي مراد. بِتُّ أحلم بك.

قلت لها:

ـ صباح الخير حبيبتي قمر. هل تعرفين أنني منذ أن فارقتك ليلة أمس لم أفارقك، لأنك بقيت تسكنين عقلي وروحي؟

ضحكت وقالت:

ـ هل أنت متيم بي آ السي مراد؟

قلت لها:

ـ يا قمر أنت المنى وأنت أنت الأمل.

خرجنا من العمارة معا وانطلقنا بسيارة والدتها وأنا أتوقع أن يرانا أحد من الجيران فيصيبه العجب. اتجهت نحو "وفا بنك" فأوقفت السيارة على الناصية وقالت لي:

ـ انتظرني للحظة. لن أتأخر.

بقيت أفكر فيما سوف تفعله في البنك. ثم أقبلت وفي يدها لفافة توقعت أن تكون بها أوراق النقد. دخلت السيارة ثم أغلقت الباب وقالت لي:

ـ حبيبي مراد. في هذا الكيس ثلاثون ألف درهم، سوف تأخذها. عشرون ألف درهم تدفعها لوالدي كصداق، وعشرة آلاف تهتم بها بنفسك.

اعترضتُ بحركة من يدي وهي تقدم لي الكيس، وقلت لها:

ـ لن أقبل هذا منك أبدا، فأنا قادر على أن أدفع صداقتك وأهتم بنفسي.

ابتسمت وقالت:

ـ لا تغضب مني يا حبيبي. المال الذي أوفره في حسابي في البنك هو مالنا معا، ألسنا سوف نتشارك في الحياة؟

قلت لها:

ـ سوف نتشارك، لكن الرجل هو من يدفع صداق زوجته.

قالت:

ـ صداقي لأكون حلالا عليك آ السي مراد هو ربع دينار. أما الشكليات الأخرى فدعنا نتفاهم حولها.

بقيت صامتا فقالت:

ـ المال الذي أوفره في حسابي في البنك أكثر من هذا بكثير، ولا أحد يعرف شيئا عنه، لا أمي ولا أبي، خذ، خذ يا حبيبي، ودعنا ننطلق إلى إيفران.

قلت لها:

ـ خَبِّئي الكيس في خلفية السيارة وتأكدي من إغلاقها جيدا. انصاعت لما طلبت، ثم عادت فطلبت مني أن أغلق حزام السلامة بعد أن أغلقت حزامها واتجهنا نحو إيفران. مررنا بـ(سهل سايس) ثم بدأنا نصعد نحو الأعالي. انتشيت بمظهر الخضرة التي كانت

تظهر على الطريق، وكانت أجمل ما شدني إلى مناظر الطبيعة هي أشجار اللوز التي أزهرت بزهور قرمزية فاتنة اللون. كانت قمر قد أطلقت موسيقى حالمة استمعنا إليها فأصبحنا نشوانين حتى أصبحت السيارة تُحلق بنا في الفضاء. من حين لآخر كنت أنظر إليها لأملأ عيني من جمالها، وكانت تشعر بنظراتي. أخرجت من جيب سترتي قرصا أصليا لكونسيرطو لتشايكوفسكي. قدمته لها فأخلته في درج الموسيقى، وبعد أن انطلق الكونسيرطو أحسست أنني أوجد في عالم جميل يشبه عوالم الحلم الرومانسية، وهي فرحة غمرت قلبي. همست لها:

ـ حبيبتي قمر.

ردَّت عليَّ:

ـ حبيبي مراد، هل أنت سعيد؟

قلت لها:

ـ كل السعادة، ولأنها سعادة فاجأتني فأنا لا أصدق.

ـ سوف تكون أيامنا كلها سعادة.

عندما وصلنا إلى إيفران كانت المدينة مكسوة بالثلوج. أوقفت السيارة في موقف فسرنا على الأرض البيضاء وندف الثلج تتساقط على رأسينا وكتفينا. شعرنا بالبرد. خاصرتني. خاصرتها ولثمت

خدَّها. لثمت خدي. قصدنا أحد المقاهي فطلبت من النادل قهوة مركزة في فنجان وطلبت منه أنا شايا أسود مع شريحة من الليمون الحامض. نظرت إليَّ ونظرت إليها فلم يقل أحدنا للآخر أي شيء. تَعَطَّلَتْ لغة الكلام وحضرت لغة أخرى تخاطب العين بها العين. قَرَّبْتُهَا من ناظري. نظرت إليها فنظرت إليّ. تركتها ترشف من فنجان قهوتها ورشفت من الشاي. أخرجت من جيب سترتها كاميرا. طلبت من النادل أن يأخذ لنا صورة. غادرنا المقهى. قصدنا أسد الأطلس. كان هو الآخر مكللا بالثلج. وقفت هي على يمينه وأنا على يساره. قدمنا الكاميرا لمن التقط لنا صورة. عدنا نركب السيارة فسرنا في الطريق المحفوف من الجانبين بغابات الأرز وقد جَلَّلَهَا البياض. بياض رأيت فيه بداية جديدة لحياتي، وأنا أقتنع ألا رجل يعيش من دون امرأة وأن لا مرأة تعيش من دون رجل، وأحسن ما يكون بينهما هو الحب. بالحب تتقوَّى الروابط وتظهر التضحيات كما تتبدد الغربة في حياة الرجل والمرأة بعد أن يصبح لكل واحد منهما أنيس يؤنس، وعاشق يشتاق، وأمير متربع على إمارة الحب.

انطلقنا إلى ميشليفن. وقفنا نظل على الهضبة والمنحدر، حيث كان المتزلجون يتزحلقون بزلاقاتهم على الجليد. قالت لي قمر:

ـ في المرة القادمة نكتري زلاقتين ونتزحلق بهما على الجليد.

قلت لها:

ـ كما تريدين. لكني أتذكر الآن رقصات الباليه التي شاهدتها على الجليد. أستحضر الجسد كيف يصبح له سحره وهو يميل ويعلو على قدم واحدة، والرجل يمسك بالمرأة من طرف يدها ليصنعا حركات مذهلة للعين.

قالت:

ـ هل تحب حضور الرجل والمرأة فوق الجليد؟

قلت لها:

ـ حرارة حركات جسديهما لا تُذيب الجليد، لكنها تُحرر الجسد من خلال رقصاته التي تتناغم فيها الحركات مع الموسيقى.

خاصرْتها وخاصرتْني. مشينا نحو السيارة. قالت لي:

ـ حبيبي أنا جائعة.

قلت لها:

ـ نعود إلى إيفران، فثمة مطعم راقٍ يقدم أحسن المشويات.

قصدنا ذلك المطعم. كان مُدَفَّأ بمدفآت يشتعل فيها الحطب. جلسنا إلى إحدى الموائد. أحسسنا بالحرارة. رأيت وجنتيها محمرّتين. رأيتها تأكل بشراهة. فرحت لذلك، فهو دليل على صحتها وشهيتها

المتفتحة. أطعمتها وأطعمتني. خلال ذلك رفعت نظري فرأيت بنات خالتي هند وسهام ومريم يجلسن إلى مائدة بالقرب منا، مليئة بالطعام وهن لا يتناولن طعامهن وينظرن إلينا أنا وقمر. سمعت قمر تقول لأختيها:

ـ هذا هو مراد؟ أول أمس، في ليلة رأس السنة، كلمته بالهاتف وأكد لي أنه في حياته السابقة وإلى اليوم لم يحب امرأة أخرى غيري.

أخذت تركز نظراتها عليَّ، ثم قالت بصوت مرتفع:

ـ الحمارة هي التي تصدق رجلا. كلكم كذابون.

تجمَّدت في مكاني وتوقفت اللقمة في يدي. نظرت إليّ قمر وقالت:

ـ حبيبي مالك؟

قلت لها:

ـ انظري بهدوء إلى تلك الطاولة التي بجوارنا، حيث تجلس ثلاث أوانس.

نظرت إليهن ثم قالت:

ـ قل عوانس. يبدون أكبر سنا من ماما.

صمتت لحظة ثم قالت لي:

ـ من هن؟ هل تعرفهن؟

قلت لها:

ـ هن بنات خالتي. وبالمناسبة، فأنت حفيدة عمتهن، جدتك لالة هبة، لكنهن لا يعرفنها وهي لا تعرفهن.

ظلت مريم تتسمع ما نقول. أخذت بيدها شوكة لتتناول بها الطعام ثم رمتها بعصبية على المائدة. بدا عليهن أنهن يتخاصمن. طلبت هند من النادل أن يأتي بورقة الحساب فدفعته له ونهضن ثلاثتهن مفزوعات ثم غادرن المطعم. حكيت لقمر قصتي معهن، منذ أن فتحت عيني على الدنيا في بيت والدهن السي الفاطمي بنسودة وخالتي لالة فخيته الرحمة عليهما، وأنني نشأت معهن كأخوات لي، وتعرضت بإيجاز شديد لحكاية حبي لمريم، وكيف تعرض ذلك الحب للفشل. قالت لي:

ـ ذلك من حظي أنا. شاءت الظروف أن تكون لي أنا.

قلت لها:

ـ وأنا سعيد بـأن أكون لك وتكوني لي.

بقيَ أمامنا شواء كثير في طبق كبير رأينا أن نزهد فيه بعد أن برد. دفعت الحساب للنادل. وقفنا عند باب المطعم للحظات قبل أن

نخرج منه. زَرَرْنَا أَزْرَارَ سُتْرَتَيْنَا وسويَّنا القبعتين فوق رأسينا، استعدادا لتقبل موجة الصقيع وندف الثلج التي تتساقط تباعا.

خرجنا إلى الطريق متخاصرين. مشينا تحت تساقط ندف الثلج. بدأ البخار يتصاعد من أنفينا ونحن نتنفس الهواء البارد، وبخار أنفاسها يتمازج مع بخار أنفاسي. همست لها ببعض الكلمات وهمست لي. تكاثر تساقط ندف الثلج على رأسينا وكتفينا. سرنا دون أن نتوقف. كنا نخطو ضاحكين ونظراتنا تتجه نحو الأمام، فقد تركنا الكثير من الأشياء خلفنا ومضينا متعانقين نتدفأ ببعضنا وننظر إلى البعيد.

6

وهو صباح يوم الثلاثاء الأول من شهر يناير من العام 2013.

لا لم يكن.

ربما كان أو لم يكن.

قد يكون ذلك كان ولكنه قد كان في عالم غير عالم الواقع. ربما لذلك، نهضت وأنا أشعر بيدي تمسح حفنة من ثلج التقطتها قمر من الأرض المثلجة ثم رمتني بها. كان ذلك هو آخر مشهد صحوت وأنا أغتبط به، وكانت هي أولى اليقظات. نظرت إلى ساعة يدي فكانت تشير إلى التاسعة صباحا. ها قد فات موعد خروجي من عمارة الحاج السحنوني في السابعة صباحا للتريض. أفهم الآن ما حدث. نمت لساعات طويلة والمنبه الداخلي الذي كان يوقظني في

الوقت المعتاد اختل توقيته بعد كل ما وقع في الليلة الماضية. لم يسبق لي منذ سنوات أن تأخرت عن موعد يقظتي من النوم، لكنها ليلة البارحة، عشت فيها الكثير من الأشياء التي ضغطت على نفسي ثم امتدت تلك الأشياء إلى الحلم.

هل هو حلم أم كابوس؟

كابوس فظيع جعلني في بعض الأحيان أحسب أنني لن أعود إلى حالتي الطبيعية، ولذلك كنت أقلق على مصيري، وكلما نظرت إلى جسدي وهو على ذلك الطول إلا وكنت أكاد أوقن أن ذلك التحول قد أصابني.

بين فينة وأخرى، خلال ذلك الكابوس، كنت أشعر أنني في حلم، ثم يستغرقني عالم الحلم فلا أفكر هل أنا في حقيقة أم في حلم.

ما أبهجني في آخر الحلم أن أرى قمر السحنوني وهي تصبح زوجة لي، رغم أن ذلك من قبيل المستحيل.

وضْع ابتهجت به وعشته باستغراق كبير، غير أنني وأنا الآن أستفيق من التلذذ بتلك المواقف التي عشتها مع قمر.

نهضت من الفراش. سرت نحو المطبخ. شربت كأس ماء. أحسست بالارتخاء في جسدي. دخلت الحمام. نزعت ملابس النوم. وقفت تحت الرشاش. الماء الدافئ يغمر رأسي وجسدي. تنشفت

بمنشفة. ارتديت جلبابا أبيض وانتعلت بُلْغَةً بيضاء كنت أُخَبِّئُهُمَا لأيام الأعياد والمناسبات وخرجت.

عند باب العمارة وقفت مع المشيِّعين لجنازة عمي الضوبلي.

في انتظار أن تخرج الجنازة استرجعت الحلم. خشيت أن يسألني بعض المشيِّعين عن الرجل الطويل، وكنت أعد الجواب:

ـ الرجل الطويل لم يوجد إلا في حلم الليلة الماضية، فهل حلمتم أنتم الآخرون بمثل ما حلمت به أمس، وهل رأيتم في حلم البارحة الرجل الطويل؟

المؤلف في سطور

- محمد عز الدين التازي.
- من مواليد **1948**، فاس، المغرب.
- يعمل أستاذًا للتعليم العالي.
- حصل على عدة جوائز، منها:
جائزة المغرب للكتاب **1977**، جائزة الطيب صالح العالمية **2013**، جائزة العويس الثقافية في حقل القصة والرواية **2013**.

صدر له:

1 - أبراج المدينة، اتحاد كتّاب المغرب بتعاون مع اتحاد الكتاب في العراق، دار آفاق عربية، 1978.
2 - رحيل البحر، طبعة أولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1983. طبعة ثانية، مؤسسة منتدى أصيلة 2002.
3 - المباءة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، طبعة أولى 1989. طبعة ثانية 2000. طبعة معدلة صدرت عن مكتبة الأمة للتوزيع والنشر، الدار البيضاء، 2005.
4 - أيام الرماد، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 1994. طبعة ثانية صدرت عن دال، دمشق، 2011.
5 - فوق القبور/ تحت القمر، منشورات عيون، الدار البيضاء 1988.

6 - أيها الراني، دار الأمان، الرباط، 1990.
7 - مهاوي الحلم، البوكيلي للطباعة والنشر، القنيطرة، 1998.
8 - مغارات، الطبعة الأولى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1992. طبعة ثانية، مطبعة الساحل، الرباط، 1994.
9 - ضحكة زرقاء، منشورات الزمن، الرباط، يوليوز 2000.
10 - عَيُوشَة/ امرأة الشمس والقمر (رواية للفتيان)، دفاتر المدرسة العليا للأساتذة، العدد 7، نوفمبر 1996. الطبعة الثانية، ضمن الأعمال الروائية الكاملة، منشورات وزارة الثقافة، 2005. الطبعة الثالثة، ألطوبريس، طنجة، 2011.
11 - كائنات محتملة، مطبعة طوب بريس، الرباط 2002. طبعة ثانية: روايات الهلال، القاهرة، فبراير 2003.
12 - خفق أجنحة، طوب بريس، الرباط، 2002.
13 - الخفافيش، وكالة الصحافة العربية، القاهرة 2002. طبعة ثانية: دال، سوريا، 2012.
14 - زهرة الآس، ثلاثة أجزاء: (واد رشاشة/ شم النسيم فجنان السبيل/ دار الدبيبغ)، منشورات سليكي بطنجة، بدعم من وزارة الثقافة والاتصال، 2003.
15 - دم الوعول، منشورات سليكي بطنجة، بدعم من وزارة الثقافة، 2005. طبعة ثانية، رؤية، القاهرة 2012.
16 - امرأة من ماء، منشورات سليكي بطنجة، بدعم من وزارة الثقافة، 2005.
17 - بطن الحوت، منشورات سليكي بطنجة، بدعم من وزارة الثقافة، 2006.

18 - حكاية غراب، منشورات سليكي بطنجة، بدعم من وزارة الثقافة، 2007.

19 - أبنية الفراغ، منشورات سليكي بطنجة، بدعم من وزارة الثقافة، 2009.

20 - شهوة تحت الرماد، دار الحوار، اللاذقية، 2012.

21 - الحديقة الأندلسية، منار الكتاب، تطوان، 2011. طبعة ثانية، رؤية، القاهرة، 2012.

22 - وهج الليل، دال، دمشق، 2012.

23 - الأعمال الكاملة، الروايات، ثلاثة أجزاء، منشورات وزارة الثقافة، 2005.

فازت رواية محمد عزالدين التازي «يوم آخر فوق هذه الأرض» بجائزة الطيب صالح العالمية للإبداع في دورتها 2013، وتميزت الرواية بالتعمق في التفاصيل، والتي تجعل القارئ يشاهد الأحداث وكأنها شريط سينمائي يدور أمامه.

وفي هذه الرواية، يأخذنا محمد عزالدين التازي إلى مدينة فاس، الفضاء الواسع الذي احتضن الأحداث، فرأينا شوارعها وأسواقها وسكانها، وعشنا مع نجاريها وحداديها ودباغيها وباعتها المتجولين والمثقفين والمتسولين، فتراءت فصول الحكاية، من خلال شخصية مراد الأشقر، الرجل الذي يحلم بأنه أصبح طويلًا جدًا، ويعيش هذا الحلم يومًا كاملًا، حتى صارت أعالي أعمدة الكهرباء عند مستوى ساقيه.. والسيارات العابرة كلعب أطفال تلهو وتسير هنا وهناك، فأصبح مع هذا التغير ينظر لحياته الشخصية من الأعلى دون أي نزعة استعلائية، فيرى نفسه في قلب مدينته فاس، ويشاهد التحولات التي تدور من حوله، وتأثيرها على الحياة الاجتماعية، ليطل على معالم فاس وأحيائها وأزقتها وشوارعها، مستحضرًا حنينه للمدينة التي عاش فيها طفولته، تاركًا مساحة كبيرة للخيال ليصول ويجول بوعي رصين، ولغة جميلة. ما يميز الرواية أنها تنقلنا إلى فاس، لنمارس الرياضة على «طريق ملعب الخيل»، حيث المكان الذي يمارس فيه مراد الأشقر رياضته اليومية، وتأخذنا لنعيش في «عمارة الحاج السحنوني» لنعايش الأحداث مع أبطال الرواية، ونزور البطل مع صاحب العمارة الحاج السحنوني، وزوجته شمس الضحى وابنتهما قمر، وزميلته قطر الندى التي ترغب بالزواج منه.

أجمل ما في الرواية أنها تغوص في أعماق النفس البشرية في جميع حالاتها، فتقابل الانفعالات بصوت العقل والضمير والتساؤلات التي تتردد في الصدر بصوت دون صدى، تاركة كل الحالات والانفعالات أمام القارئ، يعيش معها لحظة بلحظة، فيتعاطف مع بطل الرواية، ويجيب على تساؤلاته، ويفكر بعقله وقلبه معًا.

لوحة وتصميم الغلاف: غادة خليفة

9 789774 903137

دار العين للنشر
Elain Publishing House